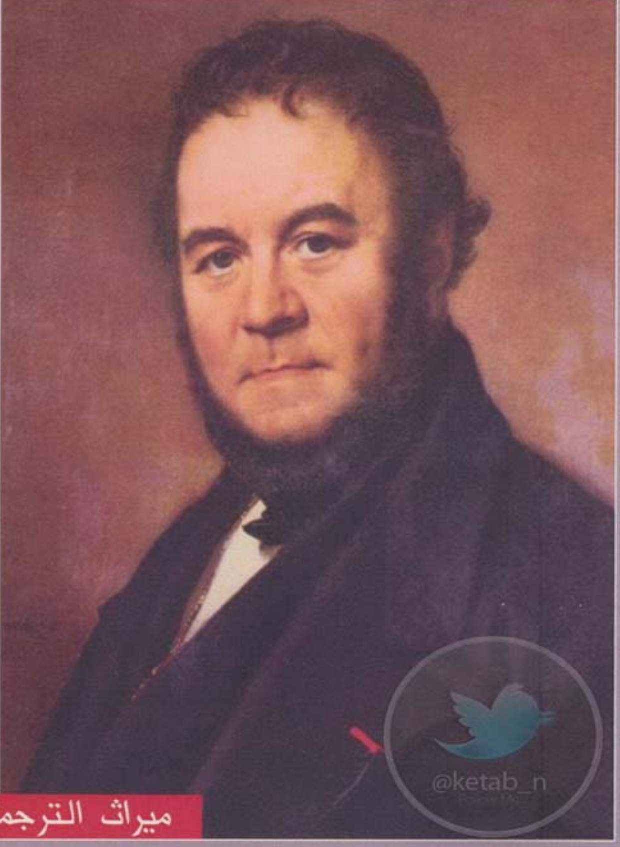
المركز القومى للترجمة

ستندال

الأحمر والأسود

(الجزء الأول)

ترجمة: عبد الحميد الدواخلى
مراجعة: إبراهيم مدكور
تقديم: فاطمة خليل



ميراث الترجمة

1720

المشروع القومى للترجمة

الأحمر والأسود
(الجزء الأول)

تـــــأليف : ســــــــــــــــــتندال

ترجمــــــة : عبد الحميد الـــدواخلى

مراجعــــة : إبــــراهيم مـــــدكور

تقـــــديم : فاطمــــــة خليــــــل

2013

الأحمر والأسود

(الجزء الأول)

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة

المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 1720
- الأحمر والأسود (الجزء الأول)
- ستندال
- عبد الحميد الدواخلى
- إبراهيم مدكور
- فاطمة خليل
- 2013

هذه ترجمة كتاب:

Le Rouge et le Noir

Par: Stendhal

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

بيل،هنر، ١٧٨٣-١٨٤٢.
ستندال الأحمر والأسود (مج١)، تأليف/ ستندال؛
ترجمة: عبد الحميد الدواخلي؛ مراجعة: إبراهيم مدكور.
ط١، القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٣
٣٨٠ص، ٢٤سم .
١ - القصص الفرنسية
(أ) الدواخلي، عبد الحميد (مترجم)
(ب) مدكور، إبراهيم (مراجع)
(جـ) العنوان ٨٤٣

رقم الإيداع ٥٠٥١ / ٢٠١١
الترقيم الدولى : 978-977-704-495-0
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

تقديم

ستندال أو هنرى بيل (١٧٨٣-١٨٤٢)، واحد من أشهر الكتاب الفرنسيين فى النصف الأول من القرن التاسع عشر. ولد فى ٢٣ يناير ١٧٨٣ فى مدينة جرينوبل الفرنسية لعائلة برجوازية. قضى سنوات طفولة حزينة، إذ توفيت والدته - التى كان يكن لها كل الحب - وهو دون السابعة. عهد بتربيته إلى خالته، ثم عهد بتعليمه إلى القس رايان. تولدت لديه كراهية شديدة وتمرد ضد معلمه الكنسى وضد والده الذى كان يجسد - فى نظره- التعسف الأخلاقى والمعنوى والدناءة والبخل وأسوأ ما تحمله الطبقة البرجوازية من صفات لا تحتمل. أما الشخص الوحيد الذى كان يركن إليه ويشعر تجاهه بعاطفة جياشة، فكان جده جانيون الفيلسوف الحكيم الذى كان مؤيدا لأفكار الثورة الفرنسية. وكان لهذه السنوات أثر بالغ على كتابته لشخصية جوليان سورال بطل رواية "الأحمر والأسود" التى نحن بصددها.

بعد استكمال دراسته الثانوية سافر إلى باريس للالتحاق بمدرسة البوليتكنيك لدراسة الرياضيات، إلا أنه أخفق فى الالتحاق بها فأصيب بخيبة أمل من العاصمة. فى عام ١٨٠٠ شارك فى حرب إيطاليا التى بدأت عام ١٧٩٩ وواجهت فيها فرنسا قوات متحالفة من المملكة المتحدة والنمسا وروسيا إلى جانب تركيا. وكان من نتائج مشاركته فى هذه الحرب هو اكتشاف إيطاليا التى بهرته بفنونها الجميلة وموسيقاها، والتى كان متحمسا

للتعرف على ثقافتها إحياءً لذكرى والدته وحبا لها، إذ كانت من أصول إيطالية. بعد عودته إلى باريس حاول أن يفسح لنفسه مكانا فى مجال إدارة الأعمال أو فى مجال الأدب، وأخذ يتردد على الصالونات الأدبية والمسارح، وبدأ الكتابة، وكان يطمح فى كتابة أعمال كوميدية مثل مسرحيات موليير، إلا أنه لم يستمر فيها.

فى عام ١٨٠٦ تم تعيينه فى إحدى الإدارات العسكرية، حيث أثبت مهارات تنظيم فائقة أهلته لأن يحقق من خلالها إحدى هواياته المفضلة وهى السفر والتعرف على البلاد المجاورة. فكان أن شارك مع جيش نابليون فى حملته إلى ألمانيا، حيث بلدة "ستندال" الصغيرة التى اقتبس اسمها للتوقيع على أعماله الأدبية فيما بعد. ثم عمل مساعدا لمفوضى الحرب، كما تم تكليفه بمهام دبلوماسية فى ستراسبورج وفيينا ولينز. تنقل فى أسفاره بين إيطاليا وألمانيا والنمسا وروسيا. وفى عام ١٨١٠ عين مندوبا فى مجلس الدولة فى باريس.

كانت بداية أعماله الإبداعية فى عام ١٨١٢ عندما استقر فى إيطاليا وبدأ فى كتابة "تاريخ الرسم فى إيطاليا" التى صدرت فى ١٨١٧، ومقالته "روما ونابولى وفلورنسا" التى كانت أول عمل يحمل اسم ستندال، وتمثلت فيها بدايات إبداعاته الأدبية.

وفى مدينة ميلانو الإيطالية - التى أحبها وعشقها واتخذها مدينة دائمة له، بل واعتبر نفسه واحدا من أبنائها- أخذ ينهل من موسيقاها وفنونها.

وبعد علاقة عاطفية عاصفة وغير مستقرة مع أنجيلا بييتراجروا، وقع فى غرام فتاة إيطالية أخرى - ميتيلد ديمبووسكا - التى لم تبادله نفس

المشاعر، فكانت الصدمة النفسية التى دفعته إلى أن يقرر مغادرة ميلانو إلى باريس، وذلك فضلا عن الأسباب السياسية التى دفعته لذلك، والتى من بينها أن النمساويين كانوا يأخذون عليه تعاطفه الواضح مع الليبراليين من الإيطاليين.

وفى باريس أحسن استقباله فى أوساط المجتمع الراقى وفى الصالونات الأدبية، والتى رغم تكرار تردده عليها لم تنسه حبه لميتيلد. ومنذ ذلك الحين بدأت تتوالى أعماله الأدبية الواحدة تلو الأخرى، فصدرت له "عن الحب" فى ١٨٢٢، حيث يضع تحليلا لهذه العاطفة ويضع نظريته الشهيرة عن التبلور النفسى، وهى الحالة النفسية التى يتم بحسبها تعليق كل الأحداث بموضوع العشق. وفى ١٨٢٣ صدر مؤلفه "راسين وشيكسبير" الذى يثنى فيه على الأعمال المسرحية للكاتب الإنجليزى الأشهر التى تظهر فيها بقوة رومانسية المشاعر والانفعالات مقارنة بكلاسيكية الكمال البارد الفاتر فى أعمال راسين التراجيدية. وفى ١٨٢٧ ظهرت أول رواية له بعنوان " أرمانس" التى يحكى فيها عن قصة حب تجمع الشاب اللامع قليل الكلام أوكتاف بابنة عمه، إحدى فتيات عائلته، أرمانس. وبعد سوء فهم تكرر عدة مرات بين الحبيبين لأسباب عدة، أبى كل منهما أن يبوح للآخر بمشاعره تجاهه، هجر أوكتاف حبيبته أرمانس وذهب ليقاتل فى صفوف الجيش دون الكشف عن الأسباب التى دفعته لذلك. وكانت هذه الرواية بما تحمله من موضوعات وأفكار وتيمات تحمل القارئ على تحليل شخصية البطل ذاته، بمثابة فاتحة طريق لستندال لانطلاق روائع أعماله الكبرى.

وفى عام ١٨٣٠ أصدر ستندال رائعته " الأحمر والأسود" التى لم تلق إقبالا فى الأوساط الأدبية فى بداية ظهورها. وفى نفس هذا العام تم تعيينه

قنصل فرنسا فى مدينة ترييستا الإيطالية ثم فى بلدة سيفيتافيتشيا (المدينة القديمة) التابعة لمدينة روما العاصمة، وذلك فى العام التالى. وخلال هذه التنقلات قدم روايته الجديدة "لوسيان لوين" التى صدرت عام ١٨٥٥ بعد وفاته. وبطلها شاب يشبه إلى حد كبير جوليان سورال بطل رواية "الأحمر والأسود". وقد تركها ستاندال دون وضع نهاية لها بما تضمنته من نقد مباشر لنظام حكم الملك لويس فيليب (١٧٧٣-١٨٥٠) الذى شهد عصره ظهورالمعدات الحديثة مثل السكك الحديديّة، والباخرة، والتصوير الفوتوغرافى إلا أن الثراء الفاحش لطبقة البرجوازية الصناعية والمالية والتى كان يقابلها البؤس والفقر المدقع للطبقة العاملة فضلا عن البطالة والأزمات المالية المتكررة قد عجل بظهور حركات تمرد بين أفراد الشعب، مما أوقد ثورة ١٨٤٨ حيث تنازل لويس فيليب عن الحكم ومات عام ١٨٥٠ فى منفاه فى انجلترا.

والبطلان فى الروايتين يشبهان إلى حد كبير ستاندال الذى يفسح فيهما المجال للحديث عن الحساسية المفرطة للبطل، وأهمية الحب بالنسبة له فى حياته الخاصة. وبالنظر إلى ما يتصف به من خيال مفرط وعدم رضاه وخجله فى مواقف كثيرة ، فهو لم يتوصل إلى التوفيق فى الحب.

لذلك فإنا نرى أن ستندال قد لجأ إلى رواياته لكى يشبع رغباته فى الحب ويعيش فيها القصص التى لم يحالفه فيها الحظ فى حياته الخاصة.

ولتحقيق ذاته فى الحب فقد لجأ إلى أبطاله الذين سيصيبهم ما أصابه من إحساس بالخجل وعدم تحقيق ما يصبو إليه من نجاح فى الحب، إلا أن هؤلاء الأبطال سينالون الإعجاب والحب بصورة لا مثيل لها من العنصر النسائى .

وفى نفس هذه الفترة بدأ ستندال فى تحرير بعض كتاباته عن سيرته الذاتية فكانت "ذكريات نرجسية" التى لم تكتمل وصدرت عام ١٨٩٣ بعد وفاته، و"حياة هنرى برولار" التى صدرت عام ١٨٩٠ بعد وفاته، وفيها يستعير اسما مغايرا له. وفى كتاباته عن سيرته الذاتية ومذكراته يضع ستندال السعادة الفردية كهدف للوجود، تدعو إلى الاستمتاع باللحظة الحالية قبل أن تفلت من بين أيدينا، كما يضع أيديولوجية للعشق والرغبة والإرادة ، أو فن الحياة، والتى كان هو يطلق عليها اسم " النرجسية".

وبهذه الفلسفة وهذا الرأى تتجسد روايته "منزل بارما الريفي" التى صدرت عام ١٨٣٩ فى جزأين. وعن هذه الرواية يقول الكاتب الفرنسى الشهير بلزاك (١٧٩٩-١٨٥٠) "إننى أعتبر مؤلف رواية "منزل بارما الريفى" كواحد من أفضل كتاب هذا العصر".

وفيما بين عامى ١٨٣٧ و١٨٣٨ قدم ستندال "وقائع إيطالية" صدرت أيضا عام ١٨٥٥ بعد وفاته، ثم أصدر كتابه الذى كان يعد فى ذلك الحين من أهم المراجع فى مجال السياحة، والذى يحمل عنـــوان "مذكرات سائح" فى عام ١٨٣٨. أما آخر رواياته فكانت "لاميال" غير المكتملة، والتى صدرت عام ١٨٩٩ بعد وفاته ثم "أفكار إيطالية حول بعض اللوحات الشهيرة" وصدر عام ١٨٤٠.

وفى عام ١٨٤٢ أصيب ستندال بأزمة صحية أصابته فى المخ وقضت عليه، أثناء وجوده فى باريس.

ومن المعلوم أنه فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر كانت فرنسا تحت حكم نابليون الذى استولى على السلطة وتم تتويجه

امبراطورًا لفرنسا فى ١٨٠٤. قام بتنظيم البلاد وبإحلال العدالة. ونتيجة لطموحاته فقد خاضت فرنسا فى عهده عدة حروب وغزوات كان يهدف بها إلى توسيع رقعة الأراضى الفرنسية، إلا أنه منى بهزيمةٍ ساحقةٍ فى روسيا عام ١٨١١. وفى ٦ إبريل ١٨١٤ تم عزله من منصبه ونفى إلى جزيرة إلبى. عندها تسلم الملك لويس الثامن عشر مقاليد الحكم. ثم عاد نابليون مرة أخرى إلى بلاده وقاد جيش بلاده إلى معركة أخرى ضد البلدان الأوروبية فى موقعة "واترلو" التى كانت القاضية بالنسبة له ولجيشه. عندها تم نفيه إلى جزيرة سانت هيلين التى مات بها عام ١٨٢١.

أما عن روايته " **الأحمر والأسود**" التى بين أيدينا الآن، فقد اقتبس ستندال فكرتها من حادثة مأساوية واقعية حدثت بالفعل فى إحدى المقاطعات الفرنسية وأضاف إليها ستندال ما رآه لازما لشخوص الرواية.

تدور أحداث الرواية فى بلدة فيريير التى تخيلها ستندال. جوليان سورال هو الابن الثالث لنجار يمقت كل ما هو ذهنى، بينما جوليان الذى ليس مؤهلا للأعمال الشاقة مثل أبيه وأخويه، ذهنه متوقد ويميل إلى القراءة والمعرفة، فهو يحفظ "المعهد الجديد" عن ظهر قلب، ويرتدى الثوب الكنسى الأسود ويتمتع برعاية قس القرية الأب شيلان، وهو شغوف بالبطولات التى حققها القائد نابليون بونابرت الذى يعتبره نموذجا وقدوة. عهد به القس شيلان إلى السيد دى رينال عمدة البلدة ليقوم على تعليم أبنائه الصغار. كانت تلك هى بداية اتصال جوليان ودخوله إلى حياة البرجوازية فى إحدى المقاطعات.

وبالنظر إلى طموحه فى أن يكون نابليون بونابرت الجديد وتأييده لمبادئ الثورة الفرنسية واللون الأحمر - لون وشاح جوقة الشرف، والذى يرمز بالنسبة له إلى الالتزام إلى جانب القائد بونابرت، كما أنه هو أيضا

لون الدم الذى سال فى نهاية الرواية من السيدة دى رينال ومن جوليان نفسه – وبرغم إحساسه بالخجل فى مواقف كثيرة، فقد استطاع جوليان أن يوقع السيدة دى رينال فى حبه وهى شابة جميلة، يعلو وجهها الخجل، على قدر من السذاجة التى دفعت جوليان لكسب قلبها بسهولة، حيث لم تكن قد عاشت هذا الإحساس الجميل من قبل. بدأ جوليان يغزو الحياة البرجوازية فى المدينة حتى أصبح حديث المجتمع هناك.

وبعد وشاية لعمدة المدينة عن علاقة حميمة بين زوجته وبين معلم أبنائه، اضطر دى رينال إلى طرد جوليان من منزله. وبناء على نصيحة من القس شيلان فقد اضطر للالتحاق بمدرسة إكليركية فى مدينة بوزانسون، وارتدى الزى الكنسى الأسود فى المدرسة التى لم يجد فيها سوى الكراهية والقطيعة من زملائه الذين جاءوا من بيئات قروية متواضعة. قضى جوليان بها أوقاتا عصيبة حتى عرض عليه القس بيرار مدير المدرسة أن يصبح سكرتيرا للماركيز دى لامول الارستقراطى الشهير فى باريس.

بذكائه المتوقد ورغبته فى تحقيق طموحاته، تعرف جوليان على ماتيلد ابنة الماركيز، شابة ذات شخصية متميزة فى المجتمع الأرستقراطى. وقعت الفتاة فى حبه ورفضت كل من تقدم للزواج منها من أبناء كبرى العائلات الأرستقراطية الباريسية. بعد أن أثمر حبهما الخفى عن جنين فى أحشائها، فقد طلبت من أبيها أن يزوجها سكرتيره. فى هذه الأثناء كان الماركيز قد رفعه ومنحه منصبا شريفا فى ستراسبورج، وبذلك أصبح ابن النجار الفارس جوليان سورال.

رفض الماركيز دى لامول فكرة زواج ابنته من جوليان رفضًا قاطعًا بعد أن تلقى من السيدة دى رينال رسالة تندد فيها بسوء خلق جوليان حبيبها

السابق الذى لا يسعى إلا إلى تحقيق طموحه الشخصى، وأنه يدوس بقدمه على الآخرين.

فما كان من جوليان إلا أن غادر باريس متوجهًا إلى بلدة فيريير ودخل كنيستها، وبكل الحنق والغيظ فى داخله والذى انقلب إلى قسوة وعنف، وفى أثناء إتمام مراسم القداس صوب رصاصتين من مسدسه إلى السيدة دى رينال، إلا أنها لم تمت!

وبرغم ما حدث، فقد كانت المحبوبتان تدافعان عن جوليان القابع فى السجن ينتظر حكم المحكمة، وقد هاله عدم جدوى كل محاولاته فى الترقى وتحقيق الطموح الاجتماعى. وفى النهاية قضت المحكمة بإعدامه.

وبعد دراستها وتحليل ما جاء بها، فإن الغالب فيها أن رواية "الأحمر والأسود" رواية تاريخية، حيث يكشف ستندال بها خفايا ثورة ١٨٣٠ مع دراسة خلفية المجتمع الفرنسى آنذاك مع ما به من تعارض واضح بين باريس العاصمة والمقاطعات الأخرى، بين طبقة النبلاء والبرجوازيين والطبقة الدنيا، بين أنصار المذاهب الدينية المتشددة وغيرهم.

أما عن الجانب النفسى التحليلى للرواية فقد عرض لنا ستندال بكل الوضوح تحليلاً متعمقا لشخصية جوليان سورال : أفكاره ومشاعره وماضيه، أساليبه وحيله فى الوصول إلى ما يصبو إليه، والتى تتحكم فيما يأتى به من تصرفات وسلوكيات تبين تردده بين "الأحمر" للجيش، و"الأسود" لرجال الدين.

احتلت شخصيات الرواية السيدة دى رينال وماتيلد دى لامول مواقع أساسية فى الأحداث، الأمر الذى جعل من تفاعل هذه الشخصيات وحدة متكاملة للبناء السردى .

بكل قوة وإرادة استطاع ستندال أن يوفق فى روايته بين رومانسيته القلقة والمضطربة والواقعية الحازمة، ولم لا مادام يجسد فيها فترة من تاريخ فرنسا تتشابك فيها مجموعة من أجمل تيمات الأدب الفرنسى فى ذلك العصر. فالرواية بأكملها تدور حول تردد جوليان سورال فى الاختيار بين الأنانية والإيثار، بين الحب والكراهية، بين العقل والمشاعر، بين الأحمر والأسود. فى بداياته اختار الأسود إلا أنه فى النهاية وقع فى براثن الدم الأحمر الذى انفجر على يده فلطخ الكنيسة ، هناك حيث ينتشر الزى الأسود، فاختلط الأحمر بالأسود!

بأسلوب شيق وسهل، وبلغة بسيطة ، منمقة وغير مفخمة، وبسرد بطيء غير ممل، جاءت روايته حافلة بما رواه لنا من أحداث عن الطموح والحب والإغراء والأسرة والأمل والرغبة. رواية تضافر فيها الأسلوب مع النص فى تناسق وتوازن كامل. رواية عن الحب والحزن معا.

وفى خطوة غير مسبوقة، يعتزم المركز القومى للترجمة إعادة نشر بعض الأعمال التى سبق ترجمتها من روائع الأدب والفكر العالمى من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية، لما فى ذلك من أهمية قصوى فى نقل التراث الفكري والأدبي والعلمى للشعوب الأخرى وتعريف شعوبنا العربية به، مع ما ينتج عن ذلك من نمو المعرفة الإنسانية وتبادلها وتواصلها بين الشعوب.

فالترجمة عمل إبداعى يتطلب مهارة لغوية وفكرية نافذة ليس فى اللغة الهدف فحسب، بل فى اللغة المصدر أيضًا. والترجمة خلق جديد للنص الأصلي يشترط الأمانة فى النقل الصحيح للأفكار دون إضافة أو حذف.

والحضارة العالمية ما هى إلا حصيلة جهد إنسانى مشترك، أسهمت فيه جميع الشعوب، واضطلعت فيه الترجمة بدور الوسيط الفاعل المؤثر فى التعارف والتعاون بين مختلف الجماعات البشرية، وتخصيب معارفها وتلاقحها. فبالترجمة تمكنت الأفكار من التحليق فى عوالم جديدة، مما كفل لها البقاء والانتشار والنماء. وبالترجمة استطاعت شعوب كثيرة أن تواكب تطور المعرفة وتقف على عتبة الحداثة، وتحقق تقدمها ورفاهيتها. وبالترجمة أيضا نستطيع أن نعرف الآخر وندرك الذات ونقيم حوارًا بناءً ينهى التنازع ويؤسس سلاما ينعم فيه الجميع بالأمن والطمأنينة. ولكن ينبغي التنبيه إلى أن قدرة الترجمة على تحقيق التفاعل الثقافى المنشود يتوقف على كميتها ونوعيتها والغاية منها، وعلى رغبة المجتمع فى الانفتاح على الآخر و الإفادة منه وإرادته فى التغيير والتطوير. وهذا ما يجعل الترجمة من أهم بنود السياسة اللغوية للأمة واستراتيجيتها الثقافية والتنموية.

كما تعتبر الترجمة نافذة انفتاح الشعوب على ثقافات بعضها البعض، لأنه عن طريقها يتاح لكل فرد منا أن يقرأ بلغته علوم الغرب والشرق، واكتشافاته الحديثة، فأصبحت السبيل إلى الاطلاع على كل جديد فى الفكر والعلم والفن والأدب. وغنى عن التعريف أثر الترجمة فى الثقافة المنقول إليها، فضلا عن أثر الترجمة فى الثقافة المنقول منها.

وانطلاقًا من رؤية العلماء للغة كنظام يستند على بنية ذات علاقات خاصة تكشف عن منتج تعبيرى تواصلى، لم تعد الترجمة تقنية تفسيرية بل تقنية معرفية أى أنها جزء من آلية إدراك الفكر الإنسانى، وهى أيضا وسيط بين مكون معرفى وآخر، مع مراعاة الأمانة فى الترجمة والنقل ليس بمعناها الحرفى بل بمعناها الدلالى. وهذا يقودنا للتأكيد على أن الترجمة هى فى حد

ذاتها قراءة، والمترجم هو فى الأصل قارئ تنطبق عليه شروط تلقى وتأويل النص، بل الأكثر من ذلك وهو شروط معرفة وتأويل ثقافة النص. ولا تنحصر مهمة المترجم، وبالأخص من يتعامل مع النصوص الأدبية، في كشف الرابط القاموسى للعلامة اللغوية ضمن ضوابط وقوانين اللغة، بل تتعدىّ ذلك إلى كشف العلاقة الجمالية بين الدال والمدلول ضمن مفهوم المجاز والبلاغة والصور البيانية من تشبيه واستعارة وكناية. والمترجم فى أثناء العمل يستخدم ذاكرته اللغوية وذوقه الجمالى فى قراءة النص قبل استحضار أدوات العمل؛ وهنا لابد من التذكير بأن المترجم غير المتذوق لجماليات النص بلغته الأصلية غير قادر على نقلها إلى لغة أخرى مهما كان هذا المترجم قديرًا ومتمكنًا من تقنيات الترجمة.

وهذه الترجمة لرواية "*الأحمر والأسود*" لستندال، من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية التى نحن بصدد التقديم لها، والتى تحققت فيها كل أدوات الترجمة المتميزة، قام بها الدكتور عبد الحميد الدواخلى، الأستاذ بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة، وراجعها العلامة الدكتور إبراهيم بيومي مدكور (١٩٠٢-١٩٩٦) رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة منذ عام ١٩٧٤ خلفا لعميد الأدب العربى الدكتور طه حسين. فلينعم القارئ بما بين يديه من إحدى روائع الأدب العالمى منقولة إلى لغة الضاد.

والله الهادى إلى سواء السبيل،،

د. فاطمة خليل

مقدمة

ستندال

(١٧٨٣ - ١٨٤٢)

حياته

ولد هنرى بيل فى جرينوبل فى ٢٣ من يناير سنة ١٧٨٣ ، وكان ينتمى إلى أسرة برجوازية ثرية . إلا أنه شبّ منذ صباه مخالفاً أسرته فى اعتقاداتها وآرائها وعواطفها وميولها : فقد كانت أسرته تميل إلى مسايرة التقاليد ، وكان بيل محباً للمغامرات ، كانت أسرته ملكية وكان هو يعقوبياً ثائراً ، كانت أسرته كاثوليكية وكان يكره الكاثوليكية ! كره منذ طفولته البيئة التى نشأ فيها ، فقد كان يضيق ذرعاً بتفاهة أهل الريف وكان يقول صراحة بأن جرينوبل تؤذيه أكبر الإيذاء وتؤلمه أشد الألم ، وإن أعجب مع هذا ببعض خصال مواطنيه ، كالخشية من الخديعة وعادة التأمل الباطنى ؛ وهى صفات تمسك بها هنرى بيل طول حياته . وكان كل ما فى بيت أبيه يوحى إليه بالكراهية الشديدة : فقد كان أبوه « شيروبان » محامياً بخيلا قبيح الوجه ، وكره خالته « سيرافى جانيون » لأنها عانس ، تفرط فى العبادة وتبعث على الانقباض ، وكره أخته زنائيد لكثرة لغوها فى الحديث : ولم يكتشف فضائل أخته پولين إلا بعد زمن طويل . أما أمه هنريت جانيون ، فكان يعبدها عبادة العاشق لها على حد تعبيره ، ويصفها

بأنها كانت جميلة نشيطة حاذقة ومن أصل إيطالى ، ماتت قبل أن تبلغ الثلاثين من عمرها . ومن المحتمل أن يكون هنرى بيل قد وجد فى جده الطبيب هنرى جاينون بعض صفات أمه ، فقد كان شيخاً نشيطاً يقظاً مثقفاً ، دفعته آراؤه وعاداته وظروف حياته ومكتبته إلى التعرف على القرن الثامن عشر. أما خاله رومان جاينون ، فقد كان بمثابة « دون چوان » المقاطعة ، وقد أعجب ستندال ، وكان لا يزال يافعاً ، بالسلوك السيء الذى يسلكه خاله و بمبادئه التى تدعو إلى التهتك والاستهتار بالقيم الخلقية والتقاليد البرجوازية .

كان لخاله من ناحية ، ولچان چاك روسو من ناحية أخرى أثر كبير عليه ؛ فقد أصبح ستندال مراهقاً مشبوب العاطفة ، مضطرب النفس : أحب ممثلة من تلك الممثلات التى يتنقلن مع فرقهن من بلدة إلى بلدة ومن قرية إلى قرية كانت تدعى الآنسة كابلى ، إلا أنه سرعان ما أحب إخت صديق له هى ڤيكتورين بيچيليون .

وما زال طول حياته يتنقل من حب إلى حب ، يلهو و يعبث فى جنون شديد ومرح لا حدّ له ؛ لأنه كان يودّ لو أوتى مجد نابليون أو انتصاد دون چوان فى غرامياته . على أن هواه السياسىّ كان أقوى من هواه العاطفى : ألم يكن يعقو بياً وهو لا يزال فى العاشرة من عمره ؟ ألم يفرح و يبتهج حين أعدم لويس السادس عشر ؟ ثم ألم يصفق طويلا لإعدام قسيسين من جرينو بل بعد ذلك بعام واحد ، هما : ريڤينا وكيّابير؛ وحينما كبر ستندال ، أصبح يجلّ أستاذه فى الهندسة « جرو » لا لأنه عالم أفاد

منه فى مدرسة السنترال بجرينو بل ، ولـكن لأنه كان جمهورىّ الهوى .

كانت أسرة بيل تتوقع أن يصبح مهندسا ماهرا ، بعد أن تخرج فى مدرسة السنترال بجرينو بل بتفوق كبير ، ودرس بهـا الرياضة والرسم ؛ فأوفده أبوه إلى باريس ورتب له نفقة شهرية قدرها خمسون ومائة فرنك ، إلا أن جو باريس قد أسكره منذ أن وطئت قدماه مدينة النور ، وظنّ أنه أصبح ثرياً وليس عليه رقيب ، فلم يأبه بالدراسة ولا بالمسابقات المهنية التى كان عليه أن يتقدم لها .

أقام بغرفة صـغيرة على مقربة من « الأنفيلد » ، ولـكن سرعان ما أمرضه السأم ؛ فعنى به فى محنته أحد أقاربه وأحد مواطنيه ، هو « نوئل دارو » ، وسهرت عليه مدام دارو وكانت ترعاه فى عطف وحنان . وكان أبناء دارو يبلغون أحد عشر ولدا ؟ إلا أن اثنين منهم قد أثرا تأثيرا كبيرا فى حياة هنرى بيل :

أولهما بيير دارو ، وكان موظفا إداريًا فى وزارة الحربيـة ، له شـأنه وخطره إذ كان المدير الحقيقى المسيطر على إدارة جيوش نابليون . وكان كثير العمل إلى حد بعيد ، شديد الحزم ، قليل القسوة . أما الثانى ، فهو مارسيال دارو ، وكان مثله فى حياة بيل مثل رومان جاينون ، أستاذا فى الأبهة والزينة والشهوات تأثر به تأثرا كبيرا حتى قال فى مذكراته : «إنى لمدين له بالقدر الضئيل الذى أعلمه فى فن معاملة النساء » .

أسند بيير دارو إلى هنرى بيل وظيفة مساعد سكرتير ، بعد أن عزم على أن يبسط عليه حمايته ويفرض عليه سلطانه ، وإن كان قد وجده جاهلا

بالهجاء ، ثم استدعاه إلى إيطاليا ، وفى ٧ من مايو سنة ١٨٠٠ غادر بيل باريس ليذهب إلى تلك الأرض الموعودة التى أحبها طول حياته حبا جما . وفى حصن « بارد » الواقع فى جبال الألب أصبح جنديا ؛ فاضطربت نفسه وأصبح يخالجه خليط من المخاوف والسرور والقنوط ، مما يقصه علينا فى حديثه عن « واترلو » فى قصته دير پارم ، خلال تلك الحياة الحافلة بالثورات والحروب والمكايد ، والحفلات الموسيقية والمكر والخداع والحب والدسائس . ثم خطا بعد ذلك خطوات موفقة فى سردينيا ولومبارديا فى جو يسوده النشاط والجد ، وقد عبر هو عن هذا بقوله : « إن إيطاليا كانت تعشق محرريها وقتذاك . »

أحب بيل إيطاليا لأنها علمته أشياء كثيرة وكشفت له عن أسرار كانت تخفى عليه . فأحب الموسيقى وظل طول حياته مولعا بها ، شغوفا بسماعها . وأما ميلانو ، فكانت تخبىء له بدورها أسرارا جديدة ومرحا ولهوا وعبثا : عرف فيها بعض النساء الجميلات ، وأعجب بالكونتس « غيرارزى » وأولع بتلك الغادة الفاتنة الحسن « أنجيلا پيتراجروا » . غير أن پيير دارو انتزعه من تلك الحياة بعد أن وفق فى مسعاه بتعيين بيل ملازما فى فرقة الفرسان ، و بالرغم من أن بيل سمع مدافع « مارنجو » وحارب فى « كاسلفرنكو » واشترك فى معركة « مانتو » فإنه سرعان ما زهد فى الجيش ، فاستقال من منصبه وعاد إلى پاريس عن طريق جرينوبل .

ونحن الآن فى عام ١٨٠٢ ، وها هو ذا بيل يعيش فى پاريس متعطلا

لا يجد عملا يدر عليه رزقا ؛ فيعمد إلى الأدب علّه يجد فيه خيرا يعود عليه . فأخذ يكتب مسرحيات لا يعرف كيف يبدؤها وقصصا هزلية لا يدرى كيف يختتمها . وصار يتردد على المسرح كثيرا لا يكاد ينقطع عنه بفضل تشجيع صديقه مارسيال دارو . كان بيل كبير الفطنة ، يتمتع بشباب زاخر بالقوة والحيوية ، فأصبح محبوبا فى هذا الوسط الجديد لفتوته وحيويته ؛ وكثيرا ما كان يشبه بالأسد . كان طويل القامة ، ذا شعر كثيف مجعد ، ونظرات نارية وتأنق شديد فى ملبسه . فى هذه الفترة من حياته ، أولع بحب فتاة كانت تتعلم تمثيل المآسى ، تسمت فى المسرح باسم « لوازون » واسمها الحقيقى « ميلانى جلبير » ؛ فكانت تسخر من هذا الفاتن الجميل ، واقتادته إلى مرسيليا حيث وجدت لها عملا بها .

واضطر بيل إلى أن يبحث له عن عمل يسد نفقاته الكثيرة ، لأن المرتب الشهرى الذى كان يرسله له أبوه وقدره مائتا فرنك ، زيد إلى ثلثمائة فرنك كان ينفق من غير حساب ؛ فاشتغل بالتجارة . إلا أنه سرعان ماضاق بمرسيليا ، وبالرغم من قلبه الموله بحب ميلانى وعمله التجارى ، شعر بسعادة كبيرة حين عاد إلى باريس . وترك ميلانى ، فاختار لها القدر سيدا روسيا اتصل بها وأصبحت حياتها سهلة يسيرة .

وأصبح بيل منذ سنة ١٨٠٦ مرتبطا بحملات نابليون ؛ فقد حصل من جديد على وظيفة مساعد بالمكاتب الحربية بوساطة صديقه بيير دارو . قضى تلك الفترة فى ألمانيا ، فعاش عامين فى برونزفيك وأخذ يدرس ألمانيا وأخلاق أهلها وعادات الألمان بينما كانت مدام « دى ستايل » تستعد

لتقديم دراستها عن ألمـانيا . وقد كشف ستندال عن طيبة الألمانيين ونقاء سرائرهم وأحب فى الألمـانيات جمال وجوههن ، إلا أنه لم يتنبه إلى قوة الفردية فى الألمـانيين حين وصفهم بالرخاوة ، وفى مارس سـنة ١٨٠٩ ، أقام مدة قصيرة بباريس ، ثم غادر فرنسا إلى استراسبورج ومرّ بأنجولشتادت ولندشوت ووجرام ثم بقى بفينا مـدة ، غير أنه بالرغم من حبه لتلك المدينة ، سرعان ما أراد الذهاب إلى إسبانيا فطلب أن يسند إليه منصب بها ولـكنه لم يجب إلى طلبه . فعاد إلى باريس حيث عين فى أغسطس سنة ١٨١٠ عضوا بمجلس الدولة .

وعلى هذا أصبح بيل شخصية لها قيمتها وخطرها ، فقد تقلد بعد ذلك مناصب كبيرة درت عليه أموالا كثيرة . وأخذ يحيا تلك الحياة السهلة التى تتفق وميوله ، تلك الحياة الپاريسية الفنية الدنيوية العصرية . وكثيرا ما كان يغادر باريس ليقضى أياما فى ضواحيها ؛ وقد تمتد به الرحلة إلى أن يصل إلى شاطىء البحر . وهو يعرف كيف يحب البحر ، فقد قال فى كتابه « مذكرات سائح » : « إن الإقامة على شاطىء البحر تقضى على الصغائر ، والحديث إلى بحار يعود من رحلة أكثر فطنة من الحديث مع كاتب عقود مدينة بورج » وظلّ صديقاً كبيرا للمسرح ، يحيا حياته العاطفية يتودد إلى بعض الممثلات ، ويطارد فى عناد وإلحاف بعض سيدات الطبقة الراقية ؛ فقد تعرف « بأنجلينا باريتر » إحدى ممثلات «أوپرابوفا» إلا أن صلته بها لم تحل بينه وبين التقرب من « إلڤير » وهى «الـكونتش بالفى » التى كان يطاردها منذعام ١٨٠٥ ولم يظفر بها إلا فى مايو سنة ١٨١١

غير أن طبيعته القلقة سرعان ما زهدته فيها ، فسافر إلى ميلانو فى أغسطس من نفس العام ، ليلقى « أنجيلا بيترا جروا » التى ظل يفكر فيها منذ عشرة أعوام والتى كانت تعدّ فى نظره أحسن مثل لإيطاليا .

وعندما عاد من رحلته إلى باريس ، أخذ يقرأ ويعمل ويكتب حتى كاد ينتهى من قصته الهزلية «لتلييه» . ثم كلف وقتذاك بمهمة رسمية فى روسيا ، فصحب جيش نابليون إلى « ولنا » ودخل معه سمو لنسك وموسكو ثم صحبه فى تقهقره ؛ وذهب إلى بريزينا وعبر كونجسبرج ودانتزج وبرونسويك وكاسل وفرنسكفورت ومايتس .

وبعد هذه الرحلة الطويلة الشاقة ، عاد إلى باريس فى ٣١ يناير سنة ١٨١٣ ؛ وظل ينتظر منصباً جديدا ، طامعاً فى أن يعين حاكما لولاية من الولايات ، إلا أنه لم ينل ما كان يصبو إليه . فعاد إلى ألمانيا واشترك فى حملة ساكس اشتراكا فعلياً ، فى تلك المعركة المفاجئة معركة « ينيدر ماركرسدورف » ؛ ولقى الإمبراطور بعد ذلك بأيام « فى جورليتز » ليتحدث معه فى شأن هذه المعركة . ثم أصبح رئيسا لقسم « لاتورموبور » فاستولى عليه السأم وأصيب بحمى عصبية ، فسافر إلى إيطاليا يطلب فيها الشفاء والراحة فى ميلانو واللهو مع صديقته « بيتراجروا » . وقد امتدت إقامته بها طوال خريف عام ١٨١٣ ، إلى أن اضطره الغزو إلى العودة إلى فرنسا ، فعين فى الفرقة السابعة الحربية لينظم حركة المقاومة فى مقاطعة « دوفينى » ، فأظهر نشاطا كبيرا ودلّ على وطنية شديدة لم يكن يتوقعها أحد من هذا الرجل الذى عاش فى البلاد الأجنبية أكثر مما عاش

فى فرنسا . إلا أن الحمى عاودته ، وقد آلمه ما كان يلقاه من حقد أهل « جرينو بل » عليه ، فقد أغضبهم منه توقيعه « دى بيل » على الإعلانات والنداءات التى كان يصدرها إلى سكان المقاطعة وهو لا يمت إلى طبقة الأشراف بأى سبب . فعين آخر ليحل محله فى عمله وذهب هو إلى پاريس ، حيث وافق هذا المتعصب لناپليون على قرارات مجلس الشيوخ منضما إلى البربون يحدوه أمل كبير فى أن يعين فى قنصلية ناپولى ، ولكنه كان أملا ضائعاً ! .

و إزاء هذه الخيبة ، عاد إلى ميلانو و إلى صديقته الميلانية . وفى هذه المرة احتجزته إيطاليا مدة طويلة ، فقد بقى بهـا من عام ١٨١٤ إلى عام ١٨٢١ ؛ وكان غاضبا أشد الغضب على آل بربون ، قاسياً عليهم قسوة شديدة : ولم يستثن منهم جميعاً إلاّ « دوقة بيرى » ، تلك المرأة الخيالية المخاطرة التى كان يسميها « الأميرة الصغيرة » .

كان بيل يتمتع بلذة العيش فى ناپولى ، تلك البلدة التى كانت تعرف كيف تعيش وقتذاك . فكان يسر بأحاديث « مونسيوردى برم » ويجالس الشاعر « مونتى » الذى كان بيل يعده أكبر شاعر فى عصره ، و يتردد على « سلفيو پلليكو » الذى دفع غالياً ثمن اتصاله بالكربونارى ؛ ثم كان على صلة دائمة بخليلته الخائنة « پيتراجروا » وكان لا ينقطع عن التردد على مسرح « سكالا » الذى كان يعتبره المسرح الأول فى العالم كله . وظل مقيما بتلك المدينة المحببة إلى نفسه ، حتى اضطر إلى مغادرتها عام ١٨٢١

حين أخذ النمساويون يعتقدون أنه من أنصار حركة الكربونارى، وظن الإيطاليون أنه مناصر للألمان .

أحب بيل، خلال إقامته فى إيطاليا، الأدب حبا أملاه عليه ذوقه وفراغه وفرضته عليه طبيعته، فنشر أول كتاب له وهو : « حياة هايدن وموزار وميمثا ستاز » وهو كتاب ليس له فيه فضل كبير ؛ إذ كان مقتبسا من كتب غيره من المؤلفين . وفى عام ١٨٩٧ نشر كتابه : « تاريخ الرسم فى إيطاليا » وأهداه إلى نابليون . ثم اهتدى فى نفس السنة إلى الاسم الأدبى الذى كان ينشر به كتبه وهو « ستندال » وقد استعاره من اسم بلدة ألمانية صغيرة ؛ وكتبه لأول مرة على غلاف كتابه : « روما ونابولى وفلورنسا » .

وكان قبل مغادرته نابولى فى هذه المرة قد تخلص من « بياتراجروا» وأحب ميلانية أخرى، كانت متزوجة بضابط بولونى هى «ماتيلد دين بوسكى» أحبها « ستندال » حبا رفيقا عنيفا، ومع أنه كان حبا ضائعا، إلا أنه كان أعظم حب عرفه « ستندال » وأرفعه وأمجده ! ودعها وداعا حارا قبل أن يغادر إيطاليا، وظل متعلقا بها إلى أن ماتت ١٨٢٥ .

و بعد ذلك بعامين مات أبوه فلم يبكه ! ولكنه حزن ؛ لأنه لم يترك له إلا ميراثا يقدر بثلاثين ألفا من الفرنكات، وكان يأمل الحصول على ثلاثة أضعاف هذا المبلغ . وقد استطاع «ستندال» بموارده الضئيلة أن يعيش عيشة باريسية، محاولا أن ينسى حب « ماتيلد » فتقرب من « مانتا » (تصغير كليمانتين) ابنة أحد مديرى الامبراطورية . فعاش معها عامين، ثم هجرها ليتصل « بألبرت دى ر و بنبرى »، غير أن حبه لها لم يدم إلا بضعة

شهور ، ذلك أن قلب « ستندال » كان متعلقا بالإيطاليات ؛ لأنه كان يؤمن بأن فن الحب لا يوجد إلا فى إيطاليا ، أما فن الحديث فهو فن باريسى خالص.

كان يحب لقاء الأصدقاء الأذكياء ، ويتحدث إليهم ، فكان يلقى فى باريس نخبة كبيرة من الأدباء ، ورجال السياسة ، والصحفيين ، منهم : « بروسبير ميريمى » و « رومان كولومب » الذى كان شديد الإخلاص ، قوى العاطفة ، محبا لستندال ، لا يضن عليه بشىء ، حتى بالمال .

كما كان كثير التردد على الصالونات الأدبيـة والسياسية ، وحينما كان يمل هذه الحياة الباريسية ، كان يعـبر المانش ليستمع إلى المغنى « كين » ويعجب بالريف الإنجليزى أو يذهب إلى إيطاليا ليقيم فى ميلانو العزيزة عليه ، المحببة إلى قلبه ، وإن كان رجال الشرطة النمساويون أبعدوه عنها فى أول يناير سنة ١٨٢٨ يوم وصوله إليها المرة الخامسة .

وقـد أرهقت رحلاته ولهوه وإفراطه فى التأنق ما كان بين يديه من مال .

وقد كاد آل بربون يستغنون عن خدماته ، ومعاشه وقتذاك لا يتجاوز ١٥٠٠ من الفرنـكات ، ولم يعد « ستندال » يأمل فى أن يعيش من قلمه .

وحينما عاد إلى فرنسا كان قد نشر كتابه « من الحب » وهو تحليل نفسى عميق ، ثم « راسين وشكسبير » و « حياة روسينى » وطبعة جديدة لـكتابه « روما ونابولى وفلورنسا » زاد فيها كثيرا . ثم « أرمانس » وهى أول قصة كتبها .

كانت كتبه لا تدر عليه إلا القليل ؛ فاقترض المـال حتى كثر عليه

الدين ، ولقى فى حياته عسرا كبيرا ، بجانب ما كان يلقاه من آلام أخرى ، كموت « ماتيلد » ومرض الشيخوخة ، الذى أخذ يدب فى أوصاله . كل تلك الصعاب تراكمت عليه ، وفى ليلة ٦ من ديسمبر سنة ١٨٢٨ كتب وصيته ، وكان قد كتب قبلها وصايا كثيرة ، ثم عزم على قتل نفسه . غير أن تضرعات كولومب . والمبلغ الذى حصل عليه من كتابه « نزهات فى روما » وقدره ١٥٠٠ من الفرنكات . كل هذا أعاد إلى ستندال حب الحياة مرة أخرى . وعلى هذا استدعته إيطاليا إليها من جديد . وكاد يذهب إليها فى مهمة رسمية بعد موت البابا «ليلان الثانى عشر» ؛ ليساعد على انتخاب الكردينال « جريجوريون » أحد أنصار البربون . وكان «شاتوبريان» فى ذلك الوقت سفيرا فى روما ، وكاد ستندال يصبح مساعدا لهذا الذى يطلق عليه فى سخرية وتهكم « الإمام الكبير » .

وأخيرا بقى فى باريس . على أن سأمه لم يدم طويلا ، وتلك المهمة التى لم تتحقق جعلت منه سياسياً . ذلك أنه عين قنصلا فى « تريستا » فى شهر أغسطس سنة ١٩٣٠ فسارع إلى تسلم مهام منصبه الجديد ، دون أن يحفل بقصته التى أعطاها للناشر وهى « الأحمر والأسود » . إلا أنه لم يكد يقيم فى « تريستا » حتى رفض « مترنخ » الموافقة على إقامته بها ؛ لأنه كان قد سخر من النمسا فى كتابه « روما ونابولى وفلورنسا » . فعين فى « سيفيتا فيشيا » داخل مملكة البابا ، حيث أقام فى تلك المقبرة القديمة ، التى تنتشر فيها الملاريا ، ولاقى ضيقا شديدا من سكرتيره «لزيماك تافرنييه» الذى كان يتصف بالخسة فى خلقه وأعماله ، وعلى هذا كان « ستندال

ينتهز كل فرصة ليغادر مقر عمله إلى «أنكون» أو «روما» أو « باريس » التى ذهب إليها أول مرة عام ١٨٢٣ ، وبقى بها أربعة شهور . ثم أتيحت له الفرصة بعد ذلك أن يجدد عطلته ، وبقى فى العاصمة الفرنسية ثلاثة أعوام كاملة من مايو سنة ١٨٣٦ إلى يونيو سنة ١٨٣٩ وفى عام ١٨٣٥ منحه وزير المعارف وساما ، تقديرا لمكانته الأدبية . وقد ظل «ستندال» محتفظا بما فطر عليه من أناقة وحب للغزل ، فبالرغم من السمنة المفرطة التى أصابته ، وبالرغم مما جرته عليه سنواته الخمسون ، أخذ يطارد مدام « جول» وكانت هى أيضا كريمة أحد مديرى الأمبراطورية ، غيرأنه نحى عنها فى ظرف ورقة ، فحز الفشل فى نفسه ، ولم يفقد الأدب شيئا طوال تلك الفترة ، فقد تابع الكتابة فى باريس ، واستمر فى تأليف الكتب التى بدأها فى « سفيتا فيشيا » كالحوادث الايطالية ، والصياد الأخضر ، ومذكرات سائح . وهى الكتب التى ظهرت عام سنة ١٨٣٨ ، ثم ظهرت قصته « دير بارم فى السنة التالية وهى السنة التى رجع فيها إلى مقر عمله مرة أخرى حيث بقى عامين آخرين من أغسطس ١٩٣٩ إلى نوفمبر سنة ١٩٤١ . غير أن صحته تهدمت ، وضعفت قواه من آثار الروماتزم والملاريا ، ومن مكايد «تاڤارنييه» ، فعاد إلى باريس ليموت بها فى ١٢ مارس سنة ١٨٤٢ ، فقد أصيب بسكتة قلبية وهو يسير فى الشارع ، إلا أنه عاش حتى اليوم التالى ، وعنى به صديقه الوفى « كولومب « ولم يشيع جثمانه حتى مقبرة « مونمارتر» إلا ثلاثة أشخاص منهم « ميريمى » . ولم يكن ستندال معروفا من الجمهور ، وكان الأدباء يجهلونه ، حتى أن بعض الصحفيين حرفوا

اسمه وهم ينعونه فى صحفهم ، وخلطوا بين اسمه الأدبى ، و بين اسم قصة تسمى « فردريك ستندال » من تأليف « كراترى » وهو وإن كان خطأ شنيعا إلا أنه خطأ طبيعى . لقد كانت حياة بيل حياة مضطربة ،حياة رجل كامل الرجولة ، إلا أنها لم تكن حياة مؤلف ؛ وهذا هو السر فى أن أدبه لم يكن معروفا من معاصريه ، وأن كتبه لم تكن ذائعة فى العصر الذى عاش فيه ، وأن ما رمى به من شذوذ فى عصره لم يفهم على حقيقته إلا بعد أن مضى أكثر من نصف قرن على وفاته .

لقد كان «ستندال» «ذاتيا» ، وهى صفة تظهر بجلاء فى بعض عباراته فقد قال : « هل أتغير ؟ إنها مغالطة ، إنى أستسلم إلى نقائصى ، و يجب أن يعرف الإنسان نفسه أولا معرفة جيدة . ولكى يصل إلى هذا ينبغى له أن يخضع لتحليل نفسى خالص نزيه ، وحينما يتم له هذا يجب أن يقبل كل ما يبينه له التحليل ، خيرا كان أو شرا ، على ألا يقبله فحسب ، بل يولع به فى لذة وفوة ، وأن تكون القاعدة الوحيدة التى يطبقها هى : أن يكون مخلصا مع نفسه ، و يظهر هذا الإخلاص فى عبارات الإنسان وتصرفاته على السواء ، وعليه ألا يأبه لما يقع من مفارقات أو يخالف التقاليد ، لا يرى صلاحا أو استقامة خارج هذا النطاق . وأن نشك فيما قد نناله من نصر على نفوسنا باسم العقيل أو السيطرة أو الأخلاق » . هذا هو المبدأ الأساسى لأخلاق ستندال وتفكيره ، وهو ذلك المبدأ القوى الدائم الذى أطلق عليه النقاد « بيليزم » نتصل بهذا المبدأ الذاتى من قرب ما يسمى قوة النفس . ولكن ، ماذا يقصد بيل بهذه الكلمة ؟ إنه لا يريد إطلاقا

الإرادة التى نستعملها لنكون شخصيتنا ، أو لنصل إلى درجة ما فى نظام المجتمع ، أو لنكون متدينين معتدلين عادلين . إن الرجل القوى النفس هو الذى لا يعرف كيف يحد من اضطراب عواطفه أو غرائزه ، ويكره كراهية شديدة أن يكون قدوة للناس ، لا يحب قسوة الأوامر ، ولا يحفل بالحذر فى كلامه ، وعلى هذا كان بيل يهتم اهتماما كبيرا بالمجرمين العتاة والمساجين ؛ لأنه كان يحب الجرأة والإقدام ، وتستهويه الشجاعة فى جميع صورها . كان يميل حقا إلى الهدوء إذ طالما عاش خارج فرنسا ، إلا أنه كان يحب الحرب أيضا . وقد شارك فى حروب نابليون على نحو ما رأينا . إن قوة النفس التى تتردد فى كلام ستندال لا ترمى إلى شىء آخر سوى الأخلاق ، وهى عنده التلقائية والاستقلال . إن النشاط هو الفضيلة التى تخلع على شخصيتها قوة كاملة ، فهو الذى يثيرها تارة ، ويدفعها إلى الحمق تارة أخرى ، وقد كان يحلو لبيل أن يعبث فى الصالونات التى تتصف بالوقار ، فكان يبدو غليظا ، وكم كان يسره وهو عند البارونة « چيرار » أن يبدى آراء غريبة عليها سمة القحة ؛ ليشتت شمل سيدات أسر « جى وسوفى ودلفين الأم وكريمته » .

آراؤه السياسية :

هل نستطيع أن نتعرض الآن لآراء بيل السياسية ؟ ولم أحب نابليون حباً جماً بعد عام ١٨١٥ ؟ كان ستندال محامياً لنابليون قبل الأوان ، فرأى فى ذلك البطل الذى غلب على أمره خير أساتذة النشاط ، وقد خلق ستندال لنابليون تلاميذ ستظل ذكراهم عالقة فى الأذهان إلى الأبد : چوليان

سورل بطل الأحمر والأسود ، « وفابريس دلدنجو » بطل « ديربارم » فهما تتصفان بالمشاعر القوية ، والكبرياء الشديد ، والتسلط على الرجال ، والتلقائية الكبيرة ، والفضائل العامة ، كان ستندال يقارن كل هذا بالصفات الخاصة التي يتصف بها أمراء عصره ، ثم يذكر في إعجاب الحماسة الكبيرة ، والحزم الشديد ، اللذين كان عليهما الجمهوريون عام ١٧٩٢ ، وجلبة خيل الامبراطورية ، التي كانت تجلجل في جميع أنحاء أوربا ، ولا يفوته أن يقارن هذا كله بما فطر عليه عصره من سماجة وتفاهة ونفاق في الخلق في عهد إعادة الملكية ، وفي عهد الملكية في شهر يوليو .

مذهبه الأدبي :

كان ستندال يعنى بالعامل أكثر من عنايته بالعمل ، أو بعبارة أصح كان يعنى بتركيب الكتاب أو القصة أكثر من عنايته بصقلهما ، وعلى هذا كان يفضل « جيوتو » على الرغم من هفواته على « دافيد ومدرسته » ومدرسة دافيد في الرسم تقابل مدرسة « بوالو » في الشعر ، إذ أنها ترمى إلى احترام الاستعمال واللياقة ، وعادات التمدن التي فرضتها على الفن « سياسة مزعومة ترمى إلى القضاء على العواطف القوية » ؛ وستندال يتطلب من هذا العصر الفتى أن يعيد إلى هذه العواطف حقوقها ، وهو لهذا يفضل « شكسبير » على « راسين » ، كما يفضل النثر على الشعر ، والحرية على القواعد ، وهو لهذا يتحمس للمذهب الرومانتيكي تحمساً قوياً إلا فيما يتعلق باقتصاره على الحاضر ، وعلى الحوادث التي تجرى في عصره ، وهو لهذا يعد رومانتيكياً للعصر القديم ، وإن كان القرن التاسع عشر يعد

كلاسيكياً . ومن ناحية أخرى كان ستندال شغوفاً بالحب بالرغم مما كان يلقاه من خيبة أمل ، كثيراً ما كان يستحقها . فهذه العاطفة تمد النشاط بحيوية غريبة ، وتقوى الفكر والخيال ؛ لقد كان يؤمن بهذا الجنون الذى يسخر منه العقلاء جميعاً ، وكان يعده الحكمة بعينها .

والجمال الذى كان يجذب ستندال إليه ليس الجمال الكلاسيكى ، فهو يرى الجمال اليونانى تافهاً ، وكان يحب الجمال الذى لا نظير له فى العالم . ذلك الجمال الذى يضفى على النظر أثراً جديداً . وقد قضى أعز أيام حياته فى البحث عن هذا الأثر والجرى وراءه ، كان تعلقه بإيطاليا يبين ذوقه المختلف المتغير ، وإيطاليا التى كان يعجب بها هى إيطاليا التى كان يعتقد أنه يراها ، لا التى كان يراها حقيقة . فهى مما لا ريب فيه مثله الأعلى ، كما كانت ألمانيا المثل الأعلى لمدام « ديستايل » . أحبها أول الأمر بسبب الإيطاليات ، كمدام «غراردى» ومدام « باسطا » و بيترا جروا «وماتيلد» وكل أولئك اللائى تحدث عنهن حين وصف الدوقة « ستسفرينا » فى «دير بارم» و « ماتيلد دى لامول » ومدام«رينال» فى الأحمر والأسود. أحب إيطاليا لما كان فيها من نشاط ، ولأنها بلد السرور والفن والفراغ ، ولأنها أخذت تنزع عنها نير الاستبداد ، وتوطد فى أرضها حقوق الخيال والهوى . وكان ستندال لا يحب فى الباريسيين غرورهم ، وفرط ذكائهم ، وخشيتهم الشديدة من السخرية ، كما سخر من الفضيلة الألمانية التافهة ، وكره الوقار الذى فطر عليه الإنجليز ، وأهل جنيف ، ومع أنه كان سائحاً لا يمل التنقل من بلد إلى بلد ، وتحدث كثيراً عن حبه لأى بلد يحل فيه ،

ولـكن إيطاليا وحدها هى التى سيطرت على نفسه وعواطفه ، فإذا ما بعد عنها نسب لها كل شىء . فبعد أن مر ستندال ببلدة « لاندشوت » كتب يقول : « إن هذه البلدة قد أحدثت فى نفسى الأثر الذى تحدثه إيطاليا ، فقد رأيت فى نصف ساعة خمسة وجوه نساء بيضاوية الشـكل رائعة الجمال ، لا تمت إلى ألمانيا » كما تقرأ فى كتابه « روما ونابولى وفلورنسا » العبارة التالية : « إننى حين أجلس إلى الميلانيين وأتـكلم لغتهم أنسى أن الرجال فطروا على الشر ، وتبدد من نفسى فى الحال كل علامات الشرور » . وهى عبارة واضحة جلية ، تنطوى على الـكثير من الصدق . لقد كان ستندال ميلانى الهوى ، محباً لإيطاليا حباً شديداً .

مكانته الأدبية :

اختلف الأدباء والنقاد اختلافاً شديداً فى الحـكم على ستندال ، فـكان « فيـكتور هوجو » يحتقره ، والفريد ديفيي يرتاع منه ، والفريد ديموسيه خصص له فقرة واحدة فى شعره . أما سانت بيف فقد كتب عنه مقالين ؛ وميريمى وإن كان صديقاً له ، إلا أنه لم يكن من المعجبين المتحمسين ، وأما بلزاك فـكان أول من درس دير بارم دراسة طويلة ، وتحمس لستندال ، ونادى به أستاذاً من أساتذة القصة عام ١٨٤٠ ، ولـكن معاصريه كانوا لا يؤمنون بشىء من هذا . كان أكثر كتبه رواجاً هو « نزهات فى روما » وهو بمثابة دليل يكشف عن جمالها وتاريخها . أما كتابه عن الحب فلم يبع منه إلا سبع عشرة نسخة من عام ١٨٢٢

إلى عام ١٨٣٣ ، وتحمل ستندال هذا الظلم الشديد ، وكثيراً ما كان يقول إنه لن يقدر حق قدره إلا حوالى عام ١٨٨٠ .

تحققت هذه النبوءة ، فقد أحيا «تين» فى عهد الامبراطورية ذكراه ، ورأى أن أدبه يصطبغ بالصبغة العلمية ، واستعار الكثير من آرائه فى كتبه ، وخاصة فى : « فلسفة الفن » و « رحلة فى إيطاليا » و « أصول فرنسا المعاصرة » و « الذكاء » . أما « زولا » فقد قال عنه فى كتابه : « القصاصون الطبيعيون » بأنه سلف فاته معنى فهم جو القصة ، كما فاتته موهبة تصوير ما يبهج . ولكن « بول بورچيه » حياه كأب للتحليل النفسى ، وخالق فكرة حب البلاد جميعاً . وهذا هو رأى « نيتشه » و « تولستوى » . ويرى « موريس باريس » أن ستندال يعبر تعبيراً صادقاً عن آرائه ومشاعره . وشارل موريس يحشره ضمن هذه الجماعة التى يراها مقدسة ، وهى جماعة الرمزيين . أما هنرى ديرينه فقد قام برحلة فى إيطاليا ، ولم يتردد فى أن يحيي ذكرى « سنفرنبا » فى حدائق فارنز ببيارم ذات مساء من أمسيات الخريف » .

أتيحت لستندال بعد وفاته شهرة كبيرة ، أخذت تزداد عاماً بعد عام بوساطة جماعة من الباحثين المجدين الذين أخذوا على عاتقهم نشر جميع مؤلفات ستندال ، وكان عليهم أن يقرءوا هذه المخطوطات العسيرة القراءة التى سلمها « كولومب » منفذ وصية ستندال إلى مكتبة « جرينوبل » وهذه المطبوعات لا تصل إلى أيدى الجماهير التى تكتفى عادة بقراءة قصتين

تعدان خير ما كتبهما ، وهما الأحمر والأسود ودير بارم[1]. ولكن كتبه الأخرى تلذ قراءتها لأنصار ستندال من الخاصة الذين يحبونه دون سواه ، ويفضلونه على غيره من الأدباء ، وهو مجد لم يكن بيل يتوقعه .

المعادى فى ١٥ مارس سنة ١٩٥٦ عبد الحميد الدواخلى

---

(١) قدمت هذه القصة بجزأيها لقراء العربية فى أبريل سنة ١٩٤٧ ، وقد طبعتها دار الكاتب المصرى .

الحقيقة ، الحقيقة المرّة

دانتون

الفصل الأول

مدينة صغيرة

[إن وضع الآلاف معاً لا يضير ، ولكن القفص يصبح أقل بهجة] .

هوبز

مدينة ﭬرييرعلى صغرها من أجمل مدن مقاطعة فرانش كونتيه ، فمنازلها البيضاء ذات السطوح المدببة المغطاة بالقرميد ، تمتد فوق منحدر تلّ نمت فيه — مائلة قليلا — بعض أشجار من الكستناء الباسقة القوية. وهناك يجرى نهر الدو على بعد بضع مئات من الأقدام فى أسفل حصون المدينة ، وهى تلك الحصون التى أقامها الأسبانيون فى الماضى ، وأصبحت الآن أطلالا بالية .

وفى شمالى المدينة جبل عال هو أحد شعب جبال چورا . وتغطّى قمم ﭬيرا بالثلوج كل عام حين يبدأ البرد فى شهر أكتوبر ، وينحدر من الجبل سيل يمرّ بڤرييرقبل أن يصب فى نهر الدو ، أتاح لأهل المدينة إقامة كثير من المناشر الخشبية ، وهى صناعة بسيطة نفّست كربة العيش عن معظم السكان الذين يعتبرون فى الواقع فلاحين أكثر منهم برجوازيين . ولا يرجع الرخاء فى المدينة إلى المناشر وحدها ، ولكنه يرجع إلى مصنع المنسوجات المرسومة التى تسمّى ميلهوز ؛ فقد يسّر لأهل المدينة سبل

العيش حتى أنّ كل منازل ﭬرِيير تقريباً قد جدّد بناء واجهاتها منـذ سقوط نابليون .

ولا يكاد داخل المدينة يطأ أرضها حتى تصافح أذنيه ضوضاء صاخبة ، منبعثة من آلة ضخمة مزعجة : من نظر إليها رأى عجلة تديرها مياه السيل قد ركّب فيها عشرون مطرقة ثقالا تهزّ طرقاتها الأرض هزاً عنيفا ، وتصنع كل مطرقة بضعة آلاف مسمار فى اليوم . وأمام هذه المطارق نرى فتيات جميلات وكلٌّ إليهن وضع قطع صغيرة من الحديد سرعان ما تحيلها المطارق مسامير . وهذا العمل الشاق فى مظهره يذهل المسافر الذى يعبر لأول مرة تلك الجبال التى تفصل فرنسا عن هلفيسيا . و إذا ما سأل المسافر عن هذا المصنع الجميل الذى يصمّ آذان عابر الشارع الـكبير فى ﭬرِيير ، أجيب بلهجة بطيئة : إنه ملك حضرة العمدة !

و إذا ما تمهّل العابر فى مشيته وهو يقطع الشارع الرئيسى الممتد من ضفة نهر الدو إلى قمة التل فـكثيراً ما يلقى رجلا مديد القامة يدلّ مظهره على الخطورة والجدّ فى العمل .

و إذا ما وقعت عليه الأبصار هناك رفعت القبعات فى سرعة كبيرة تحية له و إجلالا .

قد اشتعل رأسه شيباً ولبس ثياباً رمادية اللون ، وأُنعم عليه بأوسمة كثيرة ، وهو ذو جبهة كبيرة وأنف أقنى ، و إن كان وجهه لا يخلو بوجه عام من تناسق . وقد يشعر الناظر إليه لأول مرة بوقار يفرضه منصب عمدة القرية ، ذلك الوقار الذى يطيب له نفس من كان فى الثامنة والأربعين

أو الخمسين من عمره . ولكنّ المسافر الپاريسى سرعان ما يرى فى مثل هذا الوقار زهواً لا يرضيه ، وكبرياء تدلّ على ضيق فى التفكير وجدب فى الخيال .

ولا شك أن مواهب هذا الرجل مقصورة على أن يحصّل بالدقة كل ما له عند الناس ، مماطلا فى دفع ما عليه إلى أجل غير معلوم .

تلك هى صورة السيد دى رينال عمدة ڤرييرالذى يجتاز الشارع فى خطوات متئدة حتى إذا دخل مقر العمدية ، اختفى عن عينى المسافر الذى يراقبه . أما إذا استمرّ المسافر فى نزهته فإنه مُلاقٍ على بعد مائة خطوة منزلا جميل المظهر تبدو من خلال قضبانه الحديدية حدائق رائعة غناء ، خلفها سلسلة من تلال بورجونيا ممتدة وراء الأفق ، فينسيه هذا المنظر الضاحك الجو الموبوء الذى كاد يخنقه من قبل ... ينسيه جوّ المصالح المادية التافهة .

لقد علم المسافر إذاً أن هذا المنزل الجميل هو منزل السيد دى رينال ، بناه من الأرباح التى يدرّها عليه المصنع العظيم ، وأقامه من الأحجار المنحوتة ولا يزال مشغولا بإتمام بنائه . وسمع المسافر كذلك أن العمدة من أسرة أسبانية يقال إنها عريقة ، سكنت هذا الإقليم قبل أن يغزو لويس الرابع عشر أسبانيا بزمن طويل .

ومنذ سنة ١٨١٥ بدأ يخجل من أن يكون من رجال الصناعة لأنه أصبح عمدة ڤرييرفى تلك السنة . ويرى المرء جدراناً ذات شرفات بنيت لتكون أساساً لأجزاء الحديقة الرائعة ، التى تقترب طبقة بعد طبقة من

نهر الدو فتدل دلالة واضحة على معرفة السيد دى رينال وخبرته بتجارة الحديد .

ومثل هذه الحدائق الغناء التى تحيط بالمدن الصناعية الألمانية مثل ليبزج وفرنكفورت ونورمبرج — لا يوجد لها نظائر فى فرنسا . أمّا فى مقاطعة فرانش كونتيه ، فإنه كلما كثرت جدران المبانى ، وكانت الممتلكات واسعة تحدها أحجار صفّ بعضها فوق بعض ، ازداد المالك تجلة واحتراما فى نظر جيرانه . وحدائق السيّد دى رينال مملوءة بالجدران التى يعجب بها مواطنوه إعجاباً شديداً ، لأنهم يعلمون مقدار ما بذل من مال فى شراء مساحات صغيرة من الأرض ليضمها إلى تلك الحدائق .

فكان الداخل مدينة فرييز منذ ستة أعوام مثلا ، يرى مصنع أخشاب على ضفّة نهر الدو فى موقع فريد ، قد كتب على لوح خشبى يعلو سطح هذا المصنع اسم سورل بحروف كبيرة . أما الآن فقد أصبح هذا المصنع أثراً بعد عين ، إذ حلّ مكانه جدار الشرفة الرابعة من حدائق السيد دى رينال .

وعلى الرغم من كبرياء العمدة اضطرّ إلى أن يتردّد كثيراً على سورل ، ذلك الفلاح العجوز العنيد ، ثم دفع له مبلغاً كبيراً من الذهب حمله على نقل مصنعه إلى مكان آخر . وأما جدول الماء الذى كان يدير المصنع فقد تمكّن دى رينال بفضل المكانة التى تمتع بها فى باريس من أن يغيّر مجراه ، وقد حصل على تلك الميزة على أثر انتخابات سنة ١٨٢[1] .

وقد أعطى العمدة لسورل أربعة أمثال المساحة التى أدخلها فى حدائقه ،

(١) لم يشأ ستندال أن يعين تلك السنة التى تقع بعد عام ١٨٢٠ ، لأنه وإن كان يكتب تاريخ القرن التاسع عشر إلا أنه يخفى بعض الوقائع والتواريخ على القارىء .
« المعرب »

وكان الموقع الجديد أكثر ملاءمة لتجارة ألواح أشجار الصنوبر ، فهو على بعد خمسمائة خطوة من ضفاف النهر . وقد استغلّ الأب سورل — كما يسمّيه مواطنوه منذ أصبح غنياً — نفاد صبر جاره العمدة وسيطرة غريزة حبّ الاقتناء عليه فأخذ منه ستة آلاف من الفرنكات ، ولم يشأ أن يذيع هذا السر بين مواطنيه من سكان ڤرير .

على أن الاتفاق كان موضع نقد من ذوى التفكير من أهل المدينة . عاد العمدة من الكنيسة منذ أربعة أعوام ، فى يوم من أيام الآحاد ، فأبصر العجوز سورل وقد أحاط به أبناؤه الثلاثة ، فابتسم سورل لمّا وقع نظره على دى رينال . وقلق العمدة من هذه الابتسامة فاضطرب واعتقد أن فى الصفقة غبناً كبيراً عليه ، فقد كان فى مقدوره أن ينال مايبتغى بثمن بخس .

ولا يأخذ أهل ڤرير ، على الرغم من كثرة الجدران التى يبنونها ، بأىّ نمط إيطالى فى بنائهم من تلك الأنماط التى يجلبها البناءون الذين يعبرون مضايق جبال چورا فى كل ربيع وهم فى طريقهم إلى باريس . ولو أنّ أحد الأهالى أخذ بهذا النوع من التجديد لوصفه مواطنوه بالغفلة وقلة الإدراك ، ولأسقطه أهل الرأى والحجا ، وهم أولئك الذين يتأثر بأحكامهم أهل مقاطعة فرانش كونتيه جميعاً . ويصدر عن هؤلاء من أهل الرأى طغيان شديد ، يجعل الإقامة فى المدن الصغيرة التى يسكنونها عسيرة على الذين عاشوا فى تلك الجمهورية الكبيرة ، التى تدعى باريس . ألا إنّ التعسف فى الآراء سفه شديد يلقاه الإنسان فى المدن الصغيرة الفرنسية كما يلقاه فى الولايات المتحدة الأمريكية تماماً ، ويا ليتهم كانوا ذوى رأى سديد!

الفصل الثانى

عمدة

[ليست العظمة ياسيدى سوى أن يحترمك البلهاء ، ويحار فيك الأطفال ، ويحسدك الأغنياء ، ويحتقرك العقلاء] .

بارناف

كانت الحديقة العامة التى تقع على مجرى الدو وتمتد على حافة التل مسافة مائة قدم فى حاجة شديدة إلى جدار يكون دعامة لها ، وقد وطّد هذا الجدار شهرة دى رينال الإدارية . وموقع الحديقة يعدّ من أروع المواقع الطبيعية فى فرنسا ، إلا أن أمطار الربيع كانت تسقط عليها فتغمرها ، وتحفر فيها قنوات فلا ينتفع بها . وشعر الناس جميعاً بهذا الضرر ، فهبّ السيد دى رينال ليخلد عهده ببناء جدار يبلغ ارتفاعه عشرين قدماً وطوله ثلاثين أو أربعين توازا[١] .

وقد اضطر دى رينال إلى أن يسافر إلى باريس ثلاث مرات من أجل هذا الحاجز ، لأن وزير الداخلية الأسبق كان عدوّاً لدوداً لحديقة فرييز . أصبح هذا الحاجز الآن يرتفع عن الأرض بمقدار أربع أقدام ، وزين ببلاط من الحجر المنحوت استخفافاً بوزراء الداخلية جميعاً الحاليين منهم والسابقين .

---

(١) التواز مقياس قديم يبلغ ست أقدام أو ١/٩٤٩ مترا .

وكم مرة وقفت أمام هذه الأحجار الضخمة ذات اللون الرمادى الضارب إلى الزرقة مستندا إليها بصدرى ، مفكرا فى مراقص باريس التى غادرتها بالأمس ، ممتعاً بصرى بجمال وادى نهر الدو !..

وخلف الوادى يقع النظر على خمسة أودية أخرى أو ستة على الضفة اليسرى ، تتراءى فيها على البعد جداول صغيرة تمر مياهها من مسقط إلى مسقط حتى تصب فى النهر : أما شمس هذه الجبال فشديدة الحرارة خصوصاً حينما تكون عمودية . وإن أحلام المسافر لاتجد ملاذا فوق الرصيف فى تلك الهاجرة ، إلا ظلال نباتات جميلة يرجع نموها السريع وخضرتها الزاهية التى تميل إلى الزرقة إلى ماوضعه العمدة من طين خلف الحاجز الضخم الذى أقامه ، ثم وسع الحديقة بما يزيد على ست أقدام ، على الرغم من معارضة المجلس البلدى . إن العمدة من المغالين وأنا من الأحرار ، إلا أن هذا لايمنعنى من أن أثنى عليه ، فهو يرى أن سطح حديقة ڤرييز يمكن أن يقارن بسطح حديقة « سان جرمان أن لَىْ » ، ويشاركه هذا الرأى السيد ڤالنو المدير المحظوظ لصندوق الاحسان فى ڤرييز .

وأنا لا أجد ما آخذه على « ممرّ الإخلاص[(١)] » إلا الطريقة الوحشية التى تقطع بها هذه النباتات القوية الحية ، وممر الإخلاص اسم رسمى أمر السيد دى رينال بنقشه على قطع من الرخام فى أكثر من خمسة عشر

---

(١) ممر الإخلاص اسم موضع يطلق عليه فى الفرنسية ، Cours de la Fidélité وكان يحسن أن يبقى الاسم الفرنسى كما هو إلا أننا آثرنا ألا نقحم التعبيرات الفرنسية فى ترجمة القصة . المعرب

أو عشرين موضعاً فأنعم عليه بصليب جديد بسبب ذلك. كانت الأشجار تقطع فى غير رحمة ولاشفقة، ليت هذه النباتات تلقى من العناية والتنسيق ماتلقاه فى انجلترا تلك النباتات التافهة ذات الرءوس المنخفضة المستديرة المسطحة، التى تستعمل فى عمل الحساء. لكن رغبة العمدة يجب أن تنفذ ولايقف أمامها شىء، وعلى هذا فكل أشجار الناحية تشذب مرتين فى العام وتقطع أغصانها فى كثير من القسوة والوحشية. ويدّعى الأحرار أن يد البستانى الرسمى أصبحت أكثر قسوة منذ أن اتخذ مالون نائب الأسقف عادة الإستيلاء على كل مايقطع من هذه الأشجار، لكنهم مغالون فى زعمهم هذا.

جاء مالون من بيزانسون منذ بضعة أعوام ليراقب الكاهن شيلان وبعض كهنة الضواحى. وأقام فى ڤرييرطبيب جراح كان ضابطا عظيما فى جيش إيطاليا، وكان كما يقول دى رينال يعقوبياً من أنصار بونابرت، وسوّلت له نفسه يوماً أن يشكو إلى العمدة أمر تقطيع الأشجار على تلك الصورة الوحشية، فأجابه فى لهجة تتفق مع مكانة الجراح الذى يحمل وسام الشرف، لكنها لاتخلو من كبرياء.

— إنى أحب الظل، نعم أحبه وآمر بتشذيب أشجارى إبتغاء الظل، ويخيَّل إلىّ أن الشجرة لم تخلق إلا لتظلّنا، اللهم إلا إذا درّت علينا دخلا كما تفعل شجرة الجوز.

وتمثل هذه النزعة النفعية فكرة عامة شائعة فى ثلاثة أرباع سكان مدينة ڤرير. فإدرار الدخل تعبير له الصدارة فى تلك البلدة الجميلة.

والغريب الذى يفد عليها ويعجب بجمال وديانها وروعة مناظرها ، يعتقد أن سكانها يحبون الجمال ويتأثرون به ويجرى فى عروقهم ، وهم كثيراً مايتحدثون عن جمال إقليمهم وإن كانوا لا يؤمنون بما يقولون ، ولكنهم اتخذوها وسيلة ليهبط عليهم الأجانب فيغدقوا الأموال على أصحاب النزل الذين يدفعون بدورهم ضرائب للبلدية ، وعلى هذا فهى وسيلة تدر على البلدة المال الوفير .

كان الفصل خريفاً واليوم جميلا حين كان السيد دى رينال يتنزه مع زوجه التى أمسكت بذراعه ، منصتة إليه ، وهو يتكلم فى لهجة رزينة وبصرها يتبع فى قلق حركات ثلاثة أطفال ، أكبرهم يبدو فى الحادية عشرة من عمره ، حين اقترب من الحاجز ، ودلت حركته على أنه يرغب فى الصعود عليه ، إلا أن صوتاً رقيقاً نادى : أدولف ! فأعرض الطفل عن مشروعه الجرىء . ومدام دى رينال اليوم فى الثلاثين من عمرها إلا أنها لا تزال جميلة .

قال دى رينال لزوجه فى غيظ ووجهه شاحب :

— هذا السيد الباريسى الجميل سيندم على ما يفعل ، إن لى أصدقاء فى القصر[1] . . .

---

(١) تعبير دارج زمن ستندال ، يراد به بلاط الملك الذى كان مقره وقتذاك خاصة قصر سان كلو . « المعرب »

ولو أنى أحببت أن أتحدث إلى القارىء عن الريف لتحدثت طويلا ، ولسطّرت مائتى صفحة ، ولكنى أعفيه من سماع طويل الأحاديث الريفية التى لا تخلو من الإطناب وتنطوى على الحذر والحيطة . والسيد الباريسى الجميل الذى يكرهه عمدة فريير هو مسيو أبّير[1] ، الذى تمكن قبل ذلك بيومين من أن يجد طريقة يتسلل بها إلى سجن المدينة ، ويزور صندوق الإحسان والمستشفى الذى يشرف عليه بالمجان عمدة فريير كما زار أهم الممتلكات فى المدينة .

فقالت مدام دى رينال مجيبة زوجها فى حياء :

— وماذا يضيرك من هذا السيد ما دمت تشرف على أموال الفقراء فى أمانة تامة ؟

— إنه لا يبغى من وراء ذلك غير اللوم والقدح ، وسيكتب مقالات فى صحف الأحرار .

— وماذا يعنيك وأنت لا تقرأ هذه الصحف أبداً يا صديقى ؟

— سيتحدث الناس عن هذه المقالات المتطرفة فنشغل بها ، ونعرض عن عمل الخير ، إننى لن أصفح مطلقاً عن القس .

---

(١) مسيو أبير كان محرر صحيفة السجون وعضواً بجمعية السجون ، زار أنطوان برتيه فى سجنه وطلب العفو عنه . وستندال حين يتحدث عنه منذ بداية قصته هذه ، يطلعنا على رغبته فى أن يؤرخ عصره . « المعرب »

الفصل الثالث

أموال الفقراء

[إن القس الورع ، الذى لايعرف الدس ، ليعد عناية إلهية لقريته] .

فلورى

إن قسّ ڤرير ليتمتع بصحة جيدة وخلق صارم بفضل هواء الجبال ، وإن كان قد بلغ الثمانين من عمره . وهو بحكم مركزه يستطيع أن يزور السجن والمستشفى وملجأ الفقراء كل ساعات النهار . وكان المسيو أپير قد وصل فى الساعة السادسة صباحاً إلى تلك المدينة الصغيرة القريبة ، حاملا خطاب توصية إلى القس فذهب تواً إلى داره .

والخطاب من المركيز دى لامول الذى يحمل لقب سيد من سادة فرنسا ، ويعدّ أغنى أصحاب الأمول فى المقاطعة كلها ، ولم يكد القس شيلان يفرغ من قراءة الخطاب حتى فكّر برهة ثم قال فى صوت خفيض :

أنا عجوز ومحبوب من جميع الناس ، وعلى هذا فلن يجرؤوا . . . ! . ثم التفت إلى السيِّد الپاريسى وألقى عليه نظرة تنبعث فيها النار المقدسة التى لم تخبها الشيخوخة ، والتى تنم عن السرور للقيام بمهمة خطيرة ، ثم قال :

— تعال معى يا سيدى ، وعليك ألا تبدى أية ملاحظة أمام حراس السجن ، وألا يصدر عنك رأى أمام رجال ملجأ الفقراء ، بل الزم الصمت ، وشاهد ولا تتكلم .

فأدرك مسيو أبير أن القسّ طيب القلب : ثم تبعه وزار السجن ومأوى الفقراء والمستشفى ، وأخذ يسأل أسئلة كثيرة ، أجيب عنها إجابات غامضة ، لكنه لم يوجه إلى أحد لوماً . واستغرقت هذه الزيارة بضع ساعات ، دعا بعدها الخورى مسيو أبير ليتناول معه طعام الغداء ، فاعتذر الباريسى بكثرة الخطابات التى يريد أن يكتبها ، لأنه لم يشأ أن يفسد الأمر على رفيقه الكريم . وكانت الساعة الثالثة فعادا إلى الملجأ ليتما تفقده ، ثم رجعا إلى السجن ، فوجدا بالباب سجاناً ، فارع الطول ، تبلغ قامته ست أقدام ، مقوس الساقين ، لئيم الوجه مرعبه ، كريهه ، ورأى السجان القسّ فابتدره قائلا :

— آه ! أليس هذا السيد الذى معك هو السيد أبير ؟

— وماذا تعنى ؟

— إن لدىّ أمراً صريحاً منذ الأمس أصدره مدير المقاطعة وأرسل به شرطياً ، جرى الليل بطوله ليبلغه إلينا ، وهذا الأمر هو ألاّ ندع مسيو أبير يدخل السجن .

— أحبّ أن أخبرك يا سيد نوارو أن الشخص الذى معى هو مسيو أبير وعليك أن تعلم أن لى الحق فى دخول السجن فى أية ساعة من ساعات الليل أو النهار ، ولى الحقّ فى أن يصحبنى فى زياراتى من أشاء من الناس .

فطأطأ السجّان رأسه وأجابه فى صوت خفيض كأنه كلب خشى أن يضرب :

— لكن يا سيدى القسيس ، إن لى زوجاً وأطفالا وأخشى أن

أفصل من عملى إذا أنا خالفت الأوامر . فقال الخورى متأثراً :

— ويحزننى أن أفقد أنا منصبى . فقال السجان فى قوة وحمية :

— يا للبون الشاسع يا سيدى ! إن الناس يعلمون أن دخلك لا يقل عن ثمانمائة فرنك ، وإنه لدخل عظيم . . .

هذه هى الوقائع التى زيد عليها و بولغ فيها كثيراً ، وأخذت عوامل البغضاء التى تملأ نفوس أهل تلك المدينة الصغيرة ترددها منذ يومين ، وهى نفس الوقائع التى كان يتحدث عنها السيد رينال منذ لحظة إلى زوجه . وفى الصباح ذهب العمدة يتبعه السيد ڤالنو مدير ملجأ الفقراء إلى منزل القس ليخبراه بأنهما غضبا عليه غضباً شديداً من فعلته هذه . ولم يكن لهذا القس أحد يعتمد عليه فى دفع الأذى عن نفسه فأدرك ما كانا يرميان إليه ، ولم يتردد فى أن يقول لهما :

— حسناً أيها السادة ! لن أكون أول قس يعزل من منصبه وهو فى الثمانين من عمره ، فقد عزل قبلى قسيسان فى هذه المقاطعة . إننى هنا منذ ست وخمسين سنة . ولم تكن ڤرييرِ يوم وفدت عليها إلا قرية صغيرة ؛ لقد عمدت جميع سكانها تقريباً ، وإنى أزوج كل يوم شباناً ، زوجت من قبل آباءهم وأجدادهم . إنى أعد أهل ڤرييرِ أيها السادة جميعاً أهلى وعشيرتى ؛ وحينما رأيت هذا الرجل قلت فى نفسى : إنه قادم من باريس ، وقد يكون من الأحرار ، لأنهم كثيرون فى عاصمتنا ، ولكن أى ضرر يلحق فقراءنا وسجناءنا مما لمتمانى عليه ؟

فاشتد غضب السيدين على القس العجوز ، وكان ڤالنو أكثر حقداً

عليه من العمدة ، فصاح القس فى صوت مضطرب :

— حسناً أيها السيِّدان ! إعملا على عزلى من منصبي إن أردتما ذلك ، ولكن اعلما أننى سأظل مقيما بفرييرِ . والناس جميعاً هنا يعلمون أنني ورثت حقلا يدرّ على ثمانمائة فرنك سنويًّا ، وسأعيش من هذا الدخل ، وما كنت أقتصد شيئاً من مرتبى فآسى عليه حين أعزل من منصبي .

كان السيِّد دى رينال يعيش مع زوجه عيشة راضية ، لكنَّه كاد يغضب حين عجز عن أن يجد جواباً لسؤالها الذى وجهته إليه قائلة : أى ضرر يصيب المسجونين لو رآهم هذا الپاريسىّ ؟ لكن صيحة زوجه حالت بينه و بين الغضب ، صيحة أطلقتها حين رأت ابنها الثانى قد تسلق الحاجز وأخذ يعدو عليه ، فارتاعت لأن الجدار يعلو أشجار الكرم التى تنمو فى الناحية الأخرى بمقدار عشرين قدماً . ولم تشأ أن تخيف ابنها بالتحدث إليه حتى لا يسقط فى الهاوية ، فكنت تراه يضحك معجباً بشجاعته ، حتى إذا ما بدا لعينيه شحوب أمه ، قفز فى الحديقة ثم جرى نحوها ، فأخذت الأم تؤنبه تأنيباً شديداً .

وغيَّر هذا الحادث اليسير مجرى الحديث بين الزوجين ، فقال لها دى رينال :

— أنا مصمم على أن أتخذ سورل ابن ناشر الأخشاب مربياً لأولادى ومشرفاً عليهم ، فقد أصبحنا لا نقدر على ذلك . إنه قسّ شاب عالم باللاتينية ، يستطيع أن يعين الأطفال على تحصيل الدروس ؛ وقد أخبرنى

القس بأنه فوق هذا كله على خلق عظيم . سأعطيه ثلاثمائة فرنك أجراً له على عمله ووجبات الطعام . لقد كنت أشك فى خلقه من قبل ، لأنه كان الطفل المدلّل لذلك الجرّاح العجوز الحاصل على وسام الشرف ، والذى أقام عند أسرة سورل بحجة أنّه من ذوى قرباهم ؛ ويخيّل إلىّ أن هذا الرجل لم يكن إلا جاسوساً للأحرار ، وإن زعم أن هواء الجبال يشفيه من الربو ، ولكنه زعم لم يتحقق بعد . لقد حارب هذا الرجل مع بوناپرت فى إيطاليا ، ويقال إنه كان ضد الامبراطورية .وقد علّم هذا العجوز اللاتينية لابن سورل ، وترك له عدداً كبيراً من الكتب التى كانت معه .

لهذا كلّه لم أشأ أن أضع أولادى من قبل بين يدى هذا الشاب ، ولكنّ القس أخبرنى قبل المشادة التى حدثت بيننا بليلة واحدة أن ابن سورل يدرس اللاهوت منذ ثلاثة سنوات ليدخل المدرسة الإكليريكية ، فهو إذاً ليس من الأحرار فضلا عن أنه يعرف اللاتينية .

ثم نظر دى رينال إلى زوجه نظرة لها مغزاها واستطرد : هذا الاقتراح يوافقنا لعدّة أسباب ، منها أن ڤالنو معجب إعجاباً شديداً بالجوادين النورمنديين اللذين اشتراهما لعربته ، ولكنه لم يحصل بعد على معلّم لأولاده .

— وفى استطاعته أن يأخذ منا هذا الذى تتحدث عنه .

فنظر دى رينال إلى زوجه وابتسم شاكراً لها الرأى الحصيف الذى أبدته وقال :

— أنت إذاً تقرّين المشروع ، إننا متفقان .

— يا إلهى ! إنك لسريع البتّ فى الأمور يا صاحبى !

— إنى ذو خلق ، وقد رأى القس ذلك فى وضوح وجلاء . على أنى أحب أن نتكلم فى صراحة فأنت تعلمين أننا محاطون هنا بالأحرار ، وجميع تجار المنسوجات يحسدوننى ، وأنا واثق من هذا كل الثقة ، وقد أصبح اثنان أو ثلاثة منهم أغنياء ؛ وعلى هذا أحب أن يروا أطفال السيد دى رينال يذهبون إلى الحديقة العامة ومعهم معلمهم ! فهذا له أثره فى نفوسهم . وكثيراً ما حدثنا جدّنا أنه قد كان له مرب فى صباه . والمربى لن يكلفنا أكثر من مائة إيكو(١)، وهو مبلغ يجب أن يدخل فى باب المصروفات الضرورية لنحافظ على مكانتنا .

وكان لهذا القرار المفاجىء أثره فى نفس مدام دى رينال ، ففكّرت فى الأمر . ومدام دى رينال سيدة طويلة القامة معروفة بالجمال بين مواطنيها من سكان هذه الجبال ، حتى كانوا يقولون عنها إنها أجمل النساء . لا يخلو سلوكها من روح البساطة والشّباب ، ويستطيع البارىسى أن يصف ظرفها القوىّ الساذج ، البرىء ، بأنه مشوب بلذة رفيقة ، ولو أنها علمت هذا الرأى لخجلت منه أشد الخجل ، لا يعرف التكلف والدلال سبيلا إلى قلبها النقى . وقد حاول مسيو ڤالنو المدير الفنى لملجأ الأيتام أن يغازلها فلم يستطع أن يظفر منها بشىء ، ولم يلاق إلا صدوداً وجفوة ، وكان لمسلكها هذا صداه فألقى ضوءاً جديداً على مقدار عفافها وتمسكها بالشرف ، لأن السيد ڤالنو من أولئك الذين يتصفون بالجلبة والفظاظة ، وإن كان شاباً

(١) الإيكو عملة فرنسية قديمة تبلغ قيمتها ثلاثة فرنكات أو ستة فرنكات . « المعرب »

طويلاً ، قوى الجسم ، وردىّ الوجه ، يتدلى شعره الأسود على عارضيه ، إنه من أولئك الذين يعدُّهم سكان الريف من أهل الجمال .

ومدام دى رينال شديدة الحياء ، تدلّ الظواهر على أنها ذات خلق متغيرٍ ، لا تحب من فالنو حركته الدائمة وجلبة صوته . وكان زهدها فيما يسمّيه أهل فريير سروراً ، جعل الناس يعتقدون أنها معتزة بمحتدها فخورة به .

ولكن هذه الفكرة لم تتسلط على ذهنها فى يوم من الأيام ، وإن كانت سعيدة بعدم زيارة أهل البلدة لها . ولا نستطيع أن نخفى رأى سيدات فريير فيها ، فقد كنَّ يصفنها بالبله ، لأنها لم تنتهز الفرص فتلبس القبعات الجميلة ، التى تشترى من باريس أو بيزانسون ؛ ولو أنها أرادت ذلك ما وجدت تعسفاً ولا معارضة من زوجها ، غير أنها لم تكن تبغى إلاّ العزلة ، تتنزه منفردة فى حديقتها الغناء . وكانت ساذجة النفس ، لا يسمو فكرها إلى الحكم على زوجها أو الاعتراف بأنها تلقى فى الحياة معه مللا وسآمة . تعتقد فى نفسها دون أن تعلن على الملأ أن العلاقة الزوجية أسمى العلاقات ، فهى تحبّ زوجها حين يتحدث إليها عن المشروعات التى أعدّها لمستقبل أولادها ، وحين يفضى إليها بأنه يود أن يكون ولدها الأول جنديًّا والثانى قانونياً والثالث قسيساً ، وهى ترى مع ذلك أن زوجها أقل إملالا من جميع من تعرفهم من الرجال .

وقد كان هذا الرأى ، الذى أملته الزوجية رأياً معتدلا ، فقد عرف

عمدة ڤرييز بالنكتة وخفة الظل لأنه ورث عن أحد أعمامه ست فكاهات، يرددها فى أحاديثه . وكان هذا العم قائداً عجوزاً يعمل بفرقة المشاة فى جيش الدوق دورليان قبل قيام الثورة ، ثم ذهب إلى پاريس فاستقبل فى صالونات الأمير حيث قابل مدام دى مونتسون ومدام دى جنليس الذائعة الصيت ومسيو دوكريه مخترع پاليه(١) رويال .

وهذه الأسماء كثيراً ما تتردد فى حديقة السيد دى رينال ، ولكن ذكريات هذه الأشياء الدقيقة قد أصبحت عسيرة عليه بمرور الزمن ، فهو لايتحدث الآن بما كان يجرى فى أوساط أسرة دورليان إلا فى المناسبات الكبيرة . إنه لجم الأدب إلا حينما يتحدث عن المال . وعلى هذا ، كان السيد دى رينال يعدُّ بحقٍ أكثر سكان ڤرييز أرستقراطية .

---

(١) كانت مدام دى منتسون قد تزوجت سراً بفيلب إيجليتيه وعهدت إلى ابنة أخيها مدام دى جنليس : أمر تربية الدوق دورليان الذى حكم باسم لويس فيلب . أما ابن أخيها المركيز دوكريه فقد كان المحرض على التغيير الذى أصاب باليه رويال . «المعرب»

الفصل الرابع

أب وابن

[إذا صح هذا ، فهل يقع الخطأ على ؟]

مكيافلى

نزل العمدة فى الساعة السادسة من صباح اليوم التالى متّجها إلى مصنع الأب سورل وهو يحدث نفسه : إن زوجى لعميقة التفكير حقّا ! ذلك أننى لم أكاشفها برأيى إلا لأحتفظ لنفسى بمالى من تفوّق عليها ، ولكننى أعترف بأننى لم أفكر فى أن مدير الأموال قد تطرأ عليه فكرة الاستعانة بسورل فى تربية أولاده ، وسورل يعرف اللاتينية معرفة دقيقة كما يقولون ؛ نعم لم أفكر فى أن المدير الذى لا يستقر له قرار ، يستطيع أن يأخذ منى هذا المربى إذا طرأت له نفس الفكرة ، ثم بأية لهجة تنطوى على الكبرياء سيتحدث المدير عن مربى أولاده ! لابدّ لى منه...وحينما يصبح فى خدمتى فهل يرتدى ثياب الكهنة ؟

كان السيد دى رينال مستغرقا فى هذه الأفكار ، حينما رأى عن بعد فلاحا مديد القامة يبلغ طوله ست أقدام ، مكبًّا على قياس قطع من الخشب ، موضوعة على ضفة نهر الدو ، فى طريق جرّ السفن ؛ و بقدر ما سمح له الضوء الضئيل ، استطاع أن يتبين أن الفلاح لم يسُرّ لرؤيته ، لأنّ الأخشاب كانت تسدّ الطريق ، ووضعها هنالك يعد مخالفة .

ولم يكن هذا الفلاح سوى الأب سورل، وقد دهش حين رأى العمدة، ثم سر كثيراً لاقتراحه الغريب بشأن ابنه چوليان . وكان سورل ينصت إليه فى هيئة تدل على حزن يخفى سروراً ، ونزاهة تحجب وراءها أغراضاً ، وهى علامات يتقن إبداءها سكان الجبال فى مهارة فائقة ، لأنهم لايزالون عبيداً لاحتلال الأسبان ، ولايزالون يحتفظون بالطابع الذى نراه واضحاً على وجه الفلاح المصرى .

كانت إجابة سورل ، أول الأمر ، مقصورة على ترديد عبارات التجلة التى حفظها عن ظهر قلب وتنطوى على الزيف والخداع ، ثم ابتسم للعمدة ابتسامة خرقاء كست وجهه كذبا وخبثا يكادان يكونان طبيعة فطر عليها .

وكانت نفسه البسيطة ، نفس الفلاح العجوز ، تحاول أن تكشف سر إهتمام رجل عظيم كهذا بأمر ابنه الفاشل الذى أينما وجهه لايأتى بخير. كان الأب سورل كاسف البال من ابنه چوليان الذى يريد العمدة الآن أن يأخذه إلى منزله ويعطيه مبلغاً عظيما ، يعطيه ثلاثمائة فرنك فى السنة غير الطعام والكسوة . على أن دى رينال لم يكن قد فكر فى أن يكسو چوليان ، ولكن عبقرية سورل ألهمته بأن يقترح عليه ذلك ، فلم يتردد العمدة فى القبول .

وإن أثر هذا الاقتراح فى نفسه حتى ظن أن سورل غير سعيد بما طلبه منه الآن ، لأن ڤالنو قد سبقه إلى الحديث معه فى هذا الشأن ، ومن ذا الذى يحدثه فى ذلك غير ڤالنو ؟

وحاول دى رينال عبثا أن يعجّل فى إنهاء الصفقة ، فحال بينه و بين ذلك دهاء هذا الفلاح العجوز الذى أصرّ على الرفض ، زاعماً أنه يريد مشاورة ابنه كما يأخذ الأب الغنى رأى ابنه المفلس فى أمر من الأمور على عادة أهل الريف مجاراة على الأقل لظواهر الأمور .

يتكوّن المنشار الذى يدار بالماء من سقيفة تقام على حافة جدول ، يرتكز سقفها على أخشاب تحملها أربعة أعمدة من الخشب السميك ؛ وفى وسط السقيفة يرى الإنسان على ارتفاع ثمان أو عشر أقدام منشاراً يصعد وينزل ، ينشر خشبة تدفعها إليه حركة آلية سهلة ، تبعثها إليه عجلة تحركها مياه الجدول التى تحرك المنشار ، فتدفع الخشبة إليه دفعاً رفيقاً ليقطعها ألواحا .

واقترب الأب سورل من المصنع ونادى ابنه چوليان بصوت عال قوىّ ، ولكنه لم يجب نداءه ؛ ولم يَرَ من بعد إلا ابنيه الكبيرين بقامتيهما المديدتين يحمل كلّ منهما فأساً ضخمة ثقيلة ؛ وقد أكبّا على جذوع بعض الأشجار الصنوبرية يقطعانها بطريقة مربعة لتحمل إلى المنشار داخل المصنع . وكانا مشغولين بتتبع العلامات السوداء التى رسمت فى القطع الخشبية ، وكانت كلّ ضربة من ضربات الفأس تفصل قطعا كبيرة من النُجارة ، ولهذا لم يسمعا صوت أبيهما وهو ينادى أخاهما ، فاتجه الأب إلى السقيفة يبحث عن چوليان فى المكان الذى أعدّ له بجوار المنشار فلم يجده ، ومدّ بصره فوجده راكباً خشبة ترتفع عن الأرض خمس أقدام أو ستا تقريباً ، مكبّاً على القراءة معرضاً عن حركة المصنع ، غير مبال بالآلات التى

كلّف الإشراف عليها . وكان الأب سورل يكره كراهية شديدة أن يرى ابنه مكبًا على القراءة ، بل هو نفسه لايعرف القراءة ، وإذا جاز له أن يعفى چوليان لنحوله ، من الأعمال البدنية التى يؤديها أخواه ، فإنه لايستطيع أن يصفح عنه حين يراه وقد شغلته القراءة عن كل شىء .

رآه كذلك فناداه مرتين أو ثلاثًا فلم يسمع الابن النداء ، لأن انتباهه محصور فى الكتاب الذى بين يديه ، ولأن المنشار يحدث ضوضاء شديدة فلم يتح له أن يسمع نداء والده المزعج . عندئذ قفز الأب بخفة على الرغم من شيخوخته إلى الشجرة التى كانت تنشر ، ثم وصل منها إلى الخشبة المعترضة التى يرتكز إليها سقف المصنع ، وهوى بضربة قوية على الكتاب أطارته من يد ابنه واستقرت به فى الجدول ، ثم لطمه لطمة قوية أخرى على رأسه ، جعلت چوليان يفقد توازنه حتى كاد يسقط بين عجل الآلة الدائرة . ولولا أن أمسكه أبوه بيده اليسرى ، وهو يسقط من هذا العلوّ الذى يبلغ اثنتى عشرة قدما أو أكثر لقضى المسكين نحبه ومزقته الآلة شرّ ممزق ، ثم قال له أبوه :

تبًا لك من كسول ! أتقرأ هذه الكتب الملعونة وأنت موكل بالإشراف على المنشار ؛ إقرأ فى المساء كما يحلو لك حين تضيّع وقتك عند القسيس . واقترب چوليان من المنشار ، ولو أن الضربة أحدثت له دوارًا وتقاطر الدم منه ، وقد اغرورقت عيناه بالدموع لا للألم الذى أصابه ولكن لفقد الكتاب الذى كان يعتز به إعتزازا شديدًا . وصاح به الأب ثانيًا :

— إنزل أيها الحيوان فإنى أريد أن أتحدث إليك .

ولكنّ ضوضاء الآلة حالت بينه و بين سماع أمر أبيه .

ولمست قدما الأب فى تلك اللحظة أرض المصنع ولم يشأ أن يصعد مرة أخرى إلى جوار الآلة ، فذهب ليحضر خشبة طويلة دقيقة تستعمل فى إسقاط ثمار الجوز ، وضرب بها ابنه على كتفه .

ولم يكد جوليان يصل إلى الأرض حتى دفعه أبوه أمامه دفعة قوية تجاه المنزل ، فأخذ الابن يقول فى نفسه : لايعلم إلا الله مايُراد بي ! ونظر إلى الجدول فى أسى بالغ ... لقد فقد كتابه العزيز : مذكرات سانت هيلانه الذى كان أحبّ كتاب إلى قلبه .

كان جوليان أرجوانىّ الخدين منخفض النظر فى الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة من عمره . يدلّ مظهره على الضعف ، غير منتظم التقاطيع إلا أنه رقيقها . أنفه أقنى ، وعيناه سوداوان واسعتان ، كانتا تعبّران فى تلك اللحظة عن الكراهية الشديدة ، و إن كانتا تنمان فى ساعات الرضى والاطمئنان عن ذكاء وجدّ وعمق فى التفكير .

شعره كستنائىّ داكن يشغل حيزاً كبيراً فلا يترك له إلا جبهة صغيرة فأضفى عليه ذلك لوناً من ألوان الشرّ إذا ماغضب ، وتلك علامة مميزة له ، لانجد لها نظيراً فى وجوه البشر على اختلافها وتباينها ، ذو قوام رشيق ممشوق يدلّ على الخفة أكثر من دلالته على القوة ، شاحب اللون منذ طفولته ، دائم الوجوم . فاعتقد أبوه أنه لن يعيش طويلا ، و إن عاش فسيكون عبئا على الأسرة . وكان موضع ازدراء من يعيش معهم ، فشب على كراهية أبيه وأخويه ، وهو مغلوب على أمره دائماً ، لايصيبه التوفيق

لا فى ألعاب أيام الأحد ، ولا فى الميدان العام .

لكن جمال وجهه بدأ يغزو قلوب بعض الفتيات منذ عام واحد ، كان محتقراً لضعفه ، ولذلك أقبل على هذا الجرّاح الشيخ الذى جرؤ على أن يتحدث إلى العمدة يوماً فى شأن النباتات ، فأحبّه چوليان حبا شديداً .

وكثيراً ما كان الجراح يدفع للأب سورل أجر ابنه چوليان اليومى ليتركه له يعلمه اللاتينية والتاريخ ، وعلى الأصح مايعرفه من التاريخ وهو حرب عام ١٧٩٦ فى إيطاليا . وقبل أن توافيه المنية ترك لجوليان صليب وسام الشرف ، و بقايا دخل ضئيل ، وثلاثين أو أربعين مجلدا ، كان أعزها عليه ذلك الكتاب الذى ألقى به أبوه فى الجدول العام الذى غُيّر مجراه بفضل العمدة .

دخل چوليان المنزل فشعر باليد القوية ، يد أبيه تمسك بكتفه ، فاضطرب لأنه كان يتوقع لطمات أخرى ، ثم صاح الفلاح الشيخ فى أذن ابنه بصوته القاسى الرهيب :

— أجبنى فى صدق . وكان قد أمسك بابنه وأداره نحوه ، كما تدير يد الطفل جندياً مصنوعا من الرصاص ، وكانت عينا چوليان السوداوان الواسعتان مغرورقتين بالدموع ، مواجهتين عينى النجار العجوز الصغيرتين الرماديتين ، اللتين تريدان أن تقرآ ما فى قرارة نفس الفتى .

الفصل الخامس

مفاوضات

[عالج الأمر بالتريث]

إينوس

— أجبنى صادقاً إن استطعت إلى ذلك سبيلا أيها الكلب اللئيم . أين تعرفت بمدام دى رينال ؟ ثم متى تحدثت إليها ؟

— لم أر هذه السيدة إلا فى الكنيسة ؟ ولم أتحدث إليها أبداً .

— ولكن ألم تنظر إليها أيها الماجن السفيه ؟

فأجابه چوليان فى نفاقٍ أراد به أن يتجنب صفعات أخرى من أبيه :

— أبداً ياأبتاه ! فأنت تعلم أننى حينما أكون فى الكنيسة لاأتوجَّه إلا لله وحده . فأطرق الفلاح الماكر برهة ، ثم قال :

— فى الأمر شىء لاتريد أن تفضى به إلىَّ أيها المنافق اللعين . لقد كسبت عطف القسيس أو أى إنسان آخر فحصلوا لك على عمل مريح ، فأغرب عنى الآن وأعدد عدّتك لأذهب بك إلى السيد دى رينال ، فقد أصبحت معلما لأولاده .

— وماذا سيعطينى مقابل هذا العمل ؟

— الطعام والكساء وثلثمائة فرنك .

— لا أريد أن أكون خادما .

— ومن قال لك هذا أيها الحيوان ؟ وهل أقبل أنا أن يكون إبنى خادماً ؟

ولكن مع من سأتناول طعامى ؟

وألقى هذا السؤال المفاجئ حيرة فى نفس الشيخ سورل ، ولم يشأ أن يتكلم خشية أن يرتكب حماقة ، ثم أخذ يسب ابنه سبا شديداً ويتهمه بالبطنة ، وبعد ذلك تركه ليشاور ابنيه الآخرين فى هذا الأمر الخطير .

وبعد برهة ، رأى چوليان أخويه يتكىء كل منهما على فأسه ويتشاوران فى أمره ، فأخذ ينظر إليهما برهة لعله يدرك مايتحدثان به . ولم يفهم شيئاً من حديثهما ، فانصرف إلى الجهة الأخرى من المصنع ليتفادى الإتهام باستراق السمع ، وليخلو إلى نفسه من ناحية أخرى ليفكر فى هذا الخبر المفاجئ الذى سيغير مجرى حياته . وكان يشعر فى قرارة نفسه بأنه ليس أهلا لهذا المنصب الجديد .

وظل يفكر فى مصيره ولكن بلا حكمة ولا روية ، لأن خياله طار به إلى تلك النفائس التى حواها منزل السيد دى رينال ، فأخذ يحدث نفسه يجب أن أرفض هذا العمل حتى لا آكل مع الخدم . إن والدى يريد أن يرغمنى على قبوله ، ولكن الموت خير لى من الإذعان .

إن لدى خمسة عشر فرنكا وبضعة سنتيمات أقتصدتها ، فلأفر هذه الليلة إلى بيزانسون فأصلها بعد يومين ، وسأحرص على أن أسلك طريقا لا يغشاها رجال الشرطة . سأنتظم فى سلك الجندية ، وإذا اضطررت إلى

السفر إلى سويسرة فلن أتردّد فى ذلك على أنى لن أطمع فى أى تقدم أو أصيب أى نجاح فى حياتى مادام قد حيل بينى و بين الحياة التى كنت أطمح إليها : حياة القسيس التى ينال فيها الإنسان كلّ ما يصبو إليه .

لم يكن إشمئزاز چوليان من أن يأكل مع الخدم طبعا فيه فإنه يفعل أكثر من ذلك فى سبيل المال ، بل كان تطبّعا اكتسبه من قراءة اعترافات روسو ، الذى كان يعلّمه الحياة و يرسم له الطريق ، والذى جعل منه چوليان ، مع كتابى مذكرات سانت هيلانه ومجموعة أخبار الجيش الكبير ، إنجيلا له وقرآنا يعتزّ بها و يفضلها على حياته ، ولم يكن يؤمن بكتاب آخر غير هذه الكتب متأثراً فى ذلك بكلمة للجراح الشّيخ حين قال له إنه يعد الكتب الأخرى سلسلة من الأكاذيب كتبها دجّالون ليصيبوا نجاحاً فى الحياة الدنيا .

وكان چوليان ثائر النفس ، قوىّ الذاكرة لايكاد ينسى شيئا حتى ولو كان تافها ، وقد أراد أن يكسب عطف القس العجوز شيلان ومحبته ، فحفظ العهد الجديد باللغة اللاتينية عن ظهر قلب ، ودرس كتاب مسيو دى متر عن البابا ؛ و إن كان لايؤمن بما جاء فى هذين الكتابين . وفعل ذلك ليرضى شيلان الذى يتوقّف مستقبل حياة بطلنا على مقدار إرضائه .

لم يتحدث الأب سورل فى ذلك اليوم مع ابنه ، ولم يكلم الابن أباه حتى حلّ المساء فذهب چوليان إلى القس ليأخذ درسه فى اللاهوت ، ولم يشأ أن يفاتحه فى أمر ذهابه إلى منزل العمدة ، وأخذ يحدث نفسه قائلا : ربما كان الأمر مكيدة تدبر لى ، فعلىّ أن أتظاهر بنسيانها . ولكن السيد دى رينال بكّر فى اليوم التالى ذاهباً إلى سورل ، وظلّ ينتظره ساعة أو ساعتين

حتى بدا العجوز بالباب ليقدّم إلى العمدة المعاذير مصحوبة بالتجلة والاحترام. وتكلما فى الموضوع فاعترض سورل كثيراً ، غير أن العمدة أفهمه صراحة أن ابنه سيتناول طعامه على المائدة التى يجلس إليها هو وزوجه إذا لم يكن هناك أضياف ، وإلاّ تناول الطعام فى غرفته مع الأطفال . وكان سورل يحرص بعد ذلك على أن يثير مسائل فرعية كلما رأى العمدة راغباً فى إتمام الأمر ، فطلب منه أن يرى الغرفة التى سيقيم فيها ابنه . فصدع العمدة بالأمر وذهب به إلى المنزل حيث رأى غرفة فسيحة حسنة الأثاث ، ينقل الخدم إليها أسرة الأطفال . فاطمأن الفلاح حين شاهد ذلك ، ثم طلب من العمدة أن يريه الملابس التى أعـدها لجوليان ، ففتح دى رينال مكتبه وأخذ منه ورقة مالية بمائة فرنك وقال لسورل :

— سيذهب ابنك إلى مسيو دوران تاجر المنسوجات ليشترى حلة سوداء.

فقال العجوز على الفور وقد نسى عبارات الاحترام :

— وستبقى له هذه الحلة عندما يعود إلىّ ، أليس كذلك ؟

— بدون شك .

فقال سورل فى صوته الجهورى :

— حسناً ، لم يبق إذاً إلا شىء واحد يجب أن نتفق عليه : ذلك هو الأجر الذى تدفعه لابنى . فغضب دى رينال وصاح قائلا :

— كيف ذلك ! لقد اتفقنا على الأجر منذ الأمس ، ألم أقل لك أنى سأدفع ثلثمائة فرنك ؟ وهو مبلغ كبير ، أكبر مما ينبغى أن يحصل عليه ولدك .

— لقد اقترحت أنت ذلك وأنا لا أنكره . قال العجوز هذه العبارة بصوت منخفض ، ثم أوحت له عبقريته — عبقرية فلاحى هذه المقاطعة التى لا يدهش منها إلا من جهلها — أوحت له أن يقول :

— سنجد عند غيرك أجرا خيراً من هذا الذى اقترحته .

اضطرب السيد دى رينال حين سمع العبارة الأخيرة لكنه تمالك نفسه ، ثم تحدثا ساعتين كاملتين حديثاً لا يخلو من مراوغة ومكر وحذر . وانتصر دهاء الفلاح على دهاء العمدة الغنى ، فتمّ الاتفاق على جميع شروط الحياة الجديدة التى سيحياها جوليان ؛ وحصل سورل على أربعمائة فرنك سنويا أجرا لابنه تدفع مقدما أول كل شهر .

— سأعطيه أول كل شهر خمسة وثلاثين فرنكا .

— فقال الفلاح فى صوت ينطوى على كثير من الدلال :

— إنّ رجلا غنياً كريماً مثل عمدتنا ليجدر به أن يدفع مبلغاً صحيحاً خالياً من الكسور ، كأن يدفع ستة وثلاثين مثلا .

— إنّى موافق ولنفرغ من هذا الأمر .

ثم غاظه أن ينتصر عليه الفلاح ، فغضب وبدا عليه الحزم ، فأدرك سورل بفطنته أنه يجب أن يقف عند هذا الحد ، فانتصر دى رينال بدوره لأنه لم يرد أن يدفع إلى سورل أجر الشهر الأول ، ولو أن العجوز يتعجل أخذ المبلغ . وفطن دى رينال إلى أنه لابدّ أن يقصّ على زوجه الدور الذى لعبه فى هذه المفاوضات ، فقال للفلاح فى غضب :

— ردّ إلى مائة الفرنك التى أخذتها الآن ، لأن مسيو دوران مدين

لى ، وسأذهب مع ابنك بنفسى لأشترى له الحلة السوداء .

ورأى سورل الصّراحة متجلية على وجه العمدة ، فعمد إلى الحيطة والحذر ، وعاد إلى تملقه واحترامه .

واستمر الحديث ربع ساعة أخرى ، رأى بعدها الفلاح أنه لن يكسب شيئاً جديدا . فاستأذن منصرفا بعد تحية طيبة ، وودّع العمدة قائلا :

— سأرسل إبنى إلى القصر .

ويسرّ العمدة كثيراً أن يدعو الناس منزله قصرا ، وكثيراً ما نالوا بهذه العبارة سامى رضاه .

عاد الأب إلى المصنع ، وبحث عن جوليان فلم يجده . لقد خشى الفتى مغبّة هذا المشروع ، فغادر المنزل فى منتصف الليل ليضع كتبه وصليب وسام الشرف فى مكان أمين ، ذهب بها إلى صديق له يدعى فوكيه وهو تاجر أخشاب يقطن الجبل العالى الذى يشرف على مدينة فرييز .

ولما عاد بادره أبوه قائلا :

— يالك من كسلان لعين ، لايعلم إلا الله ما إذا كان عندك بقية من شرف تحملك على أن تدفع لى ثمن طعام قدمته إليك سنوات طويلة ! خذ اسمالك واذهب إلى العمدة . وعجب جوليان عجباً شديداً لأن أباه لم ينهل عليه بالضرب ، فعجّل بالرحيل حتى إذا ما اختفى عن نظر أبيه ، أبطأ ثانياً ليرضى نفاقه بأن يمر على الكنيسة ويبقى فيها قليلا . وسيعجب القارئ من هذه الفكرة ولكنّه لوعلم الأدوار التى مرّ بها تفكير ذلك

الشاب القروى لزالت دهشته وعجبه : رأى جوليان — وهو لا يزال فى مهد الطفولة الأولى — جنودا من الفرقة السادسة للخيالة يلبسون معاطف طويلة بيضاء ، وقد وضعوا على رؤوسهم خوذات تتدلى منها خصل طويلة من الشعور السوداء . وكانوا عائدين من إيطاليا ورآهم يربطون خيلهم فى قضبان نافذة أبيه ، فأصبح منذ ذلك العهد محبّا للحياة العسكرية ، راغباً فيها أشدّ الرغبة .

ثم أتيحت له فرصة الاستماع إلى الجراح العجوز بعد ذلك بسنوات طويلة ، فأقبل على حديثه فى شغف كبير ، وأخذ الجراح يقص عليه أخبار معارك جسر لودى وأركول وريفولى ؛ وكان جوليان يرى اللهب يشع من عينى ذلك العجوز وهو يلقى نظرة على وسام الشرف الذى يحمله .

وبلغ جوليان الرابعة عشرة من عمره ، فرأى أهل البلدة يبنون كنيسة فى ڤريير ، تعدّ رائعة بالنسبة لهذا البلد الصغير ؛ وأعجب جوليان بأربعة أعمدة من الرخام تزينها ، وقد أصبحت هذه الأعمدة مشهورة فى هذا الإقليم كله ، لأنها سبّبت عداوة شديدة بين قاضى الصلح ونائب الأسقف : ذلك الشاب الذى أتى من بيزانسون ، وكان الناس يعدّونه جاسوساً لجمعية الإخاء . واعتقد أهل البلدة أن القاضى سيفقد منصبه بسبب هذا العداء ؛ ولم لا وقد جرؤ على أن يسبّب نزاعا بينه وبين هذا القسّ الشاب الذى يزور بيزانسون كل خمسة عشر يوما ويقابل الأسقف !

كان القاضى ربّا لأسرة كبيرة ، وقد أصدر أثناء نزاعه مع نائب الأسقف بعض أحكام على من يقرأ الدستور من أهل ڤريير ، رآها الناس

قاسية شديدة ، وإن كانت تنطوى على غرامات لاتعدو ثلاثة فرنكات أو خمسة .

ووقعت إحدى هذه العقوبات على قريب لجوليان يتجرّ فى المسامير فغضب وصاح :

— ياللتغيّر الشديد ! لقد كنّا نعتقد منذ أكثر من عشرين عاماً أنّ هذا القاضى رجل أمين !

مات الجراح صديق جوليان وأقلع الشاب بغتة عن التحدث عن ناپليون ؛ واعتزم على أن يكون قسيسا ، فكان يُرى دائما داخل مصنع أبيه وفى يده نسخة من الإنجيل باللاتينية استعارها من القس . وقد أعجب هذا العجوز الطيّب إعجاباً شديداً بما أصابه جوليان من نجاح ، فكان يقضى معه ليالى يعلّمه اللاهوت . وحرص الشاب على ألاّ يظهر أمام القسّ إلا بمظهر التقوى والصلاح . ومن ذا الذى يظن أن جوليان الذى يغلب حياء العذارى وجهه الشاحب الرقيق ، قد وطّد العزم على أن يحصّل المال ولو لقى فى سبيل ذلك حتفه ؟

وكان يعتقد أن أولى الخطوات فى سبيل الثروة هى مغادرة ڤرييَر ، فهو يكره المدينة التى نشأ فيها لأن كل مافيها يؤلمه ويؤذيه أشد الإيذاء .

وكان واقعا منذ الطفولة تحت تأثير فكرة تملك عليه مشاعره ، هى أنه سيتعرّف بالپاريسيات الجميلات يوماً من الأيام ، وأنّه لن يعدم الوسيلة فى لفت أنظارهن إليه . ولم لاتحبه إحداهن ، وقد أحبت مدام بوهارنيه الرائعة الجمال بوناپرت قبل أن يصل إلى قمة المجد ؟ ! وتساءلت على

جوليان كذلك منذ عدة سنوات فكرة كان يرددها وهى أن بونابرت ، الضابط المجهول الفقير ، استطاع بحد سيفه أن يصبح سيد العالم . وهى فكرة تخفف من آلام رآها شديدة الوطأة على نفسه ثم تزيد من سروره فى ساعات فرحه .

على أن بناء كنيسة فرييِر والأحكام التى أصدرها قاضى المصالحات أنارت لجوليان السبيل ، فقد جدّت له فكرة شغلت نفسه وتحمس لها كل التحمس كأنما أصابه منها جنون ؛ مثله فى ذلك مثل غيره من الثائرين الذين يعتقدون فى كل رأى أنه جديد لم يسبقهم أحد إليه : حينما حمل بونابرت الناس على أن يتحدثوا عنه ، كانت فرنسا تخشى الغزو الأجنبى ، وكان التفوق الحربى فى زمنه ضرورة ملائمة لذوق العصر . أمّا اليوم ، فقد أصبحنا نرى القسس يتقاضون مرتبات تبلغ مائة ألف من الفرنكات ، وهم لايزالون فى الأربعين من عمرهم ؛ وهذا المبلغ ثلاثة أضعاف مرتبات القواد المشهورين الذين كانوا فى فرقة نابليون ؛ ثم نرى القسس مع ذلك فى حاجة إلى شبان يعاونونهم فى عملهم . ثم ألا نرى القاضى الذكى الفؤاد ، الذى عرف بيننا بالأمانة حتى الآن ، يدنّس نفسه بعد أن بلغ من الكبر عتيًا لأنه يخشى غضب نائب أسقف لايزال فى الثلاثين من عمره ؟ إذاً يجب أن أكون قسيساً !

أخذ جوليان يدرس اللاهوت توطئة لأن يكون قسيساً ، وكان قد قضى فى دراسته عامين حين وقع فريسة لهجمة مباغتة من الحماسة تأججت بين ضلوعه :

دعا الأب شيلان ذات يوم بعض القسس إلى منزله ليتناولوا معه الطعام ، وقدّم إليهم چوليان على أنه آية من الآيات فى العلم والمعرفة . وبدا لجوليان عندئذ أن يمدح ناپليون ، ويطرى أعماله فى تحمس وغيرة ، فدفع فى هذا ثمنا باهظاً ، إذ أنه علّق ذراعه اليمنى على صدره شهرين كاملين . وكان إذا سئل عن سبب ذلك أجاب بأن ذراعه انخلعت وهو يحاول تحريك جذع شجرة من أشجار الصنوبر . ثم صُفح عِنه بعد أن وقّعت عليه هذه العقوبة الرّادعة .

هذه هى صورة هذا الشاب الذى بلغ التاسعة عشرة من عمره ؛ وتدلّ كلّ الدلائل الظاهرة على أنّه ضعيف الجسم ، حتى يظن من يراه أنه فى السابعة عشرة فحسب — هو يحمل الآن تحت إبطه صرّة صغيرة ، ويدخل كنيسة ڤريير الرائعة الجميلة ...

وجدها مظلمة خالية من الناس خاوية ، يغطّى نوافذها نسيج قرمزىّ إحتفالا بالأعياد . كانت أشعة الشمس حين تتسلّط على النوافذ وتخترق هذه الستائر تخلق ضوءا بديعاً يلقى فى النفس روعة دينية صادقة ... رأى جوليان هذا المنظر فاهتز هزة عنيفة ، وجد نفسه وحيدا فى الكنيسة فجلس فى أحسن مقاعدها الذى زين بأسلحة أسرة دى رينال . ووقع بصره على ورقة مطبوعة ، وضعت على المركع بحيث أراد واضعها أن يقرأها من يراها . رفع جوليان عينيه فوقعت على ما يأتى : تفاصيل عن إعدام لويس جرنل فى بيزانسون وآخر لحظات حياته فى ...

وكانت تلك الورقة ممزقة ، فقرأ فى الناحية الأخرى كلمتى : الخطوة الأولى . فتنهد وأخذ يقول :

— ياله من بائس ! ترى من وضع هذه الورقة هنا ؟ إن اسم هذا الرجل المسكين ينتهى بنفس الحروف التى ينتهى بها اسمى ... ثم فرك الورقة بين أصابعه ورماها .

أبصر وهو يغادر الكنيسة بقعا خالها دماء بالقرب من إناء الماء المقدّس ، لكنها كانت مياها انعكست عليها أضواء الستائر فبدت حمراء اللون ! وكم خجل جوليان حين دبّ فيه دبيب الرعب وما لبث أن قال :

— ترى هل أصبحت جبانا ؟ إلى السلاح ! نعم إلى السلاح !

وهذه الكلمة ترددت كثيراً فى قصص الجرّاح العجوز وهو يقصّ عليه أخبار المعارك . ثم نهض جوليان من مكانه وأسرع إلى منزل السيد دى رينال .

وعلى الرغم من الإقدام الذى بثّه فى نفسه ، فإنه لم يكد يرى المنزل وقد أصبح منه على بعد عشرين خطوة ، حتى استولى عليه حياء شديد . كان الباب الحديدى مفتوحاً ، وكم كان جميلا رائعاً فى عين هذا الشاب الريفى الذى كتب عليه أن يقيم فى هذه الدار .

لم يكن جوليان وحده هو الذى اضطرب حين اقترب من المنزل ، فكان هناك قلب آخر أكثر إضطراباً ونفس أشد قلقا . كان الحياء الذى فطرت عليه مدام دى رينال يبلبل خاطرها لقدوم

هذا الأجنبى الذى تضطره طبيعة عمله إلى أن يكون دائما بينها وبين أطفالها. لقد اعتادت أن ترى أولادها ينامون معها فى غرفة واحدة ، وكم بكت فى الصباح حين كان الخـدم ينقلون أسرّتهم إلى الجناح الذى خصص لهذا المعلم الجديد! وكم ألحت على زوجها أن يسمح لها بنقل سرير ستانيسلاس كزافيه ، أصغر أبنائها إلى غرفتها! كانت رقيقة إلى أبعد حدود الرقة ، وكم دفعتها رقتها وحدبها على أولادها أن تصور هذا المربى فى صورة شخص فظ القلب أشعث أغبر ، يؤنب أولادها ويضربهم ، وما ذلك كله إلا لأنه يعرف تلك اللغة الوحشية ، ألا وهى اللاتينية!

الفصل السادس

السأم

[لم أعد أعرف من أكون ولاماذا أفعل]
موزار (فيجارو)

كانت مدام دى رينال خارجة من باب صالونها المطل على الحديقة ، بما فطرت عليه من نشاط وظرف ، حين تكون بعيدة عن أعين الرجال ، فوقع بصرها على شاب ريفى شديد الشحوب ، واقف بجوار الباب وهو يبكى . عليه قميص ناصع البياض ، وتحت إبطه حلّة من الجوخ بنفسجية نظيفة ، أبيض الوجه ، جميل العينين ، فظنته مدام دى رينال بما فطرت عليه من خيال قصصىّ — فتاة تنكرت فى ثياب رجل ، وجاءت تطلب عونا من العمدة . وأشفقت على هذا المخلوق البائس الذى ظل واقفاً بجوار الباب ، لايجرؤ على رفع يده ليدقّ الجرس . فاقتربت منه ، وكان جوليان ينظر إلى الباب فلم يرها وهى مقبلة ؛ فاضطرب حين سمع صوتا رقيقاً قريباً من أذنه يقول :

— ماذا تريد منا يابنى ؟ ووقع بصره على نظراتها الرقيقة حين التفت إليها فى اندفاع ، فزايله بعض حيائه ، ثم رأى جمالها ، فنسى كل شىء ، حتى المهمة التى أتى من أجلها : وعادت مدام دى رينال تسأله فأجابها ، وقد خجل من دموعه التى أخذ يجففها .

— أتيت ياسيدتى لأعلم الأطفال . فبهتت ، وظلت واقفة بالقرب منه لاتبدى حراكا ، ونظر كل منهما إلى الآخر . لم ير چوليان من قبل سيدة متأنقة فى ملبسها كمدام دى رينال ، ولاوجها كوجهها فى الجمال . ولم يسعد فى حياته بحديث عطوف رقيق كحديثها . وكانت مشغولة بالنظر إلى الدموع التى سالت على خدى هذا القروى الشاب فضرجتهما بالحمرة بعد الصفرة الشديدة . ثم طفقت تضحك ضحكاجنونياً شديداً ، لاتستطيعه إلاّ فتاة صغيرة . وسخرت من نفسها لأنها كانت سعيدة إلى أبعد حد : أهذا هو المعلم الذى صورته لنفسها من قبل فى صورة قسيس قذر ، رثّ الثياب ، يأتى إليهم ليؤنب أطفالها ويضربهم ؟ ثم قالت له :

— أحقاً ياسيدى أنك تعرف اللاتينية ؟

فذهل چوليان حين سمع كلمة سيدى وأطرق برأسه لحظة ثم أجابها فى حياء :

— نعم ياسيدتى .

وكانت مدام دى رينال فى هذه اللحظة سعيدة إلى أبعد حد ، سمحت لنفسها بأن تقول له :

— لن تؤنب أولادى كثيراً ، أليس كذلك ؟ فأجابها فى دهشة وحيرة :

— أنا أؤنبهم ، ولماذا ؟ فقالت بعد صمت قصير ، فى نبرات يظهر فيها التأثر لحظة بعد أخرى :

— نعم ياسيدى ! أتعدنى بأن تكون معهم طيباً رقيق القلب ؟

ولم يكد چوليان يسمع تلك السيدة الأنيقة تناديه بقولها سيدى ، فى لهجة تنطوى على الجدّ ، حتى طار عقله فرحا . لم يكن يتصور إطلاقاً ، حتى فى أحلامه التى يضطرب بها شبابه ، أن سيدة جميلة أنيقة تتحدث إليه هذا الحديث الرقيق دون أن يكون لابسا حلّة جميلة . وعجبت مدام دى رينال بدورها من جمال وجهه وعينيه الكبيرتين السوداوين وشعره الحلو المجعّد ، الذى كان فى تلك الساعة أكثر تجعدا منه فى أى وقت آخر ، لأنه أراد أن يستعيد بعض نشاطه فغمس رأسه فى حوض النافورة العامة .

وسُرَّت مدام رينال حين رأت على المعلم حياء العذارى ! لأنها كانت تخشى على أبنائها من رجل قاس عبوس الوجه . إنها لمباغتة سارّة لنفسها الهادئة التى تولع دائما بالوئام وتحب السلام . ثم زالت دهشتها بعد قليل ، ونظرت فإذا بها تكاد تكون ملتصقة بشاب جميل لاتعرفه من قبل ، لايكاد يستره إلا قميص ، وكانا واقفين معا بجوار الباب . فقالت له فى نبرات مضطربة :

— فلندخل المنزل يا سيدى .

وكانت بادية التأثر ، شديدة الفرح ، سعيدة بزوال مخاوفها من أن يقع أطفالها بين قسّ قذر فظ القلب ، خشن الطباع ، لأنها شديدة العناية بهم .

ولم تكد تدخل الردهة حتى التفتت إليه ، وهو يتبعها فى حياء شديد ؛ وبهره جمال المنزل وفخامة الأثاث ، فازداد وجهه فى نظرها جمالاً على جمال ،

حتى كادت لاتصدق عينيها . وخيّل إليها أن المعلم يجب أن يلبس السواد ، فوقفت سائلة :

— أحقيقة ياسيدى أنك تعرف اللاتينية ؟ . ألقت عليه هذا السؤال لأنها كانت تخاف ألا يكون هومعلم أولادها. لكنّ چوليان أحسّ فى سؤالها جرحا لكبريائه ، بدّد الحلم الجميل الذى كان ينعم به منذ ربع ساعة ، فأجابها فى هدوء بارد :

— نعم ياسيدتى ، أعرفها كما يعرفها كاهن المدينة . وكثيراً ما كان يتفضل علىّ فيقول إنى أعرفها خيراً منه .

ورأت السيدة على وجهه دلائل الشرّ وهو واقف على بعد خطوتين منها فدنت منه وقالت له بصوت خفيض :

أتعدنى بأنك لاتضرب أبنائى فى الأيام الأولى ولو لم يحفظوا دروسهم ؟

نغمات عذبة حلوة نطقت بها غادة حسناء فنسى جوليان دفاعه عن نفسه ، لأنها نغمات يشوبها التضرع .

وكان وجهها قريباً جداً من وجهه ، حتى إنه شم عطر ملابسها الصيفية؛ وهو شئ لم يعتده فلاح مثله ، فاحمر وجهـــه ، وقال لها فى صوت خافت مضطرب :

— لاتخشىْ شيئا ياسيدتى فسأطيعك فى كل ما تأمرين .

وتبددت مخاوف الأم على أطفالها ، فآن لها أن ترى وجه جوليان على حقيقته ، وعندئذ أذهلها جماله ... إنه كوجوه العذارى ! ولم تعد تعجب باضطرابه وخجله ، لأنها كانت بطبعها كثيرة الخجل شديدة الحياء .

وكان مظهر الرجولة الذى يحبه غيرها من النساء يخيفها و يزعجها . ودار بينها وبين الشاب الحديث التالى ، فقالت له :

— كم عمرك ياسيدى ؟

— سأكون عما قريب فى اتاسعة عشرة من عمرى .

— إن إبنى الأكبر فى الحادية عشرة ، ومن الممكن إذاً أن يكون لك صديقاً ، فتحدث إليه حديثاً يلائم سنّه . لقد أراد أبوه مرة أن يضربه فصفعه صفعة خفيفة ، فمرض أسبوعاً ولزم الفراش .

ولم يكد جوليان يسمع كلامها حتى أخذ يقول فى نفسه : ماأعظم الفرق بينى و بين ابنها !

لقد ضربنى أبى بالأمس ، حقا ، إنّ هؤلاء الأغنياء لسعداء ! وكانت السيدة شديدة الانتباه إلى كلّ مايدور فى نفسه ، فأبصرت وجهه وقد غطّته سحابة خفيفة من الحزن ظنتها فرط حيائه منها فشجعته سائلة إياه عن اسمه فى لهجة جذابة ، أحسّ جوليان كلّ مافيها من جمال دون أن يدرك مرماها ثم أجاب :

— أدعى جوليان سورل ياسيدتى ، و إنى لشديد الاضطراب ، فهذه أول مرة فى حياتى أعيش فيها فى منزل لاأعرفه .

أنا فى حاجة إلى حمايتك ياسيدتى ، وأرجو أن تصفحى عن الهفوات التى أقترفها فى الأيام الأولى من حياتى معكم ، فإننى لم أذهب مطلقا إلى مدرسة لأننى كنت فقيرا ، ولم أتحدث مع رجل ، غير أبى وابن عمى الجراح العجوز الذى يحمل وسام الشرف ، والقسيس السيد شيلان الذى

سيشهد لى شهادة طيبة . كان إخوتى يضربوننى دائماً ؛ فلا تصدقيهم إذا قالوا عنى قولا سيئاً ؛ اغتفرى لى أخطائى واعتقدى دائماً أننى لا أرتكبها عمداً .

وعاد الهدوء إلى نفسه بعد هذه الخطبة الطويلة ، فتأمل السيدة التى كانت تبدو جميلة ، ظريفة إذا كانت على سجيتها وكان من تتحدث إليه لا يتكلف الظرف معها . ولو أنّ جوليان سئل عنها فى هذه اللحظة لقال صادقاً : أراها لم تتجاوز العشرين من عمرها بعد ، وهو خبير بجمال النساء .

وبدا له أن يقبّل يدها ، لكنه سرعان ما ندم على فكرته وخشى مغبة عمله . على أنه قال فى نفسه : لو أننى أحجمت عن هذا العمل لعدته جبناً ، ومن يدرينى لعلّ فيه خيراً لى ، وربّما أكسبنى احتراماً فى نظر هذه السيدة التى ترانى عاملا بائساً خرج من المصنع منذ قليل .

وتردّد ، ثم شجعه ما ذكره من أن بعض الفتيات كن يصفنه بالجمال ، حين كان يلتقى بهنّ أيام الآحاد ، وكان ذلك منذ ستة أشهر . وتكلمت مدام دى رينال ، وهو فى صراعه النفسى ، ترشده إلى الطريقة التى يعلّم بها أولادها أول الأمر . وكان صراعه النفسى قد أعاد الشحوب إلى وجهه الجميل ، فقال لها وهو يحاول التغلب على ما فى نفسه :

— لا يا سيدتى ، لن أضر بهم أبداً ؛ وأقسم لك على ذلك أمام الله ،

ثم اندفع وتناول يدها وقبّلها . وأذهلتها هذه الحركة فكادت تغضب .. كان الجوّ شديد الحرارة ، وذراعها عارية لا يسترها إلا لفاع ، فانكشفت

حين رفع جوليان يدها إلى شفتيه . ومرّت لحظات ندمت بعدها السيدة على أنها لم تؤنبه على ما فعل .

كان السيّد دى رينال فى غرفة عمله ، فسمع كلاماً فى الردهة ، خرج بعده ، وسار نحوهما فى هيئة تدل على حنوّ وعظمة . سار فى تلك الهيئة التى يصطنعها فى حفلات الزواج فى دار العمدية ، ثم قال لجوليان .

— يجب أن أتحدّث إليك قبل أن يراك الأطفال .

ولما دخلا الغرفة معاً وأغلق الباب ، احتجز زوجه التى كانت تريد أن تتركهما معاً ، ثم جلس دى رينال فى وقار وقال :

— أخبرنى السيّد القس أنك من الرعايا المخلصين ، وسيعاملك جميع من هنا معاملة كلّها احترام . وإذا سرّنى عملك ، ساعدتك فيما بعد فى الحصول على منصب . أما الذى أطلبه منك ، فهو ألا ترى بعد الآن أحداً من أقاربك أو أصدقائك ، لأن لغتهم لا تتفق مع ما أبتغيه لأبنائى من تربية سليمة . هاك ستة وثلاثين فرنسكا ، أجرك عن الشهر الأول ، وعدنى بشرفك ألا تعطى منها شيئاً لأبيك .

كان العمدة مغيظاً من الشيخ سورل لأنه كان أكثر منه ذكاء ودهاء فى إتمام هذه الصفقة . ثم استطرد يقول :

والآن أيها السيد لا يحسن أن يراك الأطفال فى هذه الملابس . وقد أصدرت أمراً بأن يدعوك كل من فى المنزل بالسيّد ، وستشعر بعد قليل بالنفع الذى يعود عليك حين تعمل فى منزل قوم محترمين .

ثم سأل زوجه :

— هل رآه الخدم فى هذه الثياب ؟ فأجابت وعليها دلائل تفكير شديد .

— كلا يا صديقى .

فتناول العمدة ردنجوتاً من ملابسه الخاصة وهو يقول :

— حسناً ، إلبس هذا ، وسنذهب معاً إلى مسيو دوران تاجر الأصواف . وانصرفا ، ثم عادا بعد ساعة ، والمعلم الجديد فى حلة سوداء . ولما دخل دى رينال ألفى زوجته فى مكانها لم تبرحه . ولشد ما اطمأنت ، حين وقع بصرها على چوليان حتى نسيت وهى تنظر إليه أنها كانت من قبل منزعجة منه .

كان چوليان لا يفكر فيها الآن ، وعلى الرغم من أنه يحذر الأقدار والرجال فإن روحه فى تلك اللحظة كانت روح طفل عابث . وخيل إليه أنه عاش سنوات طويلة منذ وقف مضطرباً فى الكنيسة قبل ذلك بثلاث ساعات . وألقى نظرة على مدام دى رينال فألفاها ضجرة فأدرك أنها لا تزال غضبى منذ قبل يدها ؛ غير أن ثيابه الجديدة بعثت فى نفسه زهواً شديداً ، لأنها تغاير ما اعتاد أن يلبسه من قبل ، فكانت حركاته صاخبة جنونية ، وحاول عبثاً أن يخفى فرحه ، فأخذت السيدة تنظر إليه فى دهشة وحتى قال له زوجها :

— عليك بالرزانة يا سيدى إذا أردت أن يحترمك الأطفال والخدم .

فقال له چوليان :

— معذرة يا سيدى ، فإن الحلة الجديدة تضايقنى فما كنت ألبس

من قبل إلا ملابس الفلاحين الفقراء .. أتسمح لى بالذهاب إلى غرفتى لأغلق علىّ الباب ؟.

وانصرف فسأل العمدة زوجه :

— ماذا ترين فى هذا الكسب الجديد ؟ فأشارت إليه إشارة أملتها عليها الغريزة ، دون أن تفطن ، ثم أخفت الحقيقة عن زوجها حين قالت :

— لست متحمسة مثلك لهذا الشاب الريفى ، وإن مباداتك إياه بالبشاشة والكرم ستخلق منه شخصاً سيئ الخلق تضطرّ إلى طرده قبل أن يمضى على إقامته معنا شهر واحد .

— حسناً ! سنرى ما تقولين ، وإذا تحقق ظنك فلن أخسر فى هذه التجربة إلا مائة فرنك فقط ، على أن فريير ستعتاد أن ترى أطفال السيد دى رينال مع معلم خاص بهم . وهذا الغرض الذى أرمى إليه لا يتحقق إن تركت چوليان فى ملابس العمال . وإذا طردته ، فسآخذ ، ولا شك ، الحلة السوداء الجديدة التى اشتريتها له من تاجر الصوف ؛ ولن أترك له إلا ما وجدته عند الحائك وهو ما يلبسه الآن .

خيّل إلى مدام دى رينال أن الساعة التى قضاها چوليان فى غرفته دهراً طويلا ، لأنّ أطفالها الذين علموا بقدوم معلمهم الجديد أرهقوها بوابل من الأسئلة ؛ وأخيراً ظهر چوليان ، فكان رجلا آخر ، لم يكن رزيناً فحسب وإنما كان الرزانة بعينها . وقدّم إلى الأطفال فتحدث إليهم حديثاً أذهل السيد دى رينال نفسه . وقبل أن يفرغ من حديثه قال لهم :

— لقد جئت إليكم لأعلمكم اللغة اللاتينية . وأنتم تعلمون ، ولا شك ، كيف يُلقى الإنسان درساً حفظه ـ أستمع غالباً إلى دروسكم فاستمعوا الآن إلى درسى . هذا الكتاب الصغير الأسود هو الكتاب المقدّس الذى يتحدث عن حياة سيدنا عيسى . إنه الجزء من الإنجيل الذى يسمّى العهد الجديد .

ثم أعطى الكتاب أدولف أكبر الأولاد سناً وقال له :

— افتح الكتاب فى أى مكان ، وقلْ لى الكلمة الأولى فى أى جزء من الأجزاء ، وسأتلو عليك ما تشاء مما حفظت من هذا الكتاب المقدس الذى يعد مثلنا الأعلى فى الحياة ، وسأقرأ حتى تكتفى بما أقرأ .

ففتح أودلف صفحة ثم قرأ كلمة ، وأخذ چوليان يتلو حتى انتهى من الصفحة كلّها فى يسر كبير ، كما لو كان يتحدث بالفرنسيّة . عندئذ ألقى دى رينال على زوجه نظرة اغتباط وفوز ، ورأى الأطفال حيرة أبويهم فذهلوا كذلك . ووقف خادم بباب الصالون ، فسمع چوليان يتحدث باللاتينة ، فأنصت لا يبدى حراكا ، ثم غاب عن الأبصار ؛ ثم جاءت بعد قليل وصيفة مدام دى رينال والطاهية ، ووقفتا بالباب .

وكان أدولف حينذاك قد فتح الكتاب فى ثمانية مواضع مختلفة ، وچوليان يتلو كما بدأ فى سهولة ويسر ، عندئذ صاحت الطاهية فى صوت مسموع :

— آه ! يا إلهى ! يا له من قسّ ورع جميل !

سُرّ السيد دى رينال ، إلا أن كرامته قد جرحت ، فأخذ يبحث فى ذاكرته عن بضع كلمات لاتينية ، غير مبتغ أن يمتحن معلّم أولاده ،

وأخيراً استطاع أن يتذكر بيتاً من شعر هوراس فأنشده . وعندئذ قطّب چوليان حاجبيه ، لأنه كان لا يعرف إلا لاتينية إنجيله ثم قال :

— لقد حرّم عليّ الكهنوت أن أقرأ شعر هذا الشاعر الدينوى الدّنس .

وأنشد السيد دى رينال مرّة أخرى لهوراس ، ثم تحدّث عنه لأطفاله ؛ لكنّ إعجابهم بچوليان كان بالغاً فلم يلتفتوا إلى ما يقوله أبوهم ، ولم يحولوا نظراتهم عن معلمهم الجديد .

كان الخدم لا يزالون واقفين بالباب ، فأراد چوليان أن يؤثر فى نفوسهم تأثيراً عميقاً لينال إعجابهم أكثر مما فعل ، فقال لأصغر الأطفال .

— يجب أن تقرأ كلمة من هذا الكتاب لأتلو عليك بعض الفقرات .

فازداد زهو ستانيسلاس كزافييه ، وعالج قراءة كلمة حتى أفلح بقدر ما استطاع ، فتلا چوليان صفحة كاملة . وكان انتصار السيد دى رينال كبيراً حين دخل عليه فى تلك اللحظة السيد ڤالنو صاحب الجياد النورماندية ، والسيد شاركودى موچيرون وكيل حاكم المقاطعة ، فسمعا چوليان وهو يتلو الإنجيل عن ظهر قلب ، فاستحق المعلم عن جدارة لقب سيد ، ولم يجرؤ الخدم أن يضنوا عليه به .

وفى المساء أقبل كثير من أهل ڤرييير إلى منزل السيد دى رينال ليروا بأنفسهم هذه المعجزة الخارقة ، فكان چوليان يجيب عن أسئلتهم فى إيجاز واعتزاز كبيرين . وسرعان ما أخذ الناس يتحدثون عنه فى المدينة

كلها حتى ذاع صيته ، وحتى خشى السيد دى رينال أن يختطفه أحد الأغنياء ، فاقترح عليه أن يوقع عقداً بعامين ، إلاّ أن چوليان قال فى فتور :

— لا يا سيدى ، لو أحببت أن تطردنى لخرجت على الرغم منى ، فالعقد الذى يقيّدنى دون أن يقيدك بشىء عقد جائر لا أوافق عليه .

ولم يكد يمضى شهر على إقامة چوليان عند العمدة ، حتى أصبح يتمتع منه باحترام كبير ، لأنه كان يؤدى واجبه على أكمل وجه . وفسد الأمر بين القسيس الشيخ و بين دى رينال وڤالنو ، فلم يعد چوليان يخشى من افتضاح سرّه القديم ، وهو تحمسه لنابليون ، الذى أصبح يتحدث عنه الآن بكل كُره وازدراء .

الفصل السابع

التقارب المعيشي

[لا يستطيع النـاس أن يمسوا القلوب مساً رقيقاً دون أن تصيبها أيديهم بسوء] . كاتب حديث

أحبّ الأطفال معلمهم حبّاً شديداً ، أما هو فلم يحبهم لأنه مشغول عنهم بأشياء أخرى . على أنه لا يضجر أبداً مما يفعلون . كان مرناً عادلا ، ثبت الجنان ، محبوباً ، لأن إقامته فى منزل دى رينال خلقت له لوناً من البهجة لم يعتده من قبل ، وفوق ذلك كله ، كان معلماً ناجحاً . غير أنه كان يشعر فى حياته الجديدة بالكراهية والاحتقار لتلك الطبقة التى يسمونها الطبقة الراقية . كان يجلس إلى الطرف الأسفل من المائدة ؛ وربّما كان هذا سبب بما فى نفسه من كره لهم . تقام فى المنزل حفلات ، يقدم فيها الطعام تظاهراً وفخراً ، فيبذل جوليان جهداً كبيراً ليكبت كراهيته للحاضرين جميعاً . وحدث أن كان السيد ڤالنو يلعب النرد مع السيد دى رينال ، فى يوم القديس لويس ، وهو يوم من الأيام الكثيرة التى يتردد فيها ڤالنو على منزل العمدة ، فكاد يفتضح أمر جوليان فى ذلك اليوم ، لولا أن فرّ إلى الحديقة بحجة أن يرى الأطفال . وأخذ يحدث نفسه : يا له من ثناء مستطاب ، يسمعه المرء فيظن العمدة الفضيلة بعينها ! وهو لا يعدو أن يكون تبجيلا وضيعاً واحتراماً رخيصاً ! لأن ذلك الرجل

قد ضاعف ثروته أو زادها إلى ثلاثة أمثالها منذ أن بدأ يشرف على أموال الفقراء ! وأنا لا أشك فى أن يده تمتد إلى أموال اللقطاء[١] الذين هم فى أشد الحاجة إلى المعونة والإحسان ! آه ! يا لهم من وحوش ! تبًّا لهم من قساة جشعين! وأنا من أكون ؟ إننى لقيط أيضاً ، لأن أبى و إخوتى وأسرتى يكرهوننى!

كان چوليان قبل يوم القديس لويس ببضعة أيام يتنزه وحده فى غابة صغيرة يسمونها بلڤيدير (المنظر الجميل) ، مطلّة على ممرّ الإخلاص و يقرأ فى كتاب الصلوات ، فرأى على بعدٍ أخويه مقبلين ، ولم يتمكن من أن يبتعد عن طريقهما ، حتى لاقياه ، فكانت غيرة هذين العاملين الفظين من أخيهما شديدة لا تحتمل ، لأنه نظيف فى ملابسه الجميلة السوداء ، وهو ينظر إليهما في ازدراء شديد . من أجل ذلك انهالا عليه ضرباً ، ولم يتركاه إلا مغشيّا عليه ، تسيل منه الدماء .

و بعد قليل ، مرت مدام دى رينال تتنزه مع ڤالنو ونائب الحاكم فى هذه الغابة الصغيرة ، فارتاعت كثيراً حين رأته ممدداً على الأرض ، وظنت أنه فارق الحياة . وقد بعث خوفها عليه غيرة شديدة فى نفس ڤالنو . وهكذا ارتاع ڤالنو قبل الأوان ، مع أن چوليان كان يرى مدام دى رينال رائعة الجمال ، و يكرهها لروعة جمالها . وهذه هى الصخرة الأولى التى كادت تصطدم بها مشروعاته فى سبيل الحياة والثروة . كان لا يتحدث إليها إلا قليلا ، حتى ينسيها ماأقدم عليه من تقبيل يدها فى أول يوم قدم إلى منزلها .

(١) فى نسخة مخطوطة كتب (ستندال) عبارة توضح فكرته فقد أضاف قائلا : « كانوا يسرقون أربعة ملايين من الفرنكات باسم الأطفال اللقطاء » . « المعرب ».

أما إليزا وصيفة مدام دى رينال فقد أحبت هذا المعلم الشاب ، وكثيراً ما كانت تتحدث عنه إلى مولاتها ، وقد سبب حبها هذا كراهة أحد الخدم لجوليان ، الذى سمع الخادم يتحدث إلى إليزا قائلا :

— لم تعودى ترغبين فى التحدث إلىّ ، بعد أن وفد علينا هذا المعلم القذر . ولم يكن جوليان فى الواقع يستحق هذه الإهانة . إلا أن شعوره بجماله جعله يضاعف العناية بهذه الوصيفة . وأصبح ڤالنو كذلك يكرهه كثيراً . وطالما أعلن على الملأ أنّ الحرص على أناقة الملبس لا تتفق مع الروح الدينية التى يبغيها هذا الشماس الشاب . وكان جوليان يلبس حلة تقارب ثياب الكهنة .

لحظت مدام دى رينال أنّ جوليان يطيل الحديث فى كثير من الحالات مع إليزا ، ثم أعلمت بعد ذلك أنّ هذه الأحاديث الطويلة كانت لحاجته الشديدة إلى الملابس . لقد كان قليل الثياب ، ولذلك كان يضطر غالباً إلى غسلها خارج المنزل ، ومن يقوم له بهذا العمل الجليل غير إليزا ؟!

وفاضت نفس مدام دى رينال بالعطف عليه لمّا عرفت فقره المدقع ، وودّت لو قدمت إليه بعض الهدايا ، ولكن كيف السبيل ؟ واعتركت فى صدرها عوامل تتصارع ، نشأ منها أوّلُ ألم سبّبه لها جوليان . وكان من قبل ، مرادفاً عندها لمعنى السرور البرىء واللذة العقلية . وألح عليها الأمر وضايقها ما فيه جوليان من فقر شديد ، ففاتحت زوجها وطلبت منه أن يقدم إلى المعلم بعض ثياب على سبيل الهدية . فما كان جوابه إلا أن قال :

— إنّ من الغفلة أن نقدم هدية إلى رجل يفنى فى عمله ، ولا نرى

منه إلا الإخلاص والغيرة ! لن نقدم إليه شيئاً إلا حين يفتر نشاطه فيكون هذا بمثابة حافز له على العمل .

فغضبت واشمأزت من طريقة تفكيره التى لم تدركها قبل أن يعيش معهم چوليان ؛ وأصبحت كلما رأت نظافة ثيابه البسيطة لا تتمالك أن تسائل نفسها : ماذا عسى أن يفعله ذلك الشاب المسكين ، وكيف يعيش بهذا المال القليل ؟ أصبحت تشفق عليه شيئاً فشيئاً وتأسى لفقره ، لا تتضايق منه ولا تستاء .

إن مدام دى رينال من أولئك اللائى يعشن فى الريف ، ويحسب من يخالطهن فى الخمسة عشر يوماً الأولى أنهن على شىء من الغفلة .

كانت قليلة التجارب بأمور الحياة ، ولا تعبأ إذا لزمت الصمت ؛ نفسها رقيقة تترفع عن الدنايا ولا تأبه كثيراً بما يقترفه أصدقاء المصادفة من سخافات ، فتمتعت بقدر طبيعى من السعادة يتمتع به الناس جميعاً .

ولو أنها أوتيت حظا يسيراً من التعليم لصقلت نفسها القوية وسجاياها الطبيعية ، ولكنها كانت وريثة ثروة ، فتلقت تعليمها فى دير القلب المقدس للمسيح على أيدى راهبات قانتات متعصبات ، يكرهن الفرنسيين المناوئين لليسوعيين كراهية شديدة . وعلى الرغم من كل ذلك فقد نسيت ما تعلمته فى ذلك الدير . وهدتها سلامة ذوقها إلى أن هذا النوع من التعليم هراء لا طائل تحته . نسيت التعليم القديم ولم تتلق جديداً فأصبحت لا تعرف شيئاً . وكانت منذ شبابها مدللة تسمع الكثير من المدح والثناء ، لأنها ترث ثروة طائلة ، لكنها بفطرتها كانت شديدة التقى والإيمان ،

فاختطت نهجاً جديداً فى الحياة : انطوت على نفسها ، ودلت كل الظواهر على أنها مطيعة إلى أبعد حدّ ، تفنى إرادتها فى إرادة زوجها ، فضرب الأزواج فى ڤرييرلزوجاتهم بسلوكها الأمثال . وكان هذا ولا شك ، مبعث زهو السيد دى رينال . ثم هى ، على الرغم من ذلك كلّه ، ذات نفس كثيراً ما يغزوها الكبر وتستولى عليها العظمة . وكانت هذه الأميرة المتكبرة تهتم بما يقوله لها السادة الذين يحومون حولها وتنتبه إليه ، وتعيه أكثر مما تعى تلك الزوجة الرقيقة المتواضعة فى الظاهر ما يقوله لها زوجها أو ما يصدر عنه من أعمال . وقبل أن يدخل چوليان فى حياتها ، لم تكن تهتم حقاً إلاّ بأطفالها ولا تصغى إلاّ إليهم : تُشغل بأمراضهم وأفراحهم وأتراحهم أكثر مما تشغل بأى شىء آخر فى الحياة . ولم تعبد حقاً إلا الله أيام أن كانت فى دير القلب المقدس ببيزانسون .

وإذا أصيب أحد أبنائها بالحمّى ، تألمت له كثيراً كما لو كان قد فارق الحياة . وهى مع كل ذلك لا تقف أحداً من الناس على حقيقة مشاعرها .

درجت مدام دى رينال فى السنوات الأولى من حياتها الزوجية على أن تكاشف زوجها بكل ما يدور فى نفسها من مخاوف على أبنائها . وكانت إجاباته دائماً على نمط واحد ؛ يضحك ضحكة خشنة أو يهز كتفيه ، ثم يقول بعض عبارات مرذولة عمّا يسميه جنون النساء حين يشفقن على أبنائهن . فتزيد هذه الدعابات الثقيلة ألمها حين تصدر من زوجها وأحد أبنائها مريض . وهذا هو لون المعاملة التى لقيته فى حياتها الزوجية ، بعد

أن اعتادت الإطراء العذب والثناء المعسول فى دير اليسوعيين الذى قضت شبابها فيه .

كان تعليمها مطبوعاً بطابع الألم ، وعزة نفسها لا تسمح لها بأن تبوح بألمها حتى إلى صديقتها مدام درڤيل ، وظنت أن جميع الرجال يشبهون زوجها أو السيدين ڤالنو وشاركودى موچيرون نائب الحاكم ، أولئك الذين لايصدر عنهم إلا الفظاظة والغلظة والوحشية فى كل ما لا يدرّ عليهم مالا أو يعطيهم حق الصدارة أو يجلب لهم وساماً . وكانوا يكرهون كثيراً من يخالفهم فى الرأى ، فأصبحت مدام دى رينال تعتقد أن هذه صفات لازمة للرجال جميعاً ، ضرورية لهم كالأحذية والقبعات الصوفية تماماً .

وعاشت مدام دى رينال سنوات طويلة مع عَبَدة المال . قضت عليها الحياة أن تعيش مع أشخاصهم ، لكنها عاشت بمنأى عن أخلاقهم .

وكان هذا سرّ النجاح الذى لقيه چوليان الشاب الريفى حين بدأ يعيش فى منزلها ، فقد أخذت مدام دى رينال تحس لوناً جديداً من الحياة ، فيه كثير من الظرف واللذة .

رأت نفساً شريفة عزيزة فشعرت نحوه بميل لم تعهده من قبل . وسرعان ما اغتفرت له جهله بكثير من الأشياء ، وأصبح جهله فى نظرها بعد ذلك مبعث ظرف ومثار إعجاب . ثم استطاعت أن تقوّم من حركاته الخشنة الفجائية . وقد وجدت لذّة فى الاستماع إليه ، ولو تناول الحديث أشياء عادية تافهة كمقتل كلب تحت عربة فلاح كانت تسير بسرعة . كان هذا المنظر المؤلم لا يثير فى زوجها إلا قهقهة عالية ، أما چوليان فكان

حاجباه الأسودان الجميلان ينقبضان فى تأثر وحزن . ومرّت الأيام ، فأصبحت مدام دى رينال تعتقد أن شرف النفس والمشاعر الإنسانية وكرم الأخلاق لا محلّ لها إلا عند هذا الشاب الريفى ، فزاد إعجابها به وأصبح محببا إلى نفسها بقدر ما تخلق هذه الفضائل من قوة فى النفوس الكريمة .

ولو أنهما كانا يعيشان معاً فى باريس ، لكان سلوك جوليان نحوها سهلا واضحاً لا تعقيد فيه ، لأن الحب فى باريس وليد القصص . وإذاً لوجد هذا المعلم الشاب فى تلك القصص الخطة التى ينبغى له أن يتبعها مع سيدة طبعت على الخجل ؛ نعم لو كانا يعيشان فى باريس لرسمت لهما الروايات أو بعض أشعار جيمناز الدور الذى يقوم به كلّ منهما ، ولرسمت للشاب المثل الذى يحتذيه ، والطريق الذى يترسمه ، وإن خلا من سرور ، فإن كبرياءه تفرض عليه أن يمضى فيه مهما يجد من عنت وصدّ .

أمّا فى المدن الصغيرة من مقاطعتى أفيرون أو البرانس ، فإن أقلّ حدث يؤدى إلى النتيجة الأخيرة بفضل شدة الحرارة هناك . وأمّا فى المدن التى تظلها الغيوم وتحجب سماءها السّحب ، فإن الأمور تسير فيها فى هوادة وبطء . ونحن هنا نرى شابا فقيرا طموحا ، دفعته رقة نفسه إلى أن يبحث عن المال ليحقق بعض لذّات لا تتاح إلا لذوى الثراء ، ويقع بصر هذا الشاب كلّ يوم على امرأة فى الثلاثين من عمرها ، وهى حقّاً عفيفة شريفة مشغولة بأطفالها ، ولا تحاول أبدا أن تتخذ من نماذج القصص مثلا تحتذيها فى حياتها . وفى الريف تتمّ الأمور رويدا رويدا

وتسير الهوينا ، وهذا يجعلها دائما أميل إلى طبيعة الأشياء .

كانت مدام دى رينال حينما تفكر فى فقر هـذا المعلم تأخذها عليه الشفقة ، حتى تسيل من عينيها الدموع . وباغتها جوليان يوما وهى تبكى فقال لها :

— ماذا بك ياسيدتى ؟ أأنت حزينة من شىء ؟

— لا يا صديقى ، أرجوك أن تستدعى الأطفال ، وهيا بنا نتنزه .

واستندت إلى ذراعه ، وضغطت عليه بصورة لم يعتدها من قبل ، فعجب وبخاصة لأنها قالت له لأول مرة : يا صديقى .

ولمّا كادوا يفرغون من نزهتهم ، رأى جوليان وجهها وقدصبغته حمرة شديدة ، ورآها تبطىء فى سيرها وتتحدث إليه دون أن تنظر إلى وجهه وتقول :

— لعلّك سمعت قبل ذلك أننى الوريثة الوحيدة لعمة ذات ثراء واسع تعيش فى بيزانسون ، وهى تغدق علىّ عطايا كثيرة . وقد تقدم أولادى تقدّما كبيرا ، ومن أجل ذلك أرجو أن تتقبل منى هدية صغيرة تدل على اعترافى بفضلك . إنه مبلغ زهيد أعرضه عليك لتشترى به ملابس لنفسك ، ولـكن . . . .

ثم سكتت وزاد وجهها احمراراً فقال جوليان :

— ولـكن ماذا يا سيدتى ؟ فطأطأت رأسها قائلة :

— يحسن بك ألاّ تتحدث إلى زوجى عن هذا .

فأجابها وقد توقف عن المسير ، والغضب يبدو فى عينيه ، وهو تحت سيطرة الكبرياء :

— أنا فقير يا سيدتي ولكنني لست وضيعا ، ويخيل إلىّ أنك لم تدركي ذلك من قبل . ولو أخفيت عن زوجك شيئا يتعلق بالمال ، لكنت بذلك كأقل خادم في منزلكم .

فحزنت مدام دى رينال ولكنّ جوليان واصل حديثه :

— إنّ سيدى العمدة أعطانى منذ عشت معكم خمس مرات مبلغ ستة وثلاثين فرنكا ، وأنا على أتم استعداد لأن أطلع العمدة على الكراسة التى أقيد فيها نفقاتى كلها ، أطلعه هو أو من يشاء من الناس حتى ولو كان السيد ڤالنو ، الذى أعلم أنه مغيظ منى حانق علىّ !

وانتهت النزهة دون أن يستطيع أحدهما التحدث إلى الآخر أو أن يجد إلى الكلام سبيلا .

وظلت مدام دى رينال بعدها مضطربة شاحبة الوجه ؛ وأوحى إلى جوليان قلبه المتكبر أنه لن يستطيع التعلّق بحب هذه السيدة ؛ وأمّا هى فقد احترمته وأكبرته وأعجبت به ، وأخذت تؤنب نفسها على ما فعلت . ثم أرادت أن تصلح خطأها الذى جرحت به شعور صديقها دون أن تقصد ، فأقبلت عليه تعنى به عناية شديدة فى رقّة وعطف ، ووجدت فى ذلك لذة كبيرة ، وشعرت بسعادة لا حدّ لها ثمانية أيام كوامل ، واستطاعت أن تهدىء بعض الشىء من ثورة صديقها الذى ما كان يرى فى عنايتها به إلاّ أنها تخضع لما تمليه عليها طبيعتها . وطالما حدّث نفسه قائلا : هذه عادة الأغنياء ، يزدرون الناس ثم يظنّون بعد ذلك أنهم يصلحون كلّ شىء بما يأتونه من أعمال تافهة !

فاضت نفس مدام دى رينال — وكانت تؤمن بأنها خالصة النية حين اقترحت على جوليان أن يتقبّل منها هدية يسيرة — فلم تستطع أن تخفى عن زوجها ما دار بينها و بين المعلم من حديث ، فعجب زوجها ثم قال كمن جرحت كبرياؤه :

— وكيف استطعت أن تسمحى لخادم بأن يرفض لك طلبا ؟

فصاحت فى دهشة كبيرة ، قال لها العمدة على إثرها :

— إننى أتحدث إليك ياسيدتى كما تحدّث الأمير كونديه إلى زوجه الجديدة وهو يقدم لها حجّابه إذا قال لها : « هؤلاء الناس جميعاً خدمنا » ولقد قرأت عليك هذه الفقرة من مذكرات بيزنقال ، وهى فقرة لا ينبغى لنا أن ننساها وهو يقول :

« كل من لا ينتمى إلى طبقة الأشراف ، ويعيش فى منزلك ويتلقّى منك أجرا يعدّ خادما لك » سأتحدث إلى هذا السيد جوليان ثم أعطيه بعد ذلك مائة فرنك .

فاضطربت مدام دى رينال اضطرابا شديدا ثم قالت :

— آه ياصديقى! أرجو ألاّ يكون هذا على مرأى ومسمع من الخدم !.

فأجابها وهو يغادرها مفكراً فى جسامة المبلغ :

— أنت على صواب، فربما دبّ فى نفوسهم الحسد، ويحقّ لهم أن يحسدوه.

ولم يكد السيّد دى رينال يغادر الغرفة حتى سقطت زوجه فوق كرسى ، وكاد الألم يفقدها رشدها ، ثم أخذت تحدث نفسها قائلة :

— هأنذا سأكون سبباً فى جرح كبرياء جوليان مرة أخرى ! وكرهت

زوجها فى هذه اللحظة أشدّ الكراهية ، ثم أخفت وجهها بين يديها ، وأخذت على نفسها ألاّ تتحدث إليه بعد ذلك بما يجول فى نفسها من خواطر ، أو ما تكنّه فى قلبها من أسرار . وحينما رأت چوليان ، كانت لا تزال شديدة الاضطراب ، قد استولى الجزع على نفسها فلم تستطع أن تقول له شيئا ، ووقعت فى حرج شديد فأخذت يديه بين يديها وضغطت عليهما قائلة :

— حسنا يا صديقى ، أأنت مسرور بما فعل زوجى ؟ فابتسم ابتسامة مرّة ثم قال :

— ولم لا وقد أعطانى مائة فرنك ؟ فنظرت إليه نظرة المرتاب ، ثم تشجّعت وقالت :

— هات ذراعك يا صديقى . فدهش لأنه لم ير فيها من قبل هذه الشجاعة . لقد أقدمت مدام دى رينال على الذهاب لأول مرة فى حياتها إلى صاحب مكتبة ڤريير ، وهو رجل سيىء السمعة فى البلد كلها لأنه من الأحرار ؛ ذهبت إليه واشترت منه كتبا دفعت فيها عشر لويسات ، ثم وزعتها على أبنائها . وطلبت إلى كلّ منهم أن يكتب اسمه على الكتب التى تخصّه قبل أن يغادروا المكتبة ، على حين كانت تعلم أنّ چوليان يودّ لو استطاع قراءة هذه الكتب . فعلت ذلك وكانت سعيدة بما فعلت ، لأنها اعتقدت أنها أصلحت بعض الخطأ الذى وقعت فيه . كلّ ذلك وچوليان ينظر فى دهشة كبيرة إلى الكتب الكثيرة المكدّسة فى هذه المكتبة . ولم يكن يفكّر مطلقا فى أن تطأ قدماه هذا المكان الدنس ،

فاضطرب قلبه ، ولم يشعر بما كان يشغل نفس مدام دى رينال ، لأنّ ذهنه محصور فى معرفة الطريقة التى يستطيع بها طالب اللاهوت الحصول على بعض الكتب التى يراها أمامه . وأخيرا خطر له أن يستعمل المهارة مع السيد دى رينال فيقنعه بأن أبناءه فى حاجة إلى معرفة تاريخ مشاهير الرجال ذوى المحتد الكريم ممن ولدوا فى الريف . فكرّ فى هذه المحاولة ، وحدّث بها العمدة شهرا كاملا ، حتى انتزع منه الموافقة انتزاعا ؛ ونجح مشروعه نجاحا باهرا ، فتمكّن بعد قليل من أن يحمل دى رينال على الاشتراك فى مكتبة هذا الرجل الذى عرف بميول واتجاهات تخالف ما فطر عليه عمدة ڤريير الذى يساهم الآن بنصيب فى جلب الثروة لمناهض له فى المبادىء . ثم وافق على أنّه من الحكمة أن يطلع ابنه الأكبر على كثير من الكتب التى سيسمع اسمها حين يدخل المدرسة الحربية ، لكنّه لم يوافق على أكثر من ذلك ، ففطن چوليان إلى أنّ هناك أمرا لم يستطع أن يدرك كنهه .

وذات يوم قال للعمدة :

— يخيل إلىّ يا سيدى أنه لا يليق بكرامة فرد من أسرة دى رينال أن يكتب اسمه فى هذا السجل القذر، سجلّ المكتبة . فضحكت لذلك أسارير العمدة ، على حين استطرد چوليان فى ضراعة وخشوع : كما أنّه لا يليق أن يكتب اسم طالب فقير فى علم اللاهوت فى هذا السجل ، فهذا يشينه ، ولو اكتشف الأحرار اسمى فى دفتر رجل يؤجّر الكتب لاتهمونى بأنى كنت أستعير الكتب المخلة بالكرامة والشرف ؛ وربّما ذهبوا إلى أبعد

من هذا ، فكتبوا عناوين هذه الكتب اللعينة أمام اسمى . وحمل هذا الاستطراد چوليان على أن يبتعد عمّا كان يرمى إليه . فقطّب العمدة وجهه من جديد ، و بدأ الشك يساوره ، فسكت چوليان ولم يشأ المضىّ فى حديثه ، لكنه قال فى نفسه : إننى لقدير على أن أوجّه هذا الرجل إلى حيث أريد .

ومضت أيام ، فسأل الولد الأكبر معلّمه فى حضرة أبيه عن كتاب أعلن عنه فى صحيفة أخبار اليوم فقال چوليان مخاطبا الأب :

— لكى نتخلّص من مضايقات اليعقوبيين ، ولا نتيح لهم أن ينتصروا علينا ، أرى أن نكل إلى أقلّ رجالك شأنا أمر الاشتراك فى المكتبة ، فتصبح بين يدى المراجع التى أعتمد عليها فى الإجابة عن أسئلة مسيو أودانى . فسرّ العمدة بذلك سرورا كبيرا ثم قال :

— لا بأس بهذا الرأى . فاصطبغ وجه چوليان بوقار لا يخلو من ذلة ومسكنة تلائم الذين يحققون بعد لأى ماتصبو إليه نفوسهم ، ثم قال :

— على أنه يجب أن نتخيرّ الكتب ، فينبغى للخادم ألاّ يحضر الروايات ، لأنها نوع خطر يفسد أخلاق بنات سيدتى وأخلاق الخدم أنفسهم . فقال له العمدة فى عظمة وكبرياء :

— ولا تنس أيضا الرسائل السياسية . وكان الأب يرمى من وراء هذا ألاّ يبدى إعجابه بالآراء التى تصدر عن معلم أولاده . وكذلك أصبحت حياة چوليان سلسلة من مفاوضات هيّنة كتب له التوفيق فيها ، فشغله النجاح عن أن يقرأ فى قلب مدام دى رينال ما سُطّر له فيه من عواطف حب و إجلال و إعجاب لا يستطيع أن يقرأها سواه .

وتجدّد فى نفسه شعور قديم فطر عليه : كان يكره عمدة ڤرييرولو أنه مقيم فى منزله ، مشرف على تعليم أولاده . ومثله فى هــذا هو مثله فى الفترة التى أقامها فى مصنع أبيه يكره والده وأخويه وهم كذلك يكرهونه. وكان كلّ يوم يسمع قصصاً وآراء مختلفة يرويها العمدة والسيد ڤالنو ونائب الحاكم وغيرهم ممن يترددون على منزل دى رينال ، فيراها مغايرة للحقيقة كلّ المغايرة ، لأنّ ما يتحدثون عنه وقع تحت سمعه وبصره .

وإذا أعجب هو بشىء خالفوه ، وصبّوا اللعنات على ما أعجب به ، ولم يكن يردّ على كل ذلك إلاّ بصيحة داخلية تتردد فى نفسه : يالهم من حمقى ويالهم من شياطين !.. والغريب فى أمره أنه لم يكن يستطيع أن يدرك بدقة كثيرا مما يدور حوله الحديث ، على الرغم مما فطر عليه من عزة وكبرياء . لم يعتد من قبل أن يتحدث فى صراحة إلاّ مع الجراح العجوز ، فكانت الآراء القليلة التى يعرفها لا تعدو بعض معلومات عن حروب ناپليون فى إيطاليا ، أو معلومات عن الجراحة . فكان يتحدّث عن العمليات الخطيرة مطنباً ، كما يتحدّث شاب تدفعه شجاعته إلى أن ينزع الخوف من قلبه .

وبدا لمدام دى رينال يوما أن تتحدّث إليه فى أشياء لا تتعلّق بتعليم الأطفال ، فحدّثها عن العمليات الجراحية ، فاصفرّ لونها ورجته ألاّ يمضى فى حديثه .

كان هذا هو اللون الوحيد الذى يحسن چوليان التحدث عنه ، من أجل ذلك كان يسود صمت طويل كلّما جلس إلى مدام دى رينال . أمّا إذا جلس مع غيره من الرجال فى الصالون ، فإن السيدة كانت ترى فى نظراته

سموّا عقليا لا يتاح لغيره من الحاضرين على الرغم من حقارة مظهره . . . وعلى نقيض ذلك إذا خلت به فى أى مكان ، فإنها تحسّ اضطرابا شديدا يخالج نفسه ، فتقلق لذلك لأنّ غريزتها النسوية أوحت إليها أنّ اضطرابه لا تبعثه فيه عاطفة رقيقة .

ولا تزال فى ذهن جوليان فكرة تردّدها الطبقة الراقية ، وعلمها من صديقه الجراح العجوز ، هى أنه إذا اجتمع رجل وامرأة وساد بينهما الصمت ، كان الذنب فى ذلك ذنب الرجل وحده . فلحق جوليان من ذلك خزىٌ شديد تزايد إحساسه به كلّما انفرد بمدام دى رينال .

وعلى الرغم من خياله الخصب الذى كان يمدّه بآراء مبالغ فيها ، ذات طابع فكرىّ أسبانى ، يستطيع الرجل أن يقولها لسيدة حين ينفرد بها ، على الرغم من كل هذا كان لا يجد شيئاً يقوله لمدام دى رينال إلا بعض آراء تافهة . كانت نفسه دائمة التحليق ، ولكن لسانه لا يجد ما يقول . وهو لذلك دائم العبوس فى النزهات الطويلة التى يقضيها معها ومع أطفالها. كان فريسة لآلام نفسية شديدة زادته عبوسا وتقطيبا . فاحتقر نفسه لذلك ؛ وإذا واتته الشجاعة وقال لها شيئاً جاء غثاً تافها .

ومما زاد الطين بلّة حساسيته التى تريه تفاهته وتغالى له فيها ، حتى نسى جوليان وجهل تماما أن له نظرات قوية تبعثها عينان جميلتان ، نظرات توحى بمعان سامية تغنى بها النفس ، هى كنظرات البارعين من الممثلين تضفى فى بعض الأحيان جمالا على ما لا جمال فيه .

ولحظت مدام دى رينال أنه لا يُحسن الكلام ، إذا انفردت به ،

إلاّ إذا كان ذهنه منصرفاً للتفكير فى شىء آخر ، فهو لا يحاول أن يزين حديثه ليثنى عليها ؛ ولم يعتد المترددون على منزلها من الرجال أن يتحببوا إليها بما يُسمعونها من آراء جديدة طريفة ، ولذلك كانت تستمع فى لذة كبيرة بخواطر چوليان السريعة التى كان يبديها .

ومنذ أن سقط ناپليون ، أختفت جميع مظاهر الظرف والرقة من أخلاق الناس فى الريف ، وخشى كلّ إنسان أن يفتضح أمره إذا هو تظرف . ووجد الخبثاء دعامة قوية فى جمعيات المؤاخاة ، وصادف النفاق مرتعاً خصبا فى جميع الطبقات والأحزاب ، واستطاع كذلك أن يشقّ طريقه بين صفوف الأحرار . وعمّ الناس سأم ، وانحصرت لذّاتهم فى القراءة والزراعة .

نشأت مدام دى رينال غنية بفضل ميراث تركته لها عمة تقية ، فتزوجت فى السادسة عشرة من عمرها بسيّد من سادات قومه ، من أجل ذلك لم تر فى حياتها ولم تحس إطلاقا ما يسمونه الحب ، اللّهم إلا ما كانت تسمعه عنه من فم القسّ الورع الأب شيلان ، حين كان يحدّثها عنه وهى تعترف له بمضايقات السيد ڤالنو لها — وكان القس يصوّر الحبّ لها فى صورة كريهة ، حتى أصبح اسمه يرادف فى نفسها معنى الإباحية والانحلال .

أما ما قرأته عن الحبّ فى روايات قليلة وقعت بين يديها ، فقد كان فى نظرها شيئا خارقا للعادة ، لا وجود له فى حياة الإنسان . وكانت سعيدة كل السعادة بجهلها ، ولم تجد فى نفسها لوماً أو عتابا لعنايتها الشديدة بچوليان.

الفصل الثامن

حوادث صغيرة

حينذاك كانت هناك تنهدات زادها الإخفاء عمقاً ، ونظرات مختلسة زادها الاختلاس حلاوة ، واحمرار خجل ملتهب من غير ما خطيئة .
[دون جوان : الفصل الأول ، فقرة ٧٤]

لمدام دى رينال ظرف ملائكى مستمدّ من خلقها وسعادتها فى حياتها الحاضرة ، يلازمها دائماً إلاّ إذا فكّرت فى وصيفتها إليزا . كانت هذه الفتاة قد ورثت بعض المال ، فذهبت إلى القس شيلان ، واعترفت بأنها تريد أن تتزوج چوليان ؛ فشعر القس بلذة لما توقعه من سعادة لصديقه الشاب ؛ لكنه كاد يصعق حين أخبره چوليان فى إصرار بأنه لا يقرّ مشروع إليزا فقطب القسيس حاجبيه وقال :

— كن على حذر يا بنىّ مما يدور الآن فى نفسك ؛ ولا يسعنى إلاّ أن أهنئك بتقواك ، إذا كان الورع وحده هو الذى حملك على رفض ثروة كهذه تعدّ ثروة كبيرة . ولقد مضى علىّ الآن ست وخمسون سنة وأنا قسّ فرييرِ ، والقرائن كلها تدلّ على أنى سأعزل من هذا المنصب عن قريب ، وسيسبب لى فصلى حزناً عميقاً وإن بلغ دخلى فى العام ثمانمائة فرنك . أقول لك هذا لتحتاط لأمرك ، ولكيلا تبنى فى الهواء قصوراً باعتقادك أنك ستكون غنياً إذا صرت قسيساً . أما إذا فكرت فى أن تتملق

العظماء من أولى الأمر ، فثق أنك مضيّع نفسك إلى الأبد . فى مقدورك أن تصبح غنياً ، ولكنّ الوسيلة إلى الغنى هى فى أن تطمع فى أموال الفقراء والمساكين ، وأن تتقرب إلى العمدة ونائب الحاكم وكل ذى سلطان ، وأن تكون طوع بنانهم ، تنزل دائماً عند رغباتهم وشهواتهم ؛ هذا هو الخلق الذى يجوز أن يتّصف به رجل من رجال الدنيا و يسميه : فن معرفة الحياة . وقد لا يتنافى مع مسلكه فى الحياة ، أما نحن ، رجال الدين ، فعلينا أن نختار بين الغنى والجاه فى الدنيا و بين السعادة الأبدية فى الآخرة . أمران لا ثالث لهما ؛ فاذهب الآن يا بنى وفكّر فى الأمر مليًّا ، ثم عُدْ إلىّ بعد ثلاثة أيام لتخبرنى برأيك الأخير . أكاد ألمح فى نفسك لوناً معقّداً من الحماسة يدّلنى على أنك لن تكون قسيساً صالحاً ، معتدلا ، زاهداً فى متاع الدنيا . وأنا كثير التشاؤم من ذكائك ، واسمح لى أن أقول لك فى صراحة وصدق إنك لن تكون قسيساً صالحاً !

قال الكاهن الطيب هذه العبارة الأخيرة والدموع تترقرق فى عينيه .

خجل چوليان من تأثره وضعفه ، فقد رأى نفسه ، لأول مرة فى الحياة ، محبوباً تحاول فتاة أن تفنى فيه ؛ فبكى بكاء الفرح والغبطة ، وهُرع إلى الغابات الواقعة فوق مستوى ڤريير ليخفى هنالك دموعه عن الناس ، ثم أخذ يتحدث إلى نفسه : لماذا أشعر بهذا الاضطراب ؟ إنّى لأحس فى قرارة نفسى أنّى على أتمّ استعداد لأن أضحى حياتى من أجل هذا القس الطيب القلب ، ولو أنه برهن لى منذ لحظة على أننى غرّ أحمق . إنى أحاول أن أخدعه هو من دون الناس جميعاً ، ولكنّ محاولتى لم تخف

عليه . والحماسة التى أخفيها بين جوانحى هى سرى الذى أحرص عليه ، هى رغبتى فى أن أكون غنياً . إنه يعتقد أنى لا أصلح قسيساً ، على حين كنت أظنه يصفنى بالزهد والتقى والصلاح حين أرفض على مسمع منه دخلا يقدّر بخمسين لويساً . تعلمت منه اليوم درساً جديداً هو أننى لا أعتمد فى المستقبل إلاّ على النواحى الخلقية التى خبرتها ، وعلمت بفضله كذلك أنّ فى البكاء راحة ولذة ! لشدّ ما أحببت هذا الرجل الذى دلّنى على حماقة نفسى !

ثم عاد إليه بعد ثلاثة أيام ليجدّد أمامه رفضه زواج أليزا ، وادّعى كذباً أنّها متّهمة فى أخلاقها ، وهى حجة كان ينبغى له أن يتذرع بها فى المرة الأولى . وماذا يضيره لو افترى عليها أمام الكاهن ؟

وقد اعترف له جوليان فى كثير من التردّد بأنه لا يريد أن يخبره بالتفاصيل كلها حتى لا يؤذى شخصاً ثالثاً فى سمعته ، وسلوك إليزا هو الذى حال بينه و بين إجابتها إلى رغبتها . وتبيّن شيلان فى لهجة صديقه الشاب حمية دنيوية شديدة لا يتّصف بها من أعدّ نفسه ليكون من رجال الدين ، فقال له :

— إستمع إلىّ يا صديقى ، خير لك أن تكون رجلا برجوازياً محترماً ومثقفاً من أن تكون قسًّا غير تقى !

فأجاب جوليان على هذا الزجر الجديد إجابة قوية الأسلوب حين واتته كلمات وجيهة تجدر بطالب فى علم اللاهوت يتصف بالحماسة ؛ غير أنّ لهجته كانت تخونه ، والحرارة التى تبدو فى عينيه تخيف الأب شيلان .

ويجب علينا ألاّ نتنبأ لچوليان بالفشل ، لأنه كان يحسن إنتقاء كلماته التى ينطق بها فى نفاق يدل على مراوغة وحذر وفطنة . وهذا ولاشك نجاح بالنسبة إلى سنه الصغيرة ؛ وأما لهجته وحركاته فقد كسبها من معاشرة الريفيين ، لأنه لم تتح له من قبل فرصة يشاهد فيها النماذج الحسنة . ثم إنّه لم يكد يعاشر سادته الجدد حتى تقدّم فى حركاته وأحاديثه تقدّماً عظيما .

عجبت مدام دى رينال حين رأت أن الثروة التى هبطت على وصيفتها لم تسعدها ، بل أصبحت تتردّد على القس كثيراً ، ثم تعود باكية حزينة ، وأخيراً تحدّثت إليزا إلى مولاتها عن أمر زواجها بجوليان . وسمعت مدام دى رينال هذا ، فسرت فى بدنها العلة وانتابتها حمّى حالت بينها وبين النوم ، لأنها لا تستطيع أن تعيش إلا إذاوجدت بجانبها وصيفتها أوچوليان. ولم تتمكن من التفكير فى شىء غير السعادة التى تنتظر الزوجين فى حياتهما الجديدة ، وإن كانا فقيرين لأن دخلهما لا يزيد على خمسين لويسا ؛ تصورتهما يعيشان عيشة هانئة سعيدة ، لأن چوليان يستطيع أن يكون محامياً فى مدينة براى ، وهى مركز يبعد ميلين عن ڤريير ؛ وإذا حدث هذا فهى تستطيع أن تراه بين حين وحين .

واعتقدت مدام دى رينال حقّا أنها ستفقد رشدها ، وقد أفضت إلى زوجها بذلك ثم مرضت . وفى نفس المساء ، رأت وصيفتها تبكى وهى قائمة على خدمتها ، وكانت تحسّ كراهتها وقتذاك فنهرتها ، ثم طلبت منها بعد ذلك أن تصفح عن خشونتها وجفوتها ، فانهمرت دموع الوصيفة ، ثم طلبت من سيدتها أن تأذن لها لتقصّ عليها سبب ألمها ونكبتها .

فأجابتها مدام دى رينال :

— قولى .

— إنه يرفض أن يتزوّج منى ، لقد قال له أهل الشرّ مقالة سوء فصدق!

فتنفّست مدام دى رينال بصعوبة ثم سألتها :

— ومن هذا الذى يرفض الزواج منك ! فبكت الوصيفة قائلة :

— من يا مولاتى غير السيد چوليان ؟ لم يستطع القس أن يقنعه بالعدول عن رأيه . وقد أخبرنى القس نفسه أنه ليس محقاً فى أن يرفض فتاة أمينة لأنها تعمل وصيفة ، ومع كلٍّ فوالد السيد چوليان ليس إلا نجاراً ، ثم كيف كان يعيش المسيو چوليان قبل أن يأتى إلى منزل مولاتى ؟ . .

فشعرت مدام دى رينال براحة وسعادة حين علمت ذلك ، ولم تنصت إلى بقية الحديث لأنها شغلت بالتفكير فى رفضه يد إليزا ، بعد أن استعادت حديث وصيفتها عدة مرات ، وتأكدت أن رفض چوليان كان نهائياً ، ثم قالت لوصيفتها :

— سأحاول أن أعالج الأمر بنفسى ، وسأتحدث إلى السيد چوليان .

وبعد الغداء فى اليوم التالى ، تحدّثت مدام دى رينال إلى چوليان فى أمر غريمتها إليزا ساعة كاملة ؛ ولشدّ ما كان سرورها عظيما حين رأته يرفض يدها وثروتها رفضاً جازماً .

وهكذا آن لچوليان أن يتخلص شيئاً فشيئاً من أجوبته الرقيقة ، فاستطاع أن ينقض فى كثير من الفطنة حجج مدام دى رينال التى لا تخلو من تعقل ومداورة وحكمة ، وانتهى الأمر برفضه الزواج فغمر السيدة تيار

جارف من السعادة ملأ قلبها بعد أن نهشتها الآلام والأحزان أياماً طويلة . لم تستطع أن تقاوم سعادتها فشعرت بضعف و إعياء ، وعادت إلى غرفتها فاستردّت قوتها ، ثم طلبت أن تظل وحدها ؛ فغادر الحجرة من كان فيها ، فعجبت من أمرها أشد العجب ثم سألت نفسها : أترانى أحبّ جوليان ؟

لم يثر هذا الاكتشاف فى نفسها ما كان يثيره من قبل من وخز واضطراب شديدين ، بل كان مثلها منه كمثل مشاهد يرى الأشياء ولا يتأثر بها . وقد أصبحت نفسها متعبة بسبب ما كشفته ، فلم تعد تتأثر بما تمليه عليها المشاعر . وأرادت أن تقوم ببعض أعمال ولكن غلبها النوم ، فاستسلمت له. ولما استيقظت لم تكن جدّ منزعجة ، وكان عليها أن تكون شديدة الفزع . لقد ملكت عليها السعادة نفسها فرأت الدنيا بمنظار جديد وما كانت هذه الريفية الطيّبة المطبوعة على السذاجة والطهر ، لتعذب نفسها فتستخلص منها بعض الحساسية لما يطرأ عليها من عواطف أو يصيبها من شر . كانت قبل وصول جوليان دءوبا كثيرة العمل ، ممّا يعد نصيب كل ربّة بيت فاضلة بعيدة عن باريس ، تفكر فى الحب كما نفكر نحن فى ألعاب النصيب : خديعة حقيقية وسعادة لا يبحث عنها إلا المجانين !

دقّ جرس الغداء ، وسمعت مدام دى رينال صوت جوليان قادماً مع الأطفال فالتهبت وجنتاها بحمرة شديدة ؛ لكنها أصبحت ماهرة منذ أن أحبّت ، وأرادت أن تخفى سبب إحمرارها فادعت أنها تعانى صداعاً شديداً . فضحك زوجها من ذلك قائلا :

— هذا شأن كلّ النساء، هنّ كالآلات فى حاجة دائمة إلى بعض الإصلاح !

وكانت قد اعتادت سماع مثل هذه النكات منه ، ولكن صوته أزعجها في هذه اللحظة ؛ وأرادت أن تسري عن نفسها فنظرت في وجه جوليان ؛ ولو أنه كان أقبح الرجال جميعا في تلك اللحظة لأعجب مدام دي رينال .

وكان السيد دي رينال حريصا على أن يحاكي رجال البلاط في أعمالهم ، لذلك كان يذهب إذا ما أقبل الربيع إلى قرية ڤرجي التي أصبحت شهيرة منذ المخاطرة الأليمة التي وقعت لجبرييل [1] . فعلى بعد بضع مئات من الخطوات من الأطلال البديعة التي كانت يوماً ما كنيسة قوطية ، يرى الإنسان قصراً يملكه السيد دي رينال ، وهو قصر قديم ذو أربعة أبراج وحديقة كحديقة التويللري ، فيها دوائر كثيرة من شجر البقس ، وطرقات تحفّها أشجار الكستناء التي تشذب مرتين في العام . يجاورها حقل يتنزه فيه سكان القصر وقد غرست فيه أشجار التفاح ، وكان في طرف البستان بعض أشجار من الجوز تبلغ ثماني شجرات أو عشراً ، طول كل منها يقارب ثمانين قدما .

وقد أبدت مدام دي رينال إعجابها بهذه الأشجار فقال لها زوجها :

— إنّ كل شجرة من هذه الأشجار اللعينة تضيع عليّ في العام محصول نصف فدان لأن القمح لا يستطيع النمو في ظلّها .

خيل لمدام دي رينال أنها ترى الريف للمرة الأولى ، فكان إعجابها

---

(١) كانت مغامرات صاحبة قصر ڤرجي مشهورة ، ومما لا ريب فيه أن الكاتب كان يعرف « أوبرا كرافا » التي كانت تسمى جبرييلا دي ڤرجي ، والتي كانت تمثل بنجاح كبير في إيطاليا منذ عام ١٨١٦ ، وفضلا عن هذا فقد ظهرت نسخة فرنسية لقصة شعرية ترجع إلى القرن الثالث عشر الميلادي وتسمى « صاحبة قصر ڤرجي » طبعها كربليه سنة ١٨٢٩ . « المعرب »

به شديداً ، وقد سبغت عليها العاطفة الجديدة كثيراً من الفطنة والعزم .
واقترح عليها چوليان أن يمهدوا في الحديقة طريقا رمليا صغيراً ، يدور حول جنباتها ويمرّ تحت أشجار الجوز ، ليستطيع الأطفال أن يتنزهوا فيها منذ الصباح الباكر دون أن يؤذى الندى أحذيتهم . واستجابت مدام دى رينال إلى ما اقترح بعد وصولهم بيوم واحد . وكان زوجها قد غادر ڤرجى لأن مهام منصبه استدعته إلى ڤر يير ، وأحضرت عمالا على نفقتها ليمهدوا الطريق ، وقضت يوما سعيداً مع چوليان فى الإشراف على هذا العمل .

ذهل العمدة حين عاد من المدينة فرأى ممراً معبدا ، وذهلت مدام دى رينال حين رأته ، لأنها كانت قد نسيت وجوده .

وظلّ الزوج غاضبا على امرأته شهرين كاملين لأنها جرؤت على عمل هذا الإصلاح الخطير دون أن تستشيره ، وإن كانت حدته قد خفّت حين رآها قد دفعت من مالها أجر هذا العمل .

كانت تقضى أيامها مع أطفالها فى الحديقة لاهية عابثة ، تشاركهم مطاردة الفراش وصيده ؛ وهم يلبسون قلانس كبيرة من نسيج شفاف ليصطادوا بها الحشرات ذات الأجنحة الصدفية . وكان چوليان يقصّ عليها بعض ما قرأ فى كتاب چودار عن عادات هذه الحشرات ، وهو كتاب أحضرته له مدام دى رينال من بيزانسون . وكانوا يثبتون صيدهم من الحشرات فى غير رأفة بدبابيس على ورقة غليظة أعدّها چوليان لذلك .

وهكذا لم يعد چوليان فريسة للآلام ، لم يعد يجلس صامتا معها لأنه وجد أخيراً موضوعاً للأحاديث ، وبات الحديث بينهما غير منقطع بل

أصبح متواصلا فى شغف ولذة و إن تناول دائما أشياء بريئة . وهذا اللون من الحياة القوية المرحة يستهوى من فى المنزل جميعاً إلاّ الآنسة إليزا لأنها كانت مرهقة بالعمل ؛ وكانت تحدث نفسها قائلة : إن سيدّتى لم تعتد من قبل أن تعنى بالزينة هذه العناية الكبيرة حتى فى أيام حفلات فريير ، أما الآن فأراها تغير ملابسها ثلاث مرات كل يوم !

إنّنا لا نرمى أبداً إلى التحيز لأحد أشخاص هذه القصة ، ولذلك لا ننكر أنّ مدام دى رينال قد عمدت إلى حياكة ثيابها بطريقة تكشف عن ذراعيها وصدرها ، ليظهر لون بشرتها الناصع وجمالها الرائع ، فكانت فى ثيابها الجديدة آية فنية بديعة . لذلك كان أصدقاؤها الذين يفدون عليها من فريير لتناول الطعام فى فرچى يقولون لها :

— إنّا لم نرك فى حياتك يوما أكثر شبابا منك الآن (وهى عبارة ألفها الناس فى هذا الإقليم) .

والشىء الذى لا نكاد نصدقه ، أنّها كانت تقوم بكل هذه الأعمال دون أن تفكر فى غرض أو ترمى إلى هدف ، ولكنها تعمل لأنها تجد لذّة فيما تعمل ؛ فساعاتها موزعة بين صيد الفراش مع چوليان وأولادها و بين صنع ثيابها الجديدة مع أليزا . ولم تذهب إلى فريير إلاّ مرة واحدة لتشترى لها ملابس صيفية كانت قد أحضرت من مولهوز . ثم اصطحبت معها إلى فرچى مدام درفيل إحدى قريباتها التى تربطها بها روابط وثيقة منذ كانتا معاً فى دير القلب المقدّس . وكانت مدام درفيل تضحك كثيراً عما تسميه الآراء الجنونية التى تصدر عن قريبتها ، إلاّ أن مدام دى رينال

كثيراً ما كانت تحدث نفسها قائلة : « لو أنني كنت وحدى ما فكرت على هذا النحو » . وهذه الآراء المفاجئة التى ترد دائماً على خاطر مدام دى رينال كانت تخفيها وهى مع زوجها كما تخشى ارتكاب حماقة كبيرة ، وإن كان الباريسيون يعدّون مثل هذه الآراء ملحاً وطرائف . غير أن وجود مدام درفيل بعث فى نفسها الشجاعة ، فكانت تفضى إليها بما يجول فى خاطرها فى خجل واستحياء و بصوت يكاد يكون همساً ؛ و إذا مكثتا معاً وقتا طويلا فإن نفس مدام دى رينال تقوى وتضطرم شيئاً فشيئاً ، وكثيراً ما مرّت عليهما ساعات الصباح الطويلة وهما تتحدثان فى فرح وسرور، دون أن تشعرا بملل وكأنهما بدأتا الحديث منذ فترة قصيرة . وقد لاحظت مدام درفيل بما أوتيت من فراسة أن مدام دى رينال كانت فى هذه المرة أكثر سعادة وأقل سرورا منها فى المرات السابقة .

أما چوليان فكانت حياته فى هذه القرية كحياة الأطفال ، كلّها لهو وعبث . يجرى وراء الفراش أكثر مما يجرى تلاميذه . لقد أصبح بعيداً عن أعين الرجال ، فليس فى حاجة إلى اتباع سياسة ماهرة فى ضبط عواطفه وكبت مشاعره ، وأصبح لا يخشى مدام دى رينال بوحى من غريزته ، فأطلق لنفسه عنان المرح والسرور ، وما أشدّ الفرح بالحياة فى مثل سنه و بين جبال هى أجمل جبال العالم !

وما كاد چوليان يرى مدام درفيل حتى ظنّها صديقة له منذ أمد بعيد ، فأسرع إلى مصاحبتها ليطلعها على المنظر الرائع الذى يبدو عند طرف الطريق الجديد تحت أشجار الجوز الباسقة ؛ وحقيقة إنّه كان منظراً رائعاً إن لم

يفوق مشاهد سويسرا وبحيرات إيطاليا فليس بأقل منها جمالا وبهاء . يصعد الإنسان فوق الجانب الجبلي الواقع على بضع خطوات من الممر الجديد ، فسرعان مايصل إلى وهاد كبيرة تحفها غابات السنديان ممتدة حتى تكاد تصل إلى النهر . وكان چوليان يتسلق قمم الصخور العمودية فيشعر بالسعادة تغمر نفسه ، وبالحرية المطلقة ثم بشيء أكثر من هذا وذاك هو أنه سيد هذا المنزل ، يصطحب الصديقتين ويمتع نفسه بما تبديانه من إعجاب وتقدير لتلك المناظر الرائعة الجمال .

وكثيراً ما كانت مدام درڤيل تقول :

— هذه المناظر تحدث فى نفسى من التأثير ما تحدثه موسيقى موزار تماماً .

لم يكن چوليان قد تمتع من قبل بجمال الريف فى ضواحى ڤريير لأن غيرة أخويه منه ، وشخص أبيه الطاغية الغضوب أفسد فى ناظريه كل موجود . وتخلص فى ڤرچى من هذه الذكريات المريرة ، وشعر لأول مرة أن ليس له عدو فى الحياة . وإذا كان السيد دى رينال غائبا فى المدينة جرؤ چوليان على القراءة ، على أنه كثيرا ما كان العمدة يتخلف فى ڤريير . كان يخفى مصباحه وهو يقرأ فى زهرية يقلبها فوق المصباح ، لكنه كثيرا ما كان النعاس يحول بينه وبين القراءة فى الليل . أمّا فى النهار ، فكان يتسلل إلى الصخور فى الفترات التى لا يتلقى فيها الأولاد درسا ، مصطحبا كتابه الذى يقتبس منه مثله العليا وما يتأجج فى نفسه من حمية ونشاط ؛ ذلك الكتاب الذى كان يمده بالسعادة ، ويبعث فى نفسه الإعجاب والدهشة والعزاء فى ساعات حزنه ويأسه .

كان يقرأ بعض عبارات قالها ناپليون فى المرأة ، و بعض مناقشات حول قيمة القصص المعروفة فى عصره ، فكانت هذه كلها ثروة عقلية له ، و إن كان أقرانه قد عرفوها قبله بزمن طويل .

أشتدّ القيظ فى ڤرچى فأخذت مدام دى رينال ومن معها يقضون سهراتهم تحت شجرة زيزفون ضخمة على بعد خطوات من المنزل وفى ليلة حالكة الظلام ، جلس چوليان يتحدث فى حماسة وقد غمرته سعادة كبيرة حين أحسّ أنه يحسن الحديث إلى سيدتين جميلتين لا تزالان فى ريعان الشباب ، كان كثير الحركات وهو يتكلم ، فلمست يده يد مدام دى رينال التى كانت تتكئ بها على ظهر كرسىّ منقوش من تلك الكراسى التى توضع عادة فى الحدائق ، فسحبت السيدة يدها بسرعة خاطفة ؛ فكرّ چوليان بعدها فى أنّ واجبه يفرض عليه أن يعلّمها ألاّ تسحب يدها إذا إذا لمستها يده ، وسرعان ما تغيرّ سروره إلى حزن ، لأنّ فكرة القيام بالواجب أو السخرية منه أو على الأصح الشعور بمركب النقص قد استولت على نفسه ، فغاض من قلبه فى الحال كل سرور .

الفصل التاسع

سهرة فى الريف

رآها فى اليوم التالى ، فأخذ ينظر إليها نظرات غريبة تنمّ عن عداوة حديثة العهد ؛ وأزعجتها نظراته إزعاجا شديدا لأنها من نوع جديد يغاير ما ألفته منه إلى حدّ بعيد . لقد كانت رقيقة القلب كيّسة معه إلى درجة كبيرة ، ومع ذلك كان يبدو على وجهه الغضب فلم تفارق عيناها عينيه لتعرف سرّ غضبه عليها .

وأتاح وجود مدام درفيل فرصة لالتزام الصمت ، فتكلّم قليلا وفكّر كثيرا فيما يعتمل فى نفسه . وقضى يومه فى قراءة كتابه ذى الأثر العجيب فى تهدئة خواطره و إعادة السكينة إلى نفسه ، حينما يكون حزينا مهموما؛ ثم اشتغل قليلا مع تلاميذه ، ولما رآها تعنى به وتبذل له من نفسها ومشاعرها ما تبذل ، عزم على أن يحملها بأى وجه لتبقى يدها فى يده هذه الليلة .

وغربت الشمس وأزفت الساعة الموعودة ، فدقّ قلبه سريعاً ، ثم أرخى الليل سدوله ، فرأى فى فرح شديد أن الظلام سيكون حالكا فزايله بعض ما كان يعانيه من ألم . كانت السماء مثقلة بسحب كبيرة متكاثفة تدفعها رياح حارة ، والجوّ ينذر بهبوب عاصفة . وظلّت الصديقتان فى نزهتهما إلى ساعة متأخرة ، و بدا له أن كلّ ما تعملانه الليلة غريب عليه ، لا عهد له به من قبل ؛ فقد كانتا تسعدان بهذا الجو الذى يزيد الأرواح الرقيقة فرحا على فرح ، و يذكى فيها جذوة الحب . . . ثم جلستا

بعد طول الانتظار ، واتخذت مدام دى رينال مقعدها بجوار جوليان ، وجلست مدام درفيل على مقربة من صديقتها . كان جوليان مضطرب النفس ، مبلبل الخاطر لما اعتزم الأقدام عليه ، فلم يجد ما يقوله لهما ، وفتر الحديث فأخذ يسائل نفسه : كيف أضعف هكذا وأضطرب فى أول صراع؟! وما كان يرى نفسه على حقيقتها ؛ لحذره الشديد من نفسه ومن الناس كذلك .

كان ضيق النفس كثير الاضطراب ، وخيل إليه أنه يهزأ بجميع الأخطار التى تعترض سبيله ، ثم عاد فتمنى أن يقع ما يضطر مدام دى رينال إلى مغادرة الحديقة والعودة إلى المنزل ! وكان الصراع الداخلى شديدا فى نفسه ، ظهر أثره ظهورا واضحا فى صوته الذى تغيرت نبراته ؛ ومرت فترة فاضطرب صوت مدام دى رينال ، ولكن جوليان لم يفطن لذلك لأنه مشغول بالمعركة القاسية التى تدور فى نفسه بين الواجب والخجل . فلم يتنبه إلى شىء سوى ذلك . ودقت ساعة القصر العاشرة إلا ربعاً والعجز لا يزال يقعده عن تنفيذ ما يريد ، فأسخطه جبنه وقال فى نفسه : سأنفذ ما اعتزمت وما فكرت فيه طول يومى حينما تدق العاشرة تماما ، وإلا صعدت إلى غرفتى وقتلت نفسى .

ومرت لحظة كأنها دهر لما انتابه فيها من قلق واضطراب وفقد كل سيطرة على نفسه ؛ ثم دقت الساعة التى كانت فوق رأسه دقاتها العشر ، فاضطرب قلبه فى إثر كل دقة ، وأحس صداها فى نفسه حتى كأنها حركة جسمانية . وبينما كانت الدقة الأخيرة لا يزال صداها يرن فى أذنه ونفسه ،

مدّ يده وأمسك بيدها ، فأسرعت هى فى إستردادها ؛ وكان فى حالة لاتسمح له بأن يفهم ما يعمل ، فأمسك بيدها مرة أخرى ، وهو ثائرالنفس مضطرب المشاعر ؛ ولشدّ ما دهش حينما أحسّ أنها باردة لا حرارة فيها فضغطها فى رعشة وارتجاف : وحاولت السيدة مرة أخرى أن تبعد يدها لكنه لم يمكنها من ذلك ، بل ظلّت بين يديه يداعبها ويضغط عليها .

وغمرت السعادة نفسه لا لأنه كان يحبّ مدام دى رينال ، بل لأنه تخلّص من عذاب أليم كان يساوره طول يومه . وبدأ يتحدث حتى لايثير شكوك مدام درفيل بصوت قوىٍّ باهر فى هذه المرة ، أما صوت مدام دى رينال فكان مضطربا متعثرا ينم عن انفعالات كثيرة ، فظنتها صديقتها مريضة واقترحت عليها أن تعود إلى المنزل . وعندئذ شعرجوليان بالخطر ، وقال فى نفسه : لو أنها سمعت نصيحة صديقتها وذهبت إلى الصالون لعاودنى الألم المرّ الذى صاحبنى طول النهار ، لأن إمساك يدها وقتا قصيرا لايعد نجاحاً ولا يشفى غليلا .

واقترحت عليها صديقتها مرة أخرى أن تعود إلى البيت ، فضغط جوليان يدها بشدة فلم تستأ ولم تتألم . وكانت قد نهضت فجلست من جديد قائلة فى صوت ضعيف خافت :

— حقّا إننى أشعر بدبيب المرض لكننى أظن أن الهواء الطلق ينعشنى .

ووقعت هذه الكلمات من نفس جوليان موقعا جميلا وزادت فى سعادته حتى أصبحت حقا لا مرية فيه ؛ فتكلم فى طلاقة ونسى مكره

وخبثه ، وخيّل للصديقتين وهما تنصتان إليه أنه أظرف رجل عرفه الوجود. غير أنّ فصاحته التى بدت فجاءة كانت لاتزال فقيرة إلى الشجاعة ، لأنه كان يخشى أن تكون مدام درفيل شعرت بتعب من الرياح التى بدأت تهبّ والتى تنذر عادة بالعواصف ، فتعود وحدها إلى الصالون ويبقى هو ومدام دى رينال منفردين . لقد واتته شجاعة عمياء ، هبطت عليه مصادفة فأقدم على فعلته الجريئة، ولكنّه كان يشعر فى قرارة نفسه بالعجز الشديد عن أن يقول لها كلمة واحدة . وخشى إن هى لامته فى وحدتهما أن يُغلب على أمره ، وأن يذهب أدراج الرياح ما ناله من توفيق وما أدركه من نجاح. على أنّ الحظ واتاه فى هذه الليلة ، فأعجبت مدام درفيل بحديثه البليغ المؤثر ؛ وكانت تصفه دائما بأنه طفل أخرق يكون مسلّيا فى بعض الأحيان . أما مدام دى رينال فكانت لا تفكر فى شىء على الإطلاق، بل تركت نفسها على سجيتها ؛ وشعرت بلذة كبيرة ويدها فى يد جوليان. وأصبحت تلك الساعات التى قضتها تحت شجرة الزيزفون التى يقال إنّ شارل الجسور هو غارسها — أصبحت ساعات سعادة حقة . كانت تنصت فى لذة وارتياح إلى هزيز الريح وخفيف ورق الزيزفون وقطرات المطر التى بدأت تتساقط على الشجر . ثم نهضت لتساعد صديقتها على إعادة إناء من أوانى الزهر إلى مكانه بعد أن دفعته الريح عند أقدامها ؟ فاستلّت يدها من يده ، لكنّها أرجعتها إليه من غير تأبٍّ حين عادت إلى مجلسها كما لو كان ذلك شيئاً قد اتفق عليه من قبل، فسر جوليان لهذا كل السرور واطمأنت إليه نفسه اطمئنانا كبيرا .

كان الليل قد انتصف منذ وقت طويل، فغادروا الحديقة جميعاً ومضى كلّ إلى مخدعه. وكانت مدام دى رينال سعيدة بحبها كلّ السعادة؛ غيّرها الحبّ فلم توجه لنفسها لوماً ولا عتاباً؛ ولم تنم من سعادتها طول الليل. أمّا جوليان فقد أجهده الصّراع الداخلى الذى ثار فى قلبه بين الكبرياء والخجل فنام ليلته نوماً عميقاً.

وأوقظ فى الساعة الخامسة من اليوم التالى، فشعر بأنه قام بعمل مجيد، قام بواجبه وهو واجب ينطوى على البطولة؛ وإنه لشعور يؤذى مدام دى رينال كثيراً لو أنها علمته أو خطر ببالها. ثم غلبه شعوره بالسعادة فأغلق الباب وبقى فى غرفته يقرأ مغامرات بطله فى لذة جديدة فائقة.

ودقّ الجرس لتناول الغداء فنسى، وهو يقرأ نشرات الجيش الأكبر، ما أصاب البارحة من توفيق كبير فأخذ يقول فى لهجة استهتار وهو هابط إلى الصالون: يجب أن أقول لهذه السيدة إنى أحبها.

وكان يمنّى نفسه بأنّه سيرى النظرات المشتهاة التى توقّع أن يراها، لكنه لم يكد يدخل الصالون حتى وقع بصره على الوجه القاسى، وجه السيد دى رينال الذى وصل إلى المنزل منذ ساعتين. وقد استاء لمّا علم أن جوليان قضى يومه فى غرفته ولم يعلّم الأولاد شيئاً. ولشدّ ما يزداد السيد دى رينال قبحاً وشناعة حين يغضب، ويريد أن يظهر غضبه؛ فكانت كل كلمة قاسية ينطق بها تجرح قلب زوجته. كان جوليان لايزال ينعم بذكرى تلك اللحظات السعيدة التى قضاها أمس؛ من أجل ذلك كان فى شغل عما يقوله السيد دى رينال، لكنّه حين نزل من علياء

تفكيره ليسمع ما يقوله العمدة فى خشونة وقسوة ، أجابه على الفور فى جفوة :

— لقد كنت مريضاً .

وكانت لهجة چوليان جارحة لا يحتملها من كان أقل نزقاً وسرعة انفعال من عمدة ڤريير، فخيل إلى دى رينال أن يجيبه فى قسوة ويطرده فى الحال من منزله ، لكنه تريث نزولا على الحكمة والأناة والصبر فى كل أعماله ، ثم أخذ يحدث نفسه : هذا الأحمق قد اشتهر فى منزلى ، ولن يتردد ڤالنو فى أن يتخذه معلما لأولاده ، وربما تزوج إليزا . وعلى كل حال فسيسخر منى لو تم له هذا أو ذاك ، وإن كان هو لن يستطيع الجهر بهذه السخرية .

وعلى الرغم مما تمليه عليه نفسه باتباع الحكمة ، ثار ثورة عنيفة ، وسب چوليان سبا مقذعاً فغضب ؛ وكادت مدام دى رينال تنفجر باكية .

وانتهوا من الغداء ، فطلبت زوج العمدة من چوليان أن يقدم لها ذراعه ويذهب معها إلى النزهة ، وأخذت تضغط على ذراعه فى صورة ظاهرة ، وتتحدث إليه وهو يجيبها دائماً عن كل ماتقول فى صوت منخفض :

— هكذا خُلق الأغنياء !

وكان الزوج يسير على مقربة منهما ، وقد زاد وجوده چوليان غضباً على غضب . وشعر فجأة بأن مدام دى رينال تتكىء على ذراعه اتكاء ملحوظاً فآلمه هذا ودفعها بقوة وخلص ذراعه من ذراعها ، ولم ير السيد دى رينال من حسن الحظ هذا اللون الجديد من القحة ؛ لكن مدام

درڤيل رأت ما حدث ، وأبصرت صديقتها تبكى بكاء مراً ، أما دى رينال فقد شغل بفتاة قروية رآها تعبر طريقاً يدخل فى ممتلكاته وتسير فى جانب من جوانب الحديقة ، فأخذ يرجمها بالحجارة .

عندئذ قالت له مدام درڤيل فى سرعة ولهفة :

— خفف من حدتك يا سيد جوليان إن تفضلت ، ولا تنس أن للناس جميعاً لحظات يغضبون فيها . فنظر إليها نظرات تنطوى على التحقير الشديد ، فعجبت من ذلك . ولو أنها استطاعت أن تفطن إلى ما تقوله نظراته لكان عجبها أشد وذهولها أقوى ، ولقرأت فى نظراته أملا غامضاً فى أن ينتقم لنفسه انتقاماً شديداً . ومما لا شك فيه أن مثل هذه اللحظات التى تصاب النفوس فيها بألم الازدراء هى اللحظات التى تخلق رجالا أمثال روبسپيير .

ثم حدثت مدام درڤيل صديقتها فى صوت منخفض :

— إن « جوليانك » لسريع الانفعال ، شديد الغضب ، إنه يخيفنى !

— إنه محق فى غضبه ؛ لقد تقدم الأطفال على يديه تقدماً كبيراً ، فأى خطأ اقترفه حين قضى ساعات الصباح فى غرفته ولم يعلم الأولاد شيئاً ، يجب أن نعترف بأن الرجال قساة القلوب

ولأول مرة فى حياة مدام دى رينال أحست فى نفسها شهوة الانتقام من زوجها . وقد ثار جوليان على الأغنياء ثورة عنيفة ؛ وأظهر ما يضمره لهم من كراهية و بغضاء . ومن حسن حظه استدعى السيد دى رينال البستانى وأخذ يعمل معه فى وضع حواجز من الشوك فى الطريق المؤدى إلى الحديقة .

ولزم چوليان الصمت طوال النزهة فلم يجب عما وُجّه إليه من حديث ، وأغفل ما أظهرته السيدتان من ودّ ورعاية ، فإنه ما كاد السيد دى رينال يبتعد حتى أستندت كلّ إلى ذراع من ذراعيه بحجة أنهما متعبتان .

وسار چوليان بينهما وقد احمر وجهاهما خجلا واضطرابا ، أمّا هو فكان شاحباً فى عظمة ، يبدو على محياه صلابة وحزم وجدّ، تدلّ كلها على أنه يحقرهما و يستهين بكل العواطف الرقيقة ، فكان التباين بين حاليهما شديدا . على أنّه كان يقول فى نفسه : ماذا ! لو أنّ لى دخلا يبلغ خمسمائة فرنك لأتمّ به دراستى ! آه ! إذن ما أقمت له وزناً !

كانت تلك الآراء الصارمة تشغل لبّه ، فلم يشأ أن يسمع من كلامهما الحلو إلا بضع كلمات حكم عليها بأنها تافهة ، ، ضعيفة ، سقيمة ، هى فى الجملة أحاديث نساء .

وأرادت مدام دى رينال أن تتكلم من أجل الكلام ليظلّ الحديث متصلا قو ياً ، فذكرت لهما أن زوجها قدم من ڤر يير لأنه اشترى من بعض فلاحيه عيدان الذرة . (وقد اعتاد أهل هذا الأقليم أن يحشوا حشايا الأسرّة بهذه الأعواد) . ثم استطردت تقول :

— إنّ زوجى لن يلحق بنا الآن لأنه يعمل مع البستانى وخادم آخر فى تجديد حشو الفراش ، وقد فرغ فى الصباح من حشايا سرر الطابق الأول و يعمل الآن فى حشايا الطابق الثانى .

فامتقع وجه چوليان ، ونظر إليها نظرة غر يبة ، ثم انفرد بها بأن جدّ

في سيره قليلا ، فأدركت مدام درفيل ما يرمى إليه وتركتهما يبتعدان عنها ، ثم قال لمدام دى رينال :

— أنقذى حياتى يا سيدتى فأنت وحدك التى تستطيعين ذلك ؛ إن الخادم يكرهنى كما تعلمين حتى ليتمنى موتى ، ويجب أن أعترف لك بأننى قد أخفيت صورة فى حشية سريرى .

فامتقع لونها ولكنه ظلّ يقول :

— أنت وحدك ياسيدتى التى تستطيعين دخول غرفتى فى هذا الوقت ، فاذهبى وفتّشى حشيتى ، دون أن يشعر أحد ، وستجدين فى الزاوية القريبة من النافذة صندوقاً صغيراً من الورق المقوّى أسود اللون ناعم الملمس .

فتحاملت على نفسها ووقفت متهالكة تسأله :

— والصورة داخل الصندوق ! ؟

فانتهز جوليان ما رأى على وجهها من علامات القنوط وقال :

— لى رجاء آخر يا سيدتى هو ألا تلقى عليها نظرة واحدة ، لأنّ هذا من أسرارى .

فقالت فى صوت خافت :

— هذا سرّ !

لقد نشأت بين أناس يعتزون بالمال ، ولا يبالون بشىء ، إلا بالثروة ، ولكن الحب أكسب نفسها طيبة ونبلا ، وهى ، وإن جرحت جرحاً بالغاً ، مخلصة لجوليان إخلاصاً شديداً ؛ فألقت عليه بعض أسئلة تمكنها من القيام بالمهمة على أتم وجه ، ثم قالت له وهى تفارقه :

— إذن هو صندوق صغير مستدير ناعم الملمس من الورق المقوى .

فقال لها والجدّ يتمثل فى وجهه إزاء خطر يتهدده :

— نعم ياسيدتى هو كذلك .

صعدت مدام دى رينال إلى الطبقة الثانية من المنزل شاحبة الوجه كأنما تساق إلى الموت ؛ وشعرت لسوء حظها أنها تكاد تسقط من الإعياء ، لكن الفكرة التى تسلطت عليها وهى أنها تؤدى خدمة لجوليان شدّت من أزرها ، فأسرعت خطاها وهى تقول :

— يجب أن أعثر على الصندوق .

وسمعت زوجها يحدّث الخادم فى غرفة چوليان ، ولكن التوفيق رافقها فذهبا إلى غرفة الأطفال ، فأسرعت هى إلى حجرة چوليان ورفعت الحشية ودسّت يدها فى عيدان الذرة بقوة شديدة ولهفة فجرحت أصابعها . وهى وإن كانت شديدة الحساسية لا تقوى عادة على أخف الآلام ، إلا أنها لم تشعر بجراحها هذه ، لأنها وجدت الصندوق الصغير الأملس وقتما جرحت ، فأخذته واختفت مسرعة .

ولما نجت من خطر أن يقع بصر زوجها عليها فى غرفة چوليان ، شعرت بكراهية شديدة لهذا الصندوق كادت تفقدها رشدها ؛ وقالت فى نفسها : إنّه لا بدّ عاشق وما هذه إلا صورة الحبيبة !

وجلست على مقعد عند مدخل الشقة التى كانت بها ، فأحست آلام الغيرة . لكن جهلها بالحب أفادها ، وخفّف أثر عجبها من شدة ألمها . ثم أتى جوليان وأخذ صندوقه دون أن يتكلم ، أو يشكر وأسرع إلى غرفته

وأحرقه فى الحال . كان شاحب اللون مضعضع القوى ، لأنه كان يبالغ فى الخطر الذى يتهدده ؛ ولـكنه سرعان ما قال فى نفسه وهو يهز رأسه :
صورة نابليون تُخبأ فى منزل رجل يعلن دائماً كراهيته البالغة لهذا الغاصب !
صورة نابليون يجدها السيد دى رينال الأهوج فى غضبه ، المبالغ فى تطرفه !
وبلغت حماقتى منتهاها حينما كتبت على الناحية الأخرى من الصندوق بضعة سطور بخطى تدل تماماً على إعجابى الشديد بنابليون ! وكل عبارة بتاريخها ، وآخرها كتبته أمس الأول فقط .

نعم ، لو أنهم اكتشفوا سرّى لضاعت شهرتى فى طرفة عين ولانمحت تماماً تلك الشهرة التى أعدها ثروتى ، والتى أعيش من أجلها ... ولـكن أية حياة أحياها يا إلهى ! قال هذا وهو يرى الصندوق تلتهمه النار .

ومرّت ساعة واحدة بعد تعب عاناه ، وإشفاق من نفسه على نفسه ، فبعث ذلك فى قلبه رقة ولينا ؛ ورأى مدام دى رينال فأخذ يدها مقبّلا إياها فى إخلاص شديد لم يشعر به من قبل . فغمرتها السعادة واحمرت وجنتاها ، ولـكن سرعان ما استولى عليها غضب الغيرة فدفعته عنها .

وكانت كرامته لا تزال تعانى أثر ذلك الجرح القريب ، فما كادت تفعل هذا حتى عاوده حمقه ، فترك يدها فى امتهان وازدراء ، وولّى مبتعداً مسرعاً ، لأنه كان لا يراها إلاّ بمنظار واحد وهو أنها سيدة غنية .
ذهب بعد ذلك إلى الحديقة يتنزه مفكراً فى أمره وسرعان ما ارتسمت على شفتيه ابتسامة مرة :

إنى أسير ههنا كأنى سيّد حرّ طليق ، لا أعبأ بتلاميذى ! إننى أعرض نفسى لقوارص كلمات السيد دى رينال وهو محق إن فعل . ثم عدا إلى غرفة الأطفال .

وأخذ أصغر الأولاد يلاطفه ويداعبه ، وكان جوليان يحبّه كثيراً ، فهدأت ثورته وكاد يزايله الغضب ، وأخذ يقول فى نفسه :

لم يتعلم هذا الطفل بعد كيف يحتقرنى ! وسرعان ما عاد يلوم نفسه على أن زايلها الغضب ويقول : إن هؤلاء الأطفال يداعبوننى كما يداعبون الكلب الصغير الذى اشتروه بالأمس .

الفصل العاشر

قلب كبير ومال قليل

غير أن الحزن لايغطى المظهر الحقيق ، بل قد يخدع
بظلمته ، كما تنبيء السماء الحالكة بأعنف العواصف .
[دون جوان ١ فقرة ٧٣]

جاب السيد دى رينال خلال غرف القصر كلها ، ثم عاد إلى غرفة الأطفال يتبعه الخدم يحملون عيدان الذرة . فكان دخوله المباغت كقطرة طفح بها الأناء ، فسرعان ما اشتدّ شحوب چوليان وازداد عبوسه ، واندفع نحو العمدة الذى جمد فى مكانه ينظر إلى خدمه ، ثم قال له :

— أتعتقد يا سيدى أنّ أولادك كانوا يصيبون من التقدم ما أصابوا معى لو وكل أمرهم إلى معلّم آخر ؟ وإذا كان جوابك بالنفى ، فكيف تجرؤ على أن تلومنى وتتهمنى بالتقصير فى تعليمهم ؟

فدب الخوف فى نفس دى رينال ، ولما أفاق من عجبه ؛ استنتج أن لدى الفلاح الشاب طلبات أو مقترحات لحياة أيسر من حياته فى منزل العمدة ، وأنّ چوليان سيترك الأطفال . وكان غضب المعلّم يزداد شيئاً فشيئاً كلما مضى فى الحديث إلى أن قال للعمدة :

— فى استطاعتى أن أعيش لو غادرت منزلك يا سيدى !

فأجابه فى تلعثم قليل :

— يؤسفنى أن أراك شديد الانفعال .

وكان الخدم على بعد عشر خطوات ، مكبين على ترتيب حشايا السرر ، فلم يبال بهم چوليان وقال فى حدة بالغة :

— لا أقصد إلى ذلك ، وعليك أن تفكرَ فى بذاءة ما قلت ، ومما زاد الطين بلّة أن سيدتين قد سمعتا ما قلت !

وخيّل إلى العمدة أنه يفهم تماما ما يرمى إليه چوليان ، فأثار هذا فى نفسه آلاما شديدة ، وكان المعلّم فى ذلك الحين قد وصل إلى حدّ كبير من الغيظ والحنق فصاح :

— أنا أعرف ياسيدّى أين أذهب إذا غادرت منزلك هذا .

ورأى العمدة بثاقب نظره أنّ چوليان قد اعتزم المعيشة فى منزل ڤالنو ، فتنهّد وامتقع لونه كما لو كان أمام جرّاح يدعوه إلى التهيؤ لأخطر العمليات ألمًا ثم قال :

— حسنا أيها السيد ! أنا أقبل ما تعرضه علىّ ، وبما أنّ أول الشهر بعد غد فسيكون أجرك خمسين فرنكا فى الشهر .

كان چوليان على وشك أن يغرق فى الضحك ، لكنّه ظلّ مذهولا ، وسكت عنه الغضب ، ثم قال فى نفسه : لم يكن احتقارى بهذا الحيوان كافيا ، إنه يقدّم ولا شك أكبر اعتذار تقدم عليه نفسه الوضيعة .

وكان الأطفال ينصتون إلى حديثهما فى ذهول وعجب ، فجروا إلى الحديقة ليخبروا والدتهم بما يدور بين أبيهم ومعلمهم ، فعلمت منهم حينئذ أنّ چوليان كان غاضبا كل الغضب ، ولكنّ مرتبه الشهرى ارتفع إلى خمسين فرنكا ، وتبع چوليان الأطفال بحكم العادة ، دون أن يلقى نظرة

على دى رينال المغيظ المحنق الذى يقول فى نفسه : هذا مبلغ جديد أخسره بسبب ڤالنو ، ثمانية وستون ومائة فرنك ضحيتها الآن من أجله وهذا يحملنى على أن أتحدث إليه فى صراحة عن مشروع التوريد للأطفال اللقطاء .

وبعد لحظات قليلة ، ألفى چوليان نفسه أمام السيد دى رينال فقال له :

— أنا فى حاجة إلى أن أعترف أمام الأب شيلان ، فلى الشرف أن أخبرك بتغيبى بضع ساعات .

فأجابه العمدة فى رياء ظاهر وضحكة كاذبة :

— لك أن تتغيب طول اليوم يا عزيزى چوليان ، وإذا أحببت أن تغيب غدا كذلك يا صديقى فافعل ، ثم خذ حصان البستانى لتركبه إلى ڤريير .

وعاد دى رينال يحدث نفسه قائلا : ها هوذا ذاهب إلى ڤريير ليلقى ڤالنو ويخبره بما اعتزمه ، إنه لم يعدنى وعداً صريحاً ، ولكن علينا ألاّ نتعجل الأمور وأن نترك أفكار هذا الشاب تفتر قليلا حتى تخمد حماسته .

وأسرع چوليان يخترق الغابات الكبيرة التى تصل بين ڤرجى وڤريير . ولم يشأ أن يذهب توّا إلى الأب شيلان لأنه لا يريد أن يمثل فى النفاق دوراً جديداً ، فحرص على أن يعرف حقيقة ما يدور بنفسه وأن يستمع فى أناة وتؤدة إلى المشاعر المختلفة التى تهزّ قلبه هزّاً عنيفاً . وابتعد عن أعين الناس جميعاً فأخذ يقول فى نفسه :

لقد كسبت معركة ! نعم قد انتصرت فى معركة !

وأضفت هذه الجملة على موقفه لونا رائعاً جميلا ، وأعادت إلى نفسه

الهدوء والسكينة ، ثم قال : وأصبح أجرى خمسين فرنكا فى الشهر ، ولكن السيد دى رينال لم يوافق على ذلك اعتباطا ، بل إنه فى خوف شديد ، فيا تُرى ما مصدر ذعره ؟ .

وتخيّل جوليان أنه استطاع أن يبعث الرعب فى قلب هـذا الرجل الغنى الخطير وأنه تمكّن من أن يثور فى وجهه منذ ساعة ، فبعثت هذه الفكرة فى نفسه سكينة واستقرار . وبدأ يحسّ جمال الغابات التى هو فيها ، ويشعر بروعة المناظر التى تحتلها عيناه .

وسار فى طريق تنتشر فيه صخور ضخمة عارية سقطت من الجبل من زمن بعيد واستقرت وسط الغابة التى نمت بها أشجار باسقة من الزّان . وألقت الصخور ظلالها على الأرض فلطفت من حرارة الشمس على حين كانت أشعتها على بعد ثلاث خطوات من الظل شديدة قاسية ، لا يستطيع الماشى أن يتمهّل فى سيره قليلا من شدة وهجها .

واستراح جوليان فترة فى ظلال الصخور ثم تسلّقها ، فإذا به على مقربة من طريق ضيّق غير ظاهر ، لا يطرقه إلاّ رعاة المعز . ورأى نفسه قائماً فوق صخرة ضخمة ، واثقا أنه بمعزل عن الناس جميعاً .

وجعله هذا الموقف المادىّ يبتسم ، إذ صوّر له مكانة رفيعة يرجو من كل قلبه أن ينالها بين الناس .

وأسبغ عليه هواء الجبال المنعش سكينة ، وأدخل فى نفسه فرحا وسرورا ، حتى أحسّ أن قلبه لا ينطوى على حقد شخصىّ لعمدة فريير ، بل هو يراه ممثلا لطبقة الأغنياء السفهاء فى كلّ أرجاء العالم ، تلك الطبقة

التى يزدريها چوليان أشدّ الازدراء ، فهو إذن لا يكره دى رينال شخصيا على الرغم من الحركات العنيفة التى أقدم عليها أمامه وثورة الغضب التى أظهرها له . ولو أنّ الفرصة أتاحت لچوليان ألا يرى العمدة ثمانية أيام متوالية لنسيه تمام النسيان ، ولنسى كذلك قصره وكلابه وأطفاله وأسرته. ثم أخذ يتحدث إلى نفسه : لقد أجبرته على أكبر تضحية وإن كنت لاأدرى السّر فى ذلك! ماذا ؟ أأصبح أجرى أكثر من خمسين إيكو فى العام؟ وقبل ذلك بلحظات نجوت من خطر شديد كاد يحيق بى ، فانتصرت اليوم مرتين ، انتصارين رائعين ، إلاّ أن الانتصار الثانى لافضل لى فيه ، يجب أن أعرف كيف تم لى ذلك ؟ ولكن من الخير أن أترك هذه البحوث العويصة حتى الغد .

وقف چوليان على الصخرة العالية ونظر إلى السماء ، وقد التهب جسمه بشمس « أغسطس » المحرقة ، وكانت الزيزان تغرّد فى الحقول تحت الصخرة التى وقف عليها ، وإذا ما سكتت ، لفّ السكون حوله صمت عميق ، وكان يرى تحت قدميه مساحات شاسعة تبلغ عشرين فرسخا ، وفوق رأسه بيزانٌ تخرج من الصخور العالية بين الفينة والفينة لتطير فى السماء فى صمت وسكون . تطلّع چوليان إلى هذه الجوارح ، وتتبعها فى طيرانها بنظرات تلقائية ، فأعجب بحركاتها الساكنة القوية ، وحسدها على قوتها وعزلتها.

وقال فى نفسه : كان هذا مصير نابليون ، فهل يصبح يوما من الأيام مصيرى ؟!

الفصل الحادي عشر

سهرة

وأما جوليا فكانت لا تزال رقيقة رغم فتورها ، وانسحبت يدها الصغيرة الرخصة مرتعشة من يده بعد أن ضغطتها ضغطا رفيقا هز كيانه ، مع أنه كان رقيقا خفيفاً لم يعده العقل إلا طيف خيال .

[دون جوان : ١ فقرة : ٧١]

كان على جوليان أن يظهر فى ڤرييير ، وقد خدمته المصادفات السعيدة ، فلقى السيد ڤالنو وهو يهم بمغادرة دار الخورى . وأسرع فقص عليه زيادة أجره.

ولما عاد إلى ڤرجى لم ينزل إلى الحديقة إلا بعد أن أرخى الليل سدوله ، وكان مضعضع النفس من الانفعالات الكثيرة التى لقيها فى يومه ، والتى هزت مشاعره هزًّا عنيفا . ثم فكر فى السيدتين سائلا نفسه : ماذا أقول لهما ؟ ذلك لأنه لم يكن الليلة على استعدادٍ لأن ينزل إلى هـذا المستوى العقلى التافه ، حتى يجارى السيدتين فيما تخوض فيه أفكار النساء جميعاً لبزيد من اهتمامهما ، وهما لا يتناولان إلا صغائر الأمور . حكمت مدام دزڤيل وصديقتها على جوليان بالغموض ، وكان هو لا يفهم من حديثهما إلاّ نصف ما يسمع منهما ، وذلك للقوة ، أو على الأصح لعظمة المشاعر التى تؤثر فى كيان هذا الشاب الطموح ، إن جاز لى أن أقول ذلك . لقد كان فى نفس هذا المخلوق الغريب عاصفة فى كل يوم تقريبا .

دخل الحديقة وهو مستعد لسماع ما تقوله هاتان القريبتان الجميلتان ،

وكانتا تنتظران قدومه بفارغ الصبر . واتخذ مكانه المعهود إلى جنب مدام دى رينال ، واشتدت حلكة الظلام فأراد أن يمسك اليد البيضاء التى تتكىء على ظهر المقعد ، والتى كان يراها منذ وقت طويل . وأمسكها فترددت مدام دى رينال قليلا ، ثم سحبتها فى حركة غاضبة . ولم يكن جوليان يمانع أن يمسك من جديد تلك اليد الجميلة الرخصة ، وهو مواصل حديثه الحلو الذى يسوده المرح ، لولا أنه سمع صوت السيد دى رينال وهو يقترب منهم .

وكانت كلماته البذيئة لا تزال ترن فى أذنى جوليان منذ الصباح ، فقال فى نفسه : أليست خير وسيلة للاستهزاء بهذا الرجل القوى الغنى الخطير الشأن أن أتناول يد زوجه فى حضوره ؟ وإذاً سأقدم على هذا ، أنا الذى قد بالغ فى احتقارى !

ومنذ هذه اللحظة ، شملته سكينة لم يعتدها خلقه من قبل ، لكنها ما لبثت أن فارقته ؛ وود فى قلق شديد أن تترك له السيدة يدها ، فلم يستطع التفكير فى شىء آخر .

كان دى رينال يتحدث عن السياسة وهو غضبان ، لأن اثنين أوثلاثة من أصحاب الصناعات فى فرييرأصبحوا أكثر منه مالا ، وهم يعملون الآن على الوقوف فى وجهه فى الانتخابات ، وكانت مدام درفيل تصغى إلى حديث العمدة . أما جوليان فكان حانقا على هذه الأحاديث ، فاقترب بمقعده من مدام دى رينال ، والظلام الدامس يخفى كل حركة ، وجرؤ فوضع يده بالقرب من ذراعها الجميلة المكشوفة ، فما لبث أن اضطرب وفقد

كل سيطرة على نفسه . وقرب خدّه من ذراعها الجميلة ثم اندفع فوضع عليها شفتيه .

ارتعشت مدام دى رينال ، لأن زوجها على بعد أربع خطوات ، وأسرعت فى مدّ يدها إليه ، وحاولت فى نفس الوقت أن تدفعه عنها قليلا . كل هذا كان يحدث والزوج لا يزال مشغولا بصبّ اللعنات على هذه المخلوقات التافهة وعلى اليعاقبة المتطرفين الذين أثروا ثراء واسعاً . أما جوليان فكان مشغولا بتقبيل يد مدام دى رينال تقبيلا حارّا يفيض بالعواطف الثائرة ، أو هذا هو على الأقل ما بدا لمدام دى رينال من قبلات جوليان ، مع أن هذه السيدة البائسة قد قام الدليل لديها اليوم على أن الرجل الذى تعبده دون أن تعترف هى بذلك يحبّ امرأة أخرى ! وقد ظلّت فريسة لآلام شديدة أثناء غيابه جعلتها تفكر وتقول فى نفسها :

ماذا بى ! هل أحببت وأنا السيدة المتزوجة ؟ هل أصبحت عاشقة ؟! إننى لم أشعر من قبل فى حياتى الزوجية بهذه الحماقة المضلة التى لا أستطيع معها أن أحوّل عن جوليان أفكارى . وهو فى الواقع لا يزال طفلا يجلنى كل الأجلال ! هذا جنون عارض ! وماذا يضير زوجى مهما تكن العواطف التى أكنها لهذا الشاب ؟ وزوجى لا يحب هذا اللون الخيالى من الحديث الذى يدور بينى وبين جوليان ، لأنه لا يعنى إلا بأعماله ومصالحه ، إذن فأنا لا أعطى جوليان شيئاً على حساب زوجى .

هذه النفس الساذجة الطاهرة التى أغراها الحبّ للمرة الأولى لا تعرف النفاق وقد ضلت دون أن تشعر ، لكن الفضيلة التى طبعت عليها نفسها

ظلّت قلقة مرتاعة ، وكان هذا هو الصراع القائم فى نفسها حين ظهر چوليان فى الحديقة ، وسمعته يتكلم و يتخذ له مقعداً بجوارها ؛ فسعدت بذلك سعادة عجبت منها أكثر ممّا فُتنت بها . لم تكن تتوقع شيئاً مما حدث ، على أنها بعد لحظات قليلة قالت فى نفسها : أيكفى أن يُرى چوليان ليغتفر له الناس كل خطاياه؟ وارتاعت لهذه الفكرة فانتزعت يدها منه .

كانت تلك القبلات الحارة ، التى لا عهد لها بها ، قد أنستها بغتة أن صديقها ربما أحبّ امرأة أخرى فصفحت عنه تماماً . ولمّا زايلها ألم الشكّ المرير ، وسيطرت عليها السعادة التى لم تعرفها حتى فى أحلامها ، غمرتها موجة من الحب القوى والمرح الشديد . وسرّ الحاضرون بالسهرة الطيبة إلاّ السيد دى رينال الذى ما فتئ يذكر أولئك الذين درّت عليهم الصناعة مالاً كثيراً . ونسى چوليان طموحه القائم ، فلم يعد يذكر مشروعاته التى لا يستطيع تنفيذها بسهولة . ورأى نفسه تحت سلطان الجمال لأول مرة فى حياته ، وسبح فى أحلام غامضة لذيذة لا عهد له بها من قبل ، فأخذ يضغط ضغطاً خفيفاً على تلك اليد الجميلة التى فتنته . ولم يعد يسمع حركة أوراق الزيزفون التى تحركها ريح الليل ، ولا كلاب طاحون نهر الدو التى يسمع نباحها من بعيد .

على أنّ شعوره هذا كان لذّة ولم يكن عاطفة ! ولما عاد إلى غرفته لم يفكر إلا فى سعادة واحدة وهى أن يكبّ على قراءة كتابه المختار ؛ ومن كان فى سنّ العشرين لا يُعنى إلاّ بشىء واحد هو كيف يعيش فى العالم وكيف يترك فيه أثراً .

وتخلّى عن كتابه المحبوب بسرعة لأنه دائم التفكير فى انتصارات نابليون . ولمح فى الانتصار الذى أحرزه لوناً جديداً فقال فى نفسه : نعم لقد كسبت معركة ، وعلىّ أن أستفيد من هذا النصر . ينبغى أن أسحق كبرياء هذا الرجل الذى يعدّ من طبقة الأشراف ، منتهزاً فرصة تقهقره — هذا هو نابليون بعينه قطعاً — يجب أن أطلب إجازة لمدة ثلاثة أيام أقضيها عند صديقى فوكيه ، وإذا رفض طلبى فاوضته من جديد ، ولا بدّ أنه سيستجيب إلى ما أطلب .

أمّا مدام دى رينال فلم يغمض لها طرف طول ليلتها ؛ وخيّل إليها أنها لم تنعم بالحياة قبل اليوم ، فلم تفكر فى غير هذه السعادة التى غمرتها حين كان جوليان يطبع على يدها قبلاته الحارة القوية .

لكنّ فكرة واحدة وثبت إليها فى صورة كلمة واحدة شنيعة : زانية ! وسرعان ما صوّرت لها الكلمة أبشع الرذائل التى يجرّها حبّ الشهوة ، وازدحمت فى رأسها الصور الأليمة وغذّاها خيالها ، وزاد فى قوتها ووضوحها . وقد حاولت تلك السيدة أن تستبقى فى ذاكرتها الصورة الرقيقة التى رسمتها لنفسها عن جوليان ، وعن السعادة التى يضفيها عليها حبه ، لكن المستقبل أخذ يظهر لها فى صورة كريهة حتى رأت نفسها — سلفاً — مهينة حقيرة .

لحظات قاسية شديدة الوطأة على نفس مدام دى رينال ، سبحت روحها بعدها فى أماكن مجهولة . لقد شعرت بسعادة كبيرة تملأ نفسها بالأمس ، ولكنّها الآن فريسة لأشد الآلام قسوة . لم تكن تفكر فى هذا العذاب المرّ الذى بلبل خاطرها ، وخطر لها أن تفضى إلى زوجها

بأنها تخشى أن تحبّ چوليان . لـكنها تذكرت — لحسن الحظ — قاعدة تعلمتها من عمتها ليلة زواجها وهى أنّ من الخطر أن تعترف المرأة لزوجها بما يدور فى نفسها لأن الزوج سيّد متسلط . واشتدّ بها الألم فجعلت تقلب كفّيها .

تراءت لها صور متعارضة مؤلمة ، فـكانت تخشى تارة ألاّ تـكون محبوبة ، وتخشى تارة أخرى فـكرة الجريمة والخيانة ، كما لو كانت ستشدّ فى الغد إلى عمود بميدان قربير وبجوارها لوحة كبيرة تعلن للغوغاء جريمة الزنا التى ارتـكبتها .

هى امرأة لا تعرف شيئاً من تجارب الحياة وليس لها خبرة بأمورها ، يستوى عندها حتى فى أشد حالاتها يقظة وانتباها أن تـكون مذنبة أمام الله أو أمام الناس ، فهى تخشى الله خَشيتها ضجة يثيرها الناس من حولها لزلة أو جريمة .

وما تـكاد تهدأ عن مساورتها فـكرةُ الجريمة وما تجره عليها من ذيول العار والفضيحة وتعود إلى تفـكيرها فى حياة سعيدة بريئة تحياها مع چوليان فى المستقبل كما كانت معه فى الماضى ، حتى لا تلبث أن تقع فريسة لهذه الفـكرة المخيفة وهى أن چوليان يحب امرأة سواها . كان شحوبه لا يزال ماثلا أمام عينيها حين خاف على صورة حبيبته الضياع أو الفضيحة إن رآها الناس . ورأت للمرة الأولى الرعب والفزع يظهران على وجهه الهادىء النبيل . على حين أنه لم يبد مثل هذا التأثر خوفاً عليها أو على أولادها .
وزاد هذا الخاطر من آلامها التى وصلت إلى حدّ لا تحتمله نفوس البشر ،

وأخذت تصيح بغير وعى حتى استيقظت وصيفتها ، ورأت مدام دى رينال بعد قليل ، وعلى مقربة من فراشها ، ضوءاً تحمله إليزا فصاحت وهى تحت سلطان جنونها :

— أهى أنت التى يحبها ؟

وشدّ ما ذهلت الوصيفة حينما رأت اضطراب مولاتها ، ولكنّها — لحسن الحظ — لم تنتبه إلى تلك العبارة الغريبة التى قالتها إذ شغلها عن ذلك ذهولها . وأحسّت مدام دى رينال ماوقعت فيه من حماقة فقالت :

— إننى محمومة ، و يخيل إلىّ أننى أهذى ، فكونى على مقربة منى .

وجعلها وجود إليزا تتغلب على أفكارها ، فشعرت ببعض الراحة ، وثاب إليها رشدها تماماً بعد أن كاد يفلت منها زمامه وهى تحت سلطان غفوتها . ثم رأت وصيفتها تحملق فى وجهها ، فتخلصت من نظراتها بأن أمرتها أن تقرأ لها الجريدة ، فأخذت الفتاة تقرأ مقالا طويلا أتاح للسيدة فسحة من الزمن تتخذ فيها قراراً لا يخلو من عفاف وفضيلة ، إذ عزمت وهي تسمع صوت وصيفتها الملّ على أن تعامل جوليان حين تراه معاملة فاترة خالية من كل تودّد !

الفصل الثاني عشر

رحــلة

[يرى المرء فى باريس أناسا متأنقين ، وقد يرى
فى الريف أنـاسـا على خلق عظيم .]

سييس

استطاع چوليان أن يحصل فى الساعة الخامسة من اليوم التالى على إجازة ثلاثة أيام منحها اياه السيد دى رينال ، وكانت زوجه لا تزال فى مخدعها ، وأحس الشاب رغبة فى لقائها لأنه لا يزال يفكر فى يدها الجميلة : فنزل إلى الحديقة ليلقاها ، لكنها عمدت إلى أن تطيل مدة انتظاره . ولو كان چوليان يحبها حقا ، لرآها حين أسندت جبهتها على الزجاج ، وهى فى الطبقة الأولى خلف مصراع نصف مفتوح ، وأخذت تنظر إليه طويلا . وعلى الرغم من قرارها السابق نزلت إلى الحديقة لتلقاه ، وتورد وجهها الذى ما فارقه الشحوب من قبل .

هذه السيدة الساذجة كانت مضطربة ولاشك . . . ملكت نفسها مشاعر الكبت والغضب فغيرت طابع السكون العميق الذى يرتسم عادة على وجهها ، ويوحى باحتقار كل ماهومادىّ وضيع ، ويطبع وجهها الجميل بطابع روعة وفتنة .

رآها چوليان فهرول إليها ، وتأمل جمال ذراعيها تحت شال وضع على تعجل فما حجب جمالها عن الأبصار . كان هواء الصباح منعشا فزاد بهاء وجهها الذى أفاضت عليه اضطرابات الليل حساسية شديدة ، فأصبح

أكثر قابلية للانفعال ، يظهر عليه كل شيء واضحا جليا . وفعل الجمال المتواضع العميق ، الذى ينطوى على رأى وحس لا يكون فى الطبقة الدنيا، فعله فى چوليان فكشف عن ناحية فى نفسه لم يكن يعرفها . كان معجبا بجمالها ، يمنى نفسه بلقاء ينطوى على الحب والعاطفة المشبوبة ، لكنه ذهل من هذا الفتور الذى لقيه من مدام دى رينال لأنها حاولت ألا يظهر على وجهها شيء مما تلقاه من حب وعذاب ، فأفلحت ، حتى اعتقد چوليان أنها ترمى إلى أن تفهمه حقيقة وضعه منها . ماتت على شفتيه ابتسامة الفرح ، وتذكر بغتة مكانته من المجتمع ، وعلى الأخص فى نظر هذه السيدة الغنية التى ترث ثروة طائلة ، فتجهم وانطبعت على وجهه آيات الكبر والغضب ، وحنق على نفسه كثيرا وندم على أنه أخر موعد رحيله أكثر من ساعة ؛ فلم يجد إلا لقاء فيه تحقير ومهانة . وقال فى نفسه : ليس فى العالم أشد حمقا من رجل يغضب على الآخرين ، إن الحجر ليسقط على الأرض لأنه ثقيل ، فهل كتب علىّ أن أظل طول حياتى طفلا صغيرا ؟ متى أتعلم هذه العادة الحسنة فأبذل من نفسى لهؤلاء الناس بمقدار ما آخذ من مالهم ؟ و إذا أردت أن أكون موضع تجلة منهم ومن نفسى ، فعلىّ أن أظهر لهم أن فقرى هو الذى كتب علىّ أن أعيش معهم ليستظل بغناهم ، أما قلبى فهو عنهم جد بعيد لا تستطيع قحتهم أن تناله بسوء ، إنه فى كوكب عالٍ لايصل إليه ما يبذلونه من إكرام أو ما يظهرونه من احتقار . وأفاضت على وجه المعلم الشاب هذه المشاعر التى ازدحمت فى نفسه، أمارات تدل على القسوة والكبرياء المجروحة ، اضطربت لها مدام

دى رينال اضطرابا شديدا ، فتبدّل فتورها الذى جعلته وسيلة للمحافظة على عفافها حين لقيت چوليان ، إلى رغبة حقه فى معرفة ما دهاه ، ولم تغيّر فجأة هذا التغيّر ؟ وانتهت بغتة أحاديث الصباح التافهة التى تتناول الصحة وجمال الجو ، فلم يجد أحدهما ما يقوله ، لكن چوليان كان أكثر منها ثباتا لأن أعماله لم تكن عن عاطفة مشبوبة ، فوجد سبيلا سريعا إلى أن يقول لها : إنه لا يؤمن بصداقة تقوم بينهما . ولم يحدثها عن الرحلة التى سيقوم بها ، ثم حياها وانصرف .

وبينما كانت تنظر إليه وهو يغادر الحديقة — حزينة كاسفة البال لكبريائه القاسية التى نمّت عنها نظراته اليوم ، وقد كانت بالأمس ظريفة رقيقة — جرى إليها ابنها الأكبر من أقصى الحديقة وقبّلها قائلا :

— نحن فى عطلة لأن السيد چوليان مسافر فى رحلة .

وبعد أن سمعت هذه العبارة شعرت ببرودة قاتلة تسرى فى جسدها ، لقد كانت شقية لتمسكها بالفضيلة ، وكانت بضعفها أكثر شقاء .

واستولى هذا الحادث الجديد على تفكيرها كله ، فجعلها تتراجع كثيرا فى القرارات الحكيمة التى كانت وليدة ليلتها الليلاء ، ولم تعد المسألة لديها أن تقاوم رغبات معشوقها الظريف ، بل فى أن تتخلص تماما من سلطانه عليها .

كان عليها أن تتناول الغداء مع من تعيش معهم ، فزاد فى ألمها أن حديث زوجها ومدام درڤيل وقت الغداء لم يكن إلا عن رحيل چوليان ، وذكر العمدة أن لهجة چوليان وهو يطلب الإجازة كانت حازمة غير عادية . ثم أردف :

— مما لاشك فيه أن لدى الشاب الريفي مقترحات أغراه بها شخص آخر . وإذا كان هو ڤالنو فلا بد أن سيشعر بخيبة كبيرة حين يعلم أن مرتب المعلم أصبح ستمائة فرنك سنويا . ويخيل إلىّ أن ڤالنو قد طلب منه بالأمس في ڤريير مدة ثلاثة أيام يفكر فيها . وأراد السيد الصغير في هذا الصباح أن يفرّ مني حتى لا يخبرني بما استقرّ عليه رأيه فيما عرضت أنا عليه ، فذهب إلى الجبل . وقد وصلت بنا الحال إلى حدّ أننا أصبحنا مضطرين إلى مداراة عامل بائس أخذ يظهر السفاهة والقحة وعلينا نحن أن نتحمل سوء أدبه !

فقالت مدام دى رينال في نفسها عند ذلك : لقد جهل زوجي مقدار ما أساء به إلى چوليان ومع ذلك ظنّ أنه سيتركنا ، فماذا يكون أمرى أنا معه ؟

آه ! لقد رُسم كل شيء !

ولكي تستطيع البكاء في حرية ، وتفرّ من أسئلة مدام درڤيل ، ادعت أنّها تعاني صداعا شديدا ، ثم قامت إلى فراشها . ولم يفت زوجها أن يسخر منها قبل خروجه قائلا لها :

— هكذا شأن النساء ، و إن في هذه الآلات المعقده دائما بعض الخلل .

وبينما كانت مدام دى رينال فريسة لأقسى آلام الحب الذى دفعتها إليه الظروف دفعا فاستولى على كلّ مشاعرها — كان چوليان يشقّ طريقه مرحا بين المناظر الجبلية الرائعة ليعبر سلسلة الجبال العالية الواقعة شمال ڤرچي ، وكان الطريق الذى يسلكه يعلو شيئاً فشيئاً بين

غابات الزان الباسقة ، ثم يكوّن طرقا كثيرة ملتوية فوق منحدر الجبل العالى الواقع فى شمال وادى نهر الدو . وتمرّ نظراته من فوق التلال القليلة الإرتفاع التى تشمل مجرى نهر الدو إلى الجنوب فتقع على السهول الخصيبة فى بورجونيا وبوجوليه . وإن تكن نفس هـذا الشاب الطموح قليلة التأثر بهذا اللون من الجمال ، فإنه كان لا يملك إلاّ أن يقف بين حين وحين ليلقى نظرة على المنظر الشاسع الذى يترك فى النفوس أجمل الآثار .

وأخيرا وصل إلى قمة الجبل العالى القريب من ذلك الطريق المعترض الذى يؤدى إلى الوادى المنعزل حيث يسكن صديقه فوكيه تاجر الأخشاب .

ولم يكن چوليان يتعجّل لقاء صديقه ولا مقابلة إنسان فى هذا الوجود .

كان مختفيا بين الصخور العارية كأنه طائر جارح ، يرى من أعلى الجبل كلّ من يقترب منه مهما يكن بعيدا . واكتشف كهفا فى منحدر يكاد يكون عموديا فى صخرة من الصخور ، فقصد إليه ثم جلس فيه ، ولمعت عيناه ببريق السرور ، وجعل يحدث نفسه : أنا هنـا بعيد عن أذى الناس جميعاً . . .

وملكه شعور قوىّ فأخذ يدوّن أفكاره فى لذة كبيرة ، وإن كانت آراء شديدة الخطورة عليه ! واستعان على الكتابة بحجر مربع جعله درجا يستند عليه ، ثم شغلته الكتابة عن كل شىء حوله ، إلى أن رأى الشمس تغرب خلف الجبال البعيدة فى بوچوليه .

فساءل نفسه : لماذا لا أقضى ليلتى هنا ومعى الخبز وأنا حرّ طليق !

وصافحت أذنه كلمة الحرية فسبحت نفسه فى عوالم أخرى ، فقد أوحى

إليه نفاقه أنه لن يكون حراً حتى فى منزل صديقه فوكيه . وظل جالساً ورأسه بين يديه تغمره سعادة لم يظفر بها فى حياته ، وتسيطر عليه أحلامه ونشوة الحرية . ثم رأى أشعة الشمس تخبو شعاعا بعد شعاع حتى غطى السكون ظلام دامس ، فظلّت نفسه فى تأمل ما كان يصوره له خياله مما سيلقاه فى باريس يوم أن يعيش فيها . تصور باريسية جميلة أنيقة ظريفة لم ير مثلها فى الريف ، تحبّه ويحبها ، وإذا غاب عنها بعض الوقت فماذلك إلا ليتستكمل مجده ليصبح جديراً بأن تفنى فى حبه .

ولو أن شاباً له خيال چوليان نشأ بين الحقائق المرة التى نشهدها فى مجتمع باريس ، لأصابه خزى عظيم حينما يصل إلى تلك النقطة من القصة التى ينسجها خياله ، ولاختفت تلك الأعمال المجيدة كما يختفى الأمل فى تحقيقها ليحل محلها المثل السائر الذى يعرفه جميع الناس : إنّ الرجل حين يفارق خليلته يتعرض بكل أسف إلى أن تخونه فى كل يوم مرتين أو ثلاثا ! وهذا الشاب القروىّ يؤمن بأن الشىء الوحيد الذى يحول بينه وبين الأعمال المجيدة هو أن الفرصة لم تتح له بعد .

واختفى النور وحلّ الظلام الحالك ، وكان على چولياز أن يقطع فرسخين حتى يصل إلى كوخ صديقه فوكيه . وهمّ بمغادرة الكهف فأشعل نارا وأحرق بعناية كل ما كتبه . ثم وصل إلى صاحبه فى الساعة الواحدة صباحا ، فعجب فوكيه من وصوله فى هذه الساعة المتأخرة وإن كان هو لايزال مكبّا على كتابة حساب أمواله . وفوكيه شاب طويل القامة ، قبيح الوجه ، له تقاطيع كبيرة خشنة ، وأنف ضخم ؛ إلاّ أن قبحه يخفى

من ورائه سذاجة غير قليلة فطر عليها . وما كاد يرى چوليان حتى قال له :

— هل فسد الأمر بينك و بين السيد دى رينال حتى أتيت على غرة فى هذه الساعة ؟ فقصّ چوليان بطريقته حوادث أمسه وماجرى بينه و بين العمدة . فقال له فوكيه :

— ابق معى ، فإنى أراك تعرف السيد دى رينال والسيد ڤالنو وموجيرون نائب الحاكم والخورىّ شيلان . لقد استطعت أن تدرك دقائق أخلاق هؤلاء الناس . أنت أعلم منى بالحساب ، وعلى هذا فسأسند إليك حساب تجارتى التى أربح منها ربحا عظيما . غير أن تعذر القيام بكل شىء ، والخشية من أن أقع على لصّ يسرق أموالى — إذا أشركته معى — يمنعانى من أن أقدم على أعمال أستطيعها كل يوم وأربح من ورائها ربحا طائلا . لا يكاد يمضى شهر واحد لا يربح منى فيه ميشو دى سانت أمان ستة آلاف من الفرنكات ، مع أنى قابلته عرضا أثناء ضعفه فى پونتارلييه ، ولم أكن رأيته منذ ستة أعوام . فلماذا لا تكسب أنت هذا المبلغ أو على الأقل نصفه ؟

واليوم الذى تشترك معى فيه سأدخل المزاد فى تلك المجموعة من الأخشاب وسيتخلّى لى عنها المشترون جميعاً ، فلتكن شريكا لى .

غضب چوليان من هذا العرض لأنه صدم غروره وجنونه . ثم أعدّ الصديقان طعامهما بأيديهما كأنهما أبطال هومير ، لأن فوكيه كان يعيش وحده ؛ وأطلع چوليان على حسابه أثناء تناول الطعام ، و بيّن له ما تدره

عليه تجارة الخشب من أموال طائلة . وكان فوكيه يؤمن تماما بذكاء جوليان وقوة خلقه .

وخلا جوليان بنفسه فى غرفة من خشب الصنوبر فأخذ يقول : لا شكّ أننى أستطيع أن أربح هنا بضعة آلاف من الفرنكات ، ثم أنتظم بعد ذلك فى الجيش أو فى الكنيسة وفق ما ستكون عليه أهواء العصر فى فرنسا ! والمال الذى أبتغيه كفيل بأن يذلّل العقبات التى تعترض سبيلى . وحياة العزلة التى سأحياها فى هذا الجبل ستتيح لى أن أتخلّص من بعض جهلى المطبق ، وتمكننى من معرفة ما يدور على ألسنة الناس فى الصالونات . ولكن فوكيه لا يريد أن يتزوج ويؤكد لى أنّ العزلة تشقيه ، ولا شك فى أنه حين يتخذنى شريكا وأنا لا مال لى — إنما يرمى من وراء ذلك إلى أن أبقى معه رفيقا لا أفارقه .

ثم صاح غاضبا : أأخون صديقى ؟

وفى الحق أنه لم يستطع فى هذه المرة أن يقبل فكرة تحمله على ألاّ يكون رقيقاً مع رجل يحبّه ، وإن كان النفاق وانعدام التودّد هما ما يحققان لنفس جوليان السلام . على أنه شعر فجأة بسعادة ، فقد وجد ما يعتذر به لصديقه حين أخذ يحدث نفسه : ماذا ! أأنفق من حياتى سبعة أعوام أو ثمانية أعيشها وضيعاً ! ويصبح عمرى بعد ذلك ثمانية وعشرين عاماً وهو العمر الذى انتهى فيه نابليون من القيام بأمجد الأعمال ! حينما أكسب

مالا بطريقة مجهولة من متابعة بيع الأخشاب ، وكسب مودة بعض اللصوص من المرءوسين ، فمن يضمن لى أنّ النار المقدسة التى تتيح للمرء أن يبنى مجده تظلّ متأججة فى صدرى لا تخبو حرارتها ؟

وفى اليوم التالى اعتذر چوليان فى هدوء لصديقه الطيب ، وأخبره بأن ميله إلى الانخراط فى سلك رجال الدين لا يسمح له أن يشتغل بالتجارة . وكان فوكيه قد بات ليلته معتقداً أنّ چوليان قد أصبح شريكه ، فذهل عند ما جابهه بهذا الرأى . وقال له :

— أتعلم أننى حين أشركك معى فى تجارتى ستأخذ أربعة آلاف فرنك فى السنة ؟ ومع ذلك تأبى إلا أن تعود إلى هذا السيد دى رينال الذى يحتقرك كما يحتقر طيناً عالقاً بحذائه . وحينما تحصل على مبلغ مائتى لويس فما الذى يمنعك من أن تدخل المدرسة الأكليريكية ؟ وإنى أعدك بأكثر من هذا ، فأتعهد لك بأن تسند إليك أحسن وظيفة لخورى فى هذا الإقليم بأسره . ثم استطرد يقول بصوت منخفض : وذلك لأنى أقدم أخشاب الوقود إلى السيد . . . . وإلى السيد . . . . وإلى السيد . . . . وهى من الزان الجيد ، لكنهم يدفعون ثمناً بخساً ، ثمن الخشب الأبيض ، ولكن لا يمكن أن يستثمر المال بأحسن من هذا أبدا .

ولم يعدل چوليان عن رأيه على الرغم مما قاله صديقه ، فظن فوكيه أن به لوثة فى عقله . وحلّ اليوم الثالث فغادر چوليان صديقه فى ساعة مبكرة ليقضى يومه بين صخور الجبل العالى . ووصل إلى كهفه الصغير هذه المرة

وهو غير هادئ النفس لما عرضه عليه صديقه . ولم يكن فى هذه المرة مثل هرقل متردداً بين الفضيلة والرذيلة ، بل كان متردداً بين أن يعيش مغموراً عيشة تضمن له لوناً من الرخاء ، وبين أحلام البطولة التى يتطلع إليها شبابه . قال فى نفسه : لم أوهب بعد صلابة قوية ولا حزماً صحيحاً —وكان هذا هو الشك الذى يسبب له أذى شديداً — فأنا لست إذن من طينة العظماء ما دمت أخشى أن أمضى ثمانية أعوام فى تحصيل قوتى فأفقد بهذا نشاطاً فياضاً هو السر فى كل الأعمال الخارقة المجيدة .

الفصل الثالث عشر

الجوارب الأنيقة

[القصة مرآة يجتلى فيها الإنسان حوادث الحياة طوال عمره] .

سان ريال

لما رأى چوليان وهو فى ڤرچى الآثار الرائعة التى خلفتها الكنيسة القديمة ، فطن إلى أنه لم يفكر فى مدام دى رينال مرة واحدة منذ يومين ، فقال فى نفسه : لقد ذكرتنى هذه المرأة منذ يومين قبيل رحيلى بالفرق الشاسع الذى يفصل كلاّ منا عن الآخر ، فقد أشعرتنى بأنى ابن عامل ، لتظهر لى — ولا شك — ندمها على أن تركتنى أقبل يدها وأضغط عليها ليلة رحيلى . ولكن كم هى جميلة هذه اليد ! كم هى ظريفة ! وكم تنطوى نظرات هذه السيدة على نبل عظيم !

وأصبح چوليان أهدأ تفكيرا منذ أن أتيحت له فرصة الثراء لو عمل مع صديقه فوكيه ، ولم يعد يغضب للفكرة التى تسلطت عليه من قبل وهى أنه فقير وضيع فى نظر كل الناس . وأضحى كمن يقف فوق قمة عالية يستطيع الحكم على مايسميه فقره المدقع ويتحكم فيه وهو ينظر إلى السعة التى يعدها غنى . ومع ذلك كله كان بعيداً عن أن يكون فيلسوفاً ، لكنه أحس ببعض حذق كسبه من رحلته فى الجبل .

أذهله الاضطراب الذى سيحدث لمدام دى رينال حين تصغى إلى قصة رحلته عندما تطلب منه أن يقصها عليها .

كان فوكيه قد تحدث إلى چوليان عن مشروعات زواجه وعن حبه العاثر ، وأفضى إليه فى ذلك باعترافات طويلة شغلت حديث الصديقين كله . وأخبره بأنه سعد بالحب فى سن مبكرة ولـكنه اكتشف أنه لم يكن هو المحبوب وحده .

أثارت هذه القصص دهشة چوليان وعلمته أشياء جديدة كثيرة ، وكانت حيـاة العزلة القائمة على الخيال والحذر من الناس قد حرمته كل ما تستنير به البصيرة .

كانت مدام دى رينال فريسة لآلام شديدة أثناء غيابه عنها حتى لم تقو على احتمالها فرضت ؛ ولما عاد قالت لها مدام درڤيل :

— إن حالتك لاتسمح لك بالنزول إلى الحديقة هذا المساء ، فرطوبة الجو تزيد فى تعبك .

وتطلعت مدام درڤيل فى عجب شديد إلى تأنق صديقتها ؛ فقد لبست جوارب أنيقة وحذاء صغيراجميلا اشترته من باريس، وكانت من قبل لاتهتم بشىء من ذلك حتى أنبها زوجها على بساطة ثيابها . وكانت مكبة منذ ثلاثة أيام على حياكة ثوب جديد من نسيج جميل استهوى ذوق النساء فشاع بينهن . واستحثت إليزا فى إنهاء هذا الثوب الصيفى الرائع ، فانتهت منه الوصيفة قبل وصول چوليان بلحظات قصار ، ثم ارتدته مدام دى رينال فى الحال . لذلك أصبح شك مدام درڤيل يقينا وقالت فى نفسها : إنها تحبه فيالها من بائسة ! ثم أدركت سرّ ما كان يعتريها من مظاهر عجيبة للمرض .

رأتها تحدّث چوليان وقد تبدلت حمرتها الشديدة صفرة ، و بان القلق

فى عينيها اللتين شخصتا إلى عينى المعلم الشاب زمناً طويلا وصبرها نافذ لتعرف ماعزم عليه: أيغادر منزلهم ؟ أم، ياترى، سيبقى معهم؟ ولم يكن چوليان قد فكّر فى هذا الأمر ، فلم يذكر عنه شيئاً . و بعد صراع نفسىّ شديد جرؤت هى على أن تسأله فى صوت مضطرب يحمل مافى قلبها من حب شديد له :

— هل ستترك تلاميذك لتعمل فى جهة أخرى ؟

فذهل لاضطرابها ونظراتها ، وقال فى نفسه : هذه المرأة تحبنى، ولكن كبرياءها ستجعلها تندم عمّا قليل على لحة ضعفها الطارئ ؛ و إذا ما اطمأنت إلى مقامى فلا بد أن تعود إلى كبرها من جديد .

وتصور چوليان موقفه فى طرفة عين فتردد قليلا ثم أجابها :

— يعزّ علىّ أن أغادر أطفالا هم على غاية من الظرف وكرم المحتد ، ولكنه يخيل إلىّ أنى سأضطر إلى ذلك اضطراراً ، لأن لكل إنسان واجبات نحو نفسه . ونطق تلك الكلمات التى تعلّمها حديثاً مما يتردد غالباً على ألسنة الطبقة الأرستقراطية : « كريم المحتد » فملكته الكراهية والبغضاء حتى قال فى نفسه : إننى فى نظر هذه المرأة غير كريم المحتد .

كانت مدام دى رينال معجبة بنبوغه وجماله ، تصغى إلى حديثه وقلبها يرتعد فرقاً من احتمال أن يرحل چوليان عنهم كما لمح لها فى حديثه . وقد تعشّى على مائدتها أصدقاء من ڤريير ، وچوليان غائب فهنئوها بهذا المعلم الشاب الذى يعدّ كنزاً عثر عليه زوجها فى عبارات تنمّ عن حسدهم وغيرتهم ، و إن كانوا لا يعلمون شيئاً مما أصابه الأطفال من تقدّم على يدى

چوليان ، ولا يفهمون من ذلك كثيراً ولا قليلا . لقد كان الإعجاب شديداً بهذا الشاب الذى يحفظ الأنجيل باللاتينية عن ظهر قلب ، وهو إعجاب قد يستمرّ قرناً كاملا عند أهل ڤريير جميعاً .

ما كان چوليان يعلم شيئاً عن إعجاب الناس به ؛ لأنه ما كان يتحدث إلى أحد فى ڤريير . ولو أنّ مدام دى رينال وهبت قليلا من رباطة الجأش لأخبرته بما نال من شهرة وحسن سمعة بين السكان فأرضت بذلك كبرياءه ، ولأصبح معها رقيقاً ظريفاً وبخاصة بعد ما أعجب بثوبها الجديد الذى كان يروقها كما راقها ما قاله لها چوليان . فأرادت أن تتنزه فى الحديقة ، وما لبثت أن قالت إنها غير قادرة على السير فاستندت إلى ذراعه ، ولكنها زادت ضعفاً وفارقها ما بقى من قواها حين أحسّت ذراعه .

كان الليل قد أرخى سدوله ، وما كادوا يجلسون حتى عمد چوليان إلى أن يتمتع بما يعدّه امتيازاً قديماً له ، فأدنى شفتيه من ذراع جارته الجميلة وأمسك بيدها وهو يفكر فى جرأة فوكيه مع خليلاته ، لا فى مدام دى رينال ، لأن كلمة « كريم الأصل » كان وقعها لا يزال ثقيلا على قلبه .

وضُغطت يده لكنه لم يشعر بلذة ، وظلّ جامداً غير شاكر ولا فخور بما تبديه من حركات تعبّر عن الحب ؛ ولم يتأثر بجمالها ولا أناقتها ، كلاّ ولا بسحر ثيابها . ومما لا شكّ فيه أن نقاء النفس وتحرّر المشاعر من البغضاء عامل يطيل أيام الشباب ؛ وأن الشيخوخة تدرك الوجوه أول ما تدرك فى معظم النساء الجميلات .

وظلّ چوليان عابساً طول السهرة ؛ كان غضبه حتى الآن منصباً

على المجتمع والمصادفات ؛ ولـكن منذ عرض عليه صديقه فوكيه تلك الطريقة الوضيعة التى تحقق له الثروة ، انصبّ غضبه على نفسه . كان چوليان غارقاً فى تفـكيره تماماً ، وإن تحدث إلى السيدتين بين الحين والحين ببضع كلمات ، وكان قد تخلّى عن يد صديقته على غير وعى منه ، فتألمت السيدة المسكينة ممّا فعل ، واضطربت نفسها وتـكشفت لها عاقبة أمرها .

لو أنها كانت واثقة من حبه لها ، لدفعتها الفضيلة إلى أن تظهر أمامه بمظهر القوة ، لـكنها اضطربت مخافة أن تفقده إلى الأبد ، وأضلها الحب ضلالا بعيداً حتى حملها على أن تمدّ يدها لتمسك يد صديقها التى كانت ممدودة على ظهر أحد المقاعد ، وهو غافل عن نفسه . فأيقظت بهذا نفس ذلك الشاب الطموح : ودّ لو رأى ما أقدمت عليه صديقته كلُّ أولئك الأشراف المتـكبرين الذين ينظرون إليه وهو بين الأطفال على طرف المائدة المنخفض نظرات متعالية شامخة . ولـكنه عاد يقول فى نفسه : لن تستطيع هذه المرأة أن تحتقرنى بعد ذلك . ولهذا ينبغى أن ألبى نداء جمالها ، وواجبى نحو نفسى يفرض علىّ أن أكون خليلها . ولم يكن مثل هذا ليطرأ على باله ، لولا ما أفضى به صديقه فوكيه إليه من اعترافات تدل على السذاجة .

وسرّى عنه هذا القرار الفجائى بعض ما يلقاه ، فأخذ يقول : علىّ أن أختار إحدى هاتين المرأتين . وودّ لو أنه غازل مدام درفيل ، لا لأنها أجمل من صديقتها ولا أكثر جاذبية ، ولـكن لأنها تعرفت به وهو معلم أكسبه علمه مجداً وشرفاً . أمّا صديقتها فقد عرفته ابن نجار يحمل كساءه تحت إبطه .

لم تره مدام دى رينال ظريفاً كيوم أن أتى إلى منزلها عاملا يافعاً وقف بالباب لا يجرؤ على أن يدقّ الجرس .

وجعل يستعرض موقفه فى ذهنه فانصرف عمّا فكر فيه من مغازلة مدام درفيل التى يحتمل أن تكون قد رأت ما تظهره صديقتها له من حب وهيام ، وعاد إلى التفكير فى مدام دى رينال فقال فى نفسه : ماذا أعرفه عن خلق هذه المرأة ؟ أنا لا أدرى من أمرها إلا أنها انتزعت يدها من يدى قبل رحيلى ، واليوم أنتزع يدى من يدها فتأخذها وتضغطها ، فيا لها من فرصة أرد فيها على احتقارها باحتقار مثله ! ولا يعلم إلا الله عدد عشاقها فى الماضى ! ويخيّل إلىّ أنها إن اتخذتنى خليلا فما ذلك إلا لأننا نتقابل بسهولة .

وهذا مع الأسف ضرر المدنية المبالغ فيها ! لأن الشاب حين يبلغ العشرين وقد أوتى قسطاً من التعليم يحيا حياة بعيدة كل البعد عن سجيته وطبعه ، و بذلك يصبح الحبّ لديه أثقل الواجبات .

وقد شاءت كبرياء هذا الشاب أن يقول فى نفسه : ومما يحملنى على أن أتصل بهذه المرأة ، أننى لو أصبحت فى المستقبل ثريّا وعاب علىّ الناس هذا العمل الوضيع الذى أزاوله ، فإننى سأجعل من اتصالى بها عذراً أعتذر به إلى اللائمين قائلا : إن الحب وحده هو الذى حملنى فى الماضى على أن أكون معلماً .

وانتزع جوليان يده من يدها ، ثم تناولها مرة أخرى وأخذ يضغط عليها ؛ وحين انتصف الليل سألته مدام دى رينال وهما فى طريقهما إلى الصالون بصوت خافت :

— هل ستتركنا حقاً ؟ هل سترحل ؟

فتنهد چوليان مجيباً :

— يجب أن أرحل لأنى أحبك حباً جماً . . . إنها لخطيئة . . . و يالها من خطيئة يقترفها قس شاب !

فاتكأت على ذراعه ومالت عليه حتى أحسّ خدها حرارة خدّه .

كانت لياليهما مختلفة متباينة : فمدام دى رينال تسيطر عليها لذة معنوية قوامها شرف وعفاف . إن الفتاة المدلّة التى تعرف الحب فى حداثتها تعتاد ما يحدثه فى النفس من اضطراب ، وحتى إذا بلغت سن الحب الحقيقى ، فإنها لا تجد فى الحب ما يلقاه المحبون من جدة طريفة . لم تقرأ مدام دى رينال قصصاً من قبل ، لذلك كانت هذه الألوان الدقيقة التى تسبغ عليها سعادة الروح ، جديدة عليها . ولم تطفىء حرارة نفسها حقيقةٌ مرّة ؛ كلا ولا شبح المستقبل . خالت أن سعادة لحظتها هذه ستبقى كذلك لعشرة أعوام مقبلة . وأما تلك الفكرة التى اضطربت لها قبل ذلك بأيام ، وهى فكرة الفضيلة و يمين الإخلاص للسيد دى رينال ، فقد استبعدتها عن خاطرها كلما وثبت إليه كأنما هى ضيف ثقيل ؛ وكم حدثت نفسها قائلة : لن أسمح لچوليان أن ينال منى شيئاً ، بل سنعيش فى المستقبل كما عشنا منذ شهر ، ولن يكون لى أكثر من صديق .

الفصل الرابع عشر

المقص الإنجليزى

[كانت فتــاة فى السادسة عشرة من عمرها وردية اللون ، ومع ذلك تصبغ وجهها بالأحمر].

پوليدورى

قلق چوليان من اقتراح فوكيه لأنه لم يستطع أن يقرّ فى أمره شيئاً ، وقال فى نفسه : واسوأتاه ! هل فقدت كلّ خلق ؟ لم أكن أصلح جنديا فى جيش ناپليون ؛ على أن تلك القصة الغزلية التى بدأتها مع ربة الدار ستسلّينى بعض الوقت .

ولم تكن نفسه — لحسن حظه — تؤمن بما يقول لسانه عن هذه المسألة التى يعدّها ثانوية ؛ بعث ثوبها الجميل الخوف فى قلبه وكان يعدّه مقدمة لثياب الپاريسيات الأنيقة التى سيراها حين ينزل العاصمة . وحملته كبرياؤه على أن يعدّ لكل شىء عدّته ولا يبت فى أمر بما يكون عفو الخاطر . ففكرّ فى رسم مفصل لهذه المعركة على ضوء الاعترافات التى سمعها من فوكيه ، وما قرأه من قصص عن الحبّ فى الإنجيل . وكان مضطرب النفس غير معترف باضطرابه ، فأخذ يكتب هـذا المنهج المفصل لتلك المعركة الغرامية .

وفى اليوم التالى انفرد بمدام دى رينال فى الصالون فقالت له :

— أليس لك اسم آخر غير چوليان ؟

فهزّه هذا السؤال المدلّل لأنه لم يكن أعدّ العدّة للأجابة عنه فى البرنامج الذى رسمه . ولولا حماقته فى أن أعدّ لكل شىء عدته لأسعفته البديهة والذكاء : وزادت المفاجأة نظراته حدّة وحيوية .

وهكذا فشل فى الرد عليها و بالغ فى الفشل ، لكنها غفرت له لما رأته طويته رقيقة سليمة ، بعد ما اعتقدت أنها الصفة الوحيدة التى تنقصه ليكون رجلا كاملا فى نظرها . كانت تراه ذكيا نابغا إلاّ أنّ طيبة القلب لم تكن من صفاته ، إلى حدّ أن قالت لها مدام درفيل :

— إن معلمك الشاب ليحملنى على كثير من سوء الظن به ، لأنه دائم التفكير ولا يأتى أمرا إلاّ بمقدار ، إنه كثير النفاق .

خجل چوليان ، وعزّ عليه ألاّ يستطيع الإجابة عن هذا السؤال المباغت وأخذ يقول فى نفسه : ينبغى لرجل مثلى أن يتدارك ما وقع فيه من فشل ! وانتهز فرصة انتقالها من غرفة إلى أخرى فاعتقد أنّ واجبه يلزمه أن يقبلها . فلم تكن القبلة مغرية ولا حسنة الوقع فى نفسيهما معاً ، بل كانت من الحماقة بحيث كاد أمرهما يفتضح .

واعتقدت مدام دى رينال أنه مجنون ، فذعرت ونفرت . وذكرتها حماقته بما حاوله معها ڤالنو من قبل ؛ وحدثت نفسها قائلة : إذاً ماذا يحدث لو كنّا فى خلوة ؟ . . .

وعادت إليها الفضيلة كاملة لأنّ الحبّ توارى ، وعملت على أن يكون أحد أبنائها بالقرب منها دائما ؛ فضجر چوليان طول يومه ، وقضى نهاره فى تنفيذ البرنامج الذى رسمه لإغرائها ، ولكنّه لم يحسن التنفيذ . ولم ينظر

إليها مرّة إلا وسألتها عيناه : فيم الغضب ؟ ومع ذلك فلم يكن من الحمق بحيث لم يدرك أنه فشل فى أن يكون ظريفا معها كما فشل أيضا فى إغرائها.

وعجبت مدام دى رينال كثيراً من سلوكه الأحمق الجرىء ، وقالت فى نفسها وهى شديدة الفرح : هذا حياء الحبّ فى نفس الرجل الذكى ! هل أستطيع أن أفهم من هذا أن منافستى فيه لم تحببه ؟

و بعد الغداء ، ذهبت إلى الصالون لتستقبل شاركودى موجيرون نائب حاكم براى . وكانت مكبّة تعمل على منسج صغير مرتفع ومدام درفيل إلى جوارها . وفى هذا الوضع فى وضح النهار، أخذ بطلنا جوليان يضغط بحذائه على قدم مدام دى رينال ، دون أن يهتم بوجود الزائر الغزل الذى كانت الجوارب الأنيقة والحذاء الباريسى الصغير قد جذبت نظراته . ذعرت مدام دى رينال ذعرا شديدا وتركت فى الحال مقصها ولفائف الصوف والإبر تسقط على الأرض لتفسر الحماقة التى ارتكبها جوليان بأنها حركة أراد بها أن يمنع المقص من السقوط حين رآه يفلت . ولحسن حظها سقط هذا المقص الذى كان من صلب انجليزى فانكسر ؛ وكم ندمت لأن جوليان لم يكن على بعد قريب منها وقالت له :

— لقد رأيته قبلى وهو يسقط ، وكان فى استطاعتك أن تتناوله قبل أن يصل إلى الأرض ، لكنك لم تفلح فى استعمال نشاطك كلّه إلا فى أن تركلنى ركلة قوية .

فخدع نائب الحاكم ، ولكن مدام درفيل لم تخدع ، وقالت

فى نفسها : إن لهذا الشاب الجيل حركات حمقاء . ذلك لأن فن الحياة فى إحدى عواصم الأقاليم لا يغتفر مثل هذه الأخطاء . ووجدت مدام دى رينال فرصة مواتية فقالت لچوليان :

— كن حذرا ! وأنا آمرك بهذا .

وأدرك چوليان ما فى عمله من حماقة ، فامتعض وناقش نفسه طويلا ليعرف ما إذا كان ينبغى له أن يغضب من هذه الجملة : « أنا آمرك بهذا » . وكان شديد الغفلة حين دارت فى خلده هذه الفكرة : كان فى استطاعتها أن تقول : « أنا آمر بهذا » .. لو أن الأمر يتعلق بشىء فى تعليم الأطفال ولكن المسألة تتناول الحب ، فكان عليها أن تفترض المساواة تلك التى لا يقوم حب بغير وجودها . وضلت نفسه فى آراء مبتذلة مطروقة وهو يفكر فى المساواة ، وردد قول كورنى غاضبا ، ذلك القول الذى تعلمه من مدام درڤيل منذ أيام : « إن الحب يخلق المساواة ولا يبحث عنها » . ثم أصر بعد ذلك كله على أن يمثل دور دون چوان وإن لم تتح له الفرصة من قبل ليتخذ خليلة واحدة ، فخانه التوفيق طول نهاره . وسئم من نفسه ومن مدام دى رينال . ولم يطرأ على فكره إلا رأى واحد صحيح ، وهو أنه يرتعد ارتعادا شديدا حين يرى نفسه بجوارها فى الحديقة إذا أقبل الليل وخيم الظلام .

فطلب من السيد دى رينال أن يسمح له بالذهاب إلى ڤريير ليرى الخورى . وغادر المنزل بعد العشاء ولم يعد إلا فى ساعة متأخرة من الليل .

قابل چوليان الأب شيلان فرآه مكبّا على نقل أثاثه ، لأنه عزل من منصبه وحلّ محله الخورى مالون . وساعد چوليان صديقه الشيخ ، ثم كتب إلى فوكيه خطابا يقول فيه إنه رفض أول الأمر عروضه السخية لتعلقه بأمور الدين ولرغبته فى أن يكون من رجال الكنيسة ؛ ولكنه رأى اليوم مثلا من أمثلة الظلم الصارخ ، ربما حمله على أن يعدل عن رأيه و يقبل ما اقترحه عليه .

وهنأ نفسه بأنه أفلح فى أن يتخذ من فصل خورى ڤرييرّ عبرة جعلته يحرص على أن يظلّ الباب مفتوحاً فيشتغل بالتجارة إن تغلبت فى نفسه نزعة الحذر المبتئس على نزعة البطولة .

الفصل الخامس عشر

صياح الديك

[الحب فى اللاتينية يسبب الموت ؛ فالموت إذاً يأتى من الحب . أما ما قبل الموت فتعب مضن ودسائس ونوح وألم ودموع ...]

هجاء الحب

لو رزق چوليان شيئاً من اللباقة التى يعتقد أنه فُطر عليها ، لهنّأ نفسه بما تركته رحلته إلى ڤرييرمن أثر فى نفس صديقته ، فقد أنساها غيابه حماقته وسفهه و إن ظلّ مكتئباً طول يومه . وحلّ المساء فبدا له رأى غريب أخبر به مدام دى رينال فى جرأة شديدة .

إذ ما كادوا يجلسون فى الحديقة حتى اقترب منها چوليان ، ولم ينتظر ظلمة الليل فجعلها عرضة للأحاديث ، ثم أدنى فمه من أذنها قائلا لها :

— سأحضر الليلة فى الساعة الثانيـــة إلى غرفتك لأفضى إليك ببعض الأخبار .

كان مضطرباً أشد الاضطراب خشية ألاّ تجيب طلبه ؛ وكان دور الأغراء الذى يمثله قد أرهقه أشدّ الأرهاق ؛ ولو أنه استمع إلى نفسه لذهب إلى غرفته وأقام فيها بضعة أيام حتى لا يرى هاتين السيدتين .

وقد أدرك أنّ سلوكه المتكلّف بالأمس لم يكن موفّقا ، حتى أضاع الأثر الجميل الذى تركه فى نفس صديقته فى اليوم السابق ؛ وقد كان فى الواقع شديد الحيرة لا يدرى ما يفعل .

ردّت مدام دى رينال على طلب صديقها ردّ المغيظ المحنق ، وكانت صادقة فى سخطها على ما جرؤ فخدشها به . وظن أنّ ردها الموجز ينطوى على الاحتقار حتى كاذ يجزم بأن جوابها الموجز الخافت الهامس ما كان إلا أن قالت : أفٍّ لك !

فنهض من مكانه متعلّلا بأنه سيتحدث إلى التلاميذ ثم ذهب إلى غرفتهم . ولما عاد إلى الحديقة جلس بجانب مدام درفيل وعلى بعد واسع من مدام دى رينال ، يطمئن معه تماماً إلى أنه لن يمسك يدها . واتخذ الحديث صبغة جدية فأجاد فيه جوليان كل الإجادة . وكان يسكت بين لحظة وأخرى ليعمل فكره وهو يقول فى نفسه : ألا أستطيع أن أجد سبيلا واضحاً يحملها على أن تصارحنى بالحب ، إنها جعلتنى أعتقد منذ ثلاثة أيام أنها رهن إشارتى !

كان مضطرباً لفشله اضطرابا عظيما ، وكان أخوف ما يخافه ألا يصادف ما يطمع فيه من نجاح . وآذنت ساعة الفراق فى منتصف الليل ، فحمله التشاؤم على الاعتقاد بأن مدام درفيل تحتقره وربما كان موقفه مع مدام دى رينال ليس خيراً من هذا .

أوى إلى مخدعه ولكنه لم ينم لما شعر به من خيبة شديدة . كلّ هذا ولم يفكر أبداً فى أن يترك التكلف والحيلة ومارسمه من مشروعات ليعيش معها يوماً ما قانعاً بالسعادة التى يجلبها له النهار كما يفعل الأطفال .

لقد أجهد نفسه وعقله فى اختراع خطط خالها محكمة ، حتى إذا ماطبقها

تبيّن له أنها فاشلة لاتغنى عنه شيئاً . ودقت ساعة القصر الثانية صباحاً ، فاستيقظ شديد التعاسة .

أيقظته دقاتها كما كان صياح الديك يوقظ القديس بطرس ، فرأى نفسه مُقدماً على أحرج عمل يعمله . ولم يكن قد فكّر فى هذا الاقتراح السفيه منذ اللحظة التي عرضه فيها ، والذى قو بل منها أسوأ مقابلة !

جعل يحدث نفسه وهو ينهض من فراشه : لقد أخبرتها بأنى سأذهب إلى مخدعها فى الساعة الثانية ، وقد أكون قليل الخبرة فظاً كما يكون ابن فلاح . لقد عرّضت لى بذلك مدام درفيل ، ولكننى على الأقل لن أكون ضعيفاً .

وكان جوليان على حقّ فى أن يطرى شجاعته لأنه لم يقدم فى حياته على أخطر من هذه المحاولة . واضطرب وهو يفتح باب غرفته ، حتى كادت تخذله ساقاه فاضطر إلى أن يستند إلى الحائط .

كان حافى القدمين حين ذهب إلى غرفة السيد دى رينال ليتسمّع على بابه ، فسمع غطيطه فى النوم فآسفه أن لم يعد هناك عذر يتذرع به ليعدل عن الذهاب إلى مخدعها . ولكن يا إلهى ! ماذا يبتغى هناك ؟ لم يكن لديه مشروع ، وإذا كانت هناك خطة فإن اضطرابه الشديد جعله فى حالة لاتؤهله لأن ينال ما يبتغى . وعلى الجملة فقد كان اضطرابه أكثر ألف مرة من اضطراب أولئك الذين يساقون إلى الموت ؛ وصل إلى الممرّ الصغير المؤدى إلى غرفة مدام دى رينال . وفتح الباب بيد مرتعشة فأحدث جلبة شديدة .

ورأى فى الغرفة ضوءاً من مصباح صغير سهر على المدفئة ، فكان وجوده سوء حظ جديد . وأبصرته يدخل الغرفة فغادرت فراشها مسرعة غاضبة وصاحت قائلة :

يا لك من تعس ! ثم سادت فترة اضطراب أنسته مشروعاته العقيمة فذكر دوره الحقيقى ؛ واعتقد أنه إذا لم يوفق إلى أن ينال إعجاب هذه الحسناء كان هـــذا عليه بلاء عظيما . لامته ، فلم يكن جوابه على لومها إلا أن ارتمى عند قدميها مقبِّلا ركبتيها . وأغلظت له فى القول فبــكى .

ولما غادرغرفتها بعدذلك بساعات، استطعنا أن نقول كما يقول القصصيون:

لم يعد هناك ما يشتهيه ! وفى الحقيقة أن الحب الذى أوحى به إليها وظهوره الفجائى هما اللذان خلعا عليه ظرفاً أخاذاً وحققا له نصراً ما كان يناله لو أنه عمد إلى مهارته الخرقاء .

على أنه كان فى أسعد لحظاته معها فريسة لـكبريائه الغريبة ، فخيِّل إليه أنه إنما يمثل دور رجل اعتاد قهر النساء و إخضاعهن ، و بذل كثيراً فى سبيل أن يظل يقظاً فأفسد بذلك مافيه من ظرف . و بدل أن ينتبه إلى المشاعر التى خلقها فى نفسها و إلى الوخزات الشديدة التى يحسها ضميره ، ظلّ واضعاً نصب عينيه فـكرة « الواجب » . كان يخشى دائماً أن يبتعد عن الأنموذج المثالى الذى فرض على نفسه أن يحتذيه حتى لا يناله خزى شديد ولا يشعر بتأنيب لاذع من ضميره . وعلى الجملة ، فقد كانت صفاته التى تخلق منه شخصاً ممتازاً هى نفس الصفات التى حالت بينه و بين أن يتمتع بالسعادة وهى تحت قدميه ؛ مثله فى ذلك مثل فتاة فى السادسة عشرة لها وجه نضير ، لـكنها

تحرص على أن تورّد خدّيها بالأحمر قبل ذهابها إلى المرقص .

كانت مدام دى رينال مضطربة منذ عادت إلى غرفتها ، ودخل عليها چوليان فارتاعت ارتياعاً شديداً . ورأت دموعه وما بدا عليه من مرارة اليأس ، فزاد اضطرابها وفزعها . وحتى بعد أن لم يبق هناك ما تضنّ به عليه ، كانت تدافعه عنها فى سخط حقيقى ، ثم تعود فترتمى بين أحضانه . وكان سلوكها فى كل ما تأتيه معه غير خاضع لخطة رسمتها . فظنت إلى أنها اقترفت إثماً عظيما لن يغفره الله لها فأخفت بيديها عن ناظريها صورة جهنم وهى تداعب چوليان أحرّ مداعبة . وموجز القول أن سعادة بطلنا لم يكن ينقصها شىء ، حتى ولا تلك الحساسية الجيّاشة فى المرأة التى ملكها منذ قليل . وظلت نشوتها تهز كيانها على الرغم منها حتى بعد أن خرج چوليان ، كما ظلت تصارع ندماً كان يمزق قلبها .

— يا إلهى ! أهذه هى السعادة ؟ أهذا هو الحب ؟ !

كانت هذه أول فكرة لچوليان حين عاد إلى غرفته .

لقد وقع تحت سلطان الذهول والاضطراب المضل الذى يستولى على النفس حين تنال ماصبت إليه من زمن طويل . لقد تعودت أن ترغب ، ثم لم يعدْ لها ماترغب فيه ، ومع ذلك فليس لها ذكريات بعد . أما چوليان فكان كجندى عاد من عرض عسكرى فجعل يستعيد من جديد تفاصيل كل ما قام به مسائلا نفسه :

هل قمت بما كان يجب علىّ أن أقوم به نحو نفسى ؟ وهل أتقنت تمثيل دورى ؟

وأى دور ؟ إنه دور رجل اعتاد أن يكون موفقاً مع النساء .

الفصل السادس عشر

فى اليوم التالى

[وأدنى شفتيه من شفتيها وتلمس بيده سبائب شعرها المبعثر المتموج .]

دون جوان

لحسن حظ چوليان ولكى يتحقق له الفخر، كانت مدام دى رينال كثيرة الاضطراب والذهول ، فلم تفطن إلى الحماقة التى أتاها هذا الرجل الذى صار فى لحظة واحدة كلّ شىء لها فى الوجود . ولما طلبت منه أن يعود إلى غرفته لأنّ ضوء النهار قد بدأ يظهر قالت له :

— آه يا إلهى ! لو أن زوجى سمع جلبة لضعت إلى الأبد .

وكان لا يزال لدى چوليان وقت يستطيع أن يقول فيه شيئاً ، فتذكر هذه العبارة :

— أتندمين على الحياة ؟

— آه ! إننى أندم عليها الآن كثيرا ! ولكننى لا أندم أبدا على أننى عرفتك .

فرأى چوليان أن من الكرامة أن يعود عامدا إلى غرفته بعد طلوع النهار وألاّ يبدى حذرا .

ثم كسب مزّية جديدة فى نظرها من انتباهه الدائم إليها وتتبع كل

ما تأتيه من أعمال ، فعل ذلك وهو تحت سيطرة فكرة جنونية هى أن يظهر بمظهر الخبير المحنك . ولما رأى مدام دى رينال ساعة الغداء ، كان سلوكه حيالها ينطوى على حذر رائع .

أما هى فكانت لا تستطيع أن تنظر إليه دون أن تشبّ فى وجهها حمرة شديدة ، ولم تكن تستطيع أن تعيش لحظة دون أن تنظر إليه . وفطنت إلى إضطرابه وإلى الجهود التى كان يبذلها ليخفيه ولكنها تزيده اضطرابا . لم ينظر إليها إلا مرة واحدة فأعجبت بادىء الأمر بحذره ، ثم ارتاعت حين لم يحاول النظر إليها مرة أخرى ، وقالت فى نفسها : ألم يعد يحبنى ؟ وا أسفاه ! أنا عجوز بالنسبة إليه ، فالفرق بيننا عشرة أعوام .

وغادرت غرفة الطعام إلى الحديقة فضغطت على يد چوليان حتى أذهلته . هذه الأمارة التى تدل على حب شديد ، فنظر إليها نظرة حبّ لا يقاوم ، لأنه رآها على المائدة أروع ما تكون فتنة وجمالا ، وما أطرق ببصره على الطعام إلاّ ليستقصى محاسنها . وشغلتها تلك النظرة عمّا ألمّ بها ، وإن لم تقض تماما على قلق ساورها وأخفت صوت ضميرها حيال زوجها .

ولم يلحظ هذا الزوج شيئا وهم على المائدة ؛ وكذلك كانت مدام درفيل ، لكنها كانت موقنة بأن صديقتها على وشك السقوط . وظلّت طول يومها تتحدث إلى مدام دى رينال فى جرأة وصراحة مصورة لها الخطر الذى تسير نحوه فى صورة قاتمة وبعبارة غير سافرة .

كانت مدام دى رينال تتحرق شوقا إلى أن تنفرد بچوليان لتسأله هل لا يزال يحبها ؟ وعلى الرغم من الوداعة التى طبعت عليها ، فقد كانت

على وشك أن تصارح صديقتها بأنها لجوج ثقيلة الوطأة . وحلّ المساء وقد رتبت مدام درفيل كل شيء أحسن ترتيب ، فقد جلست فى الحديقة بين مدام دى رينال و بين جوليان . وكان فى ذهن مدام دى رينال صورة طليّة للسعادة هى : أن تتناول يد جوليان ثم ترفعها إلى شفتيها ، ولكنها لم تستطع أن تتحدث إليه بكلمة واحدة . وزاد هذا العائق فى اضطرابها ، فشملها الندم . لقد أنبت جوليان على حماقة الليلة الماضية حين دخل عليها مخدعها ، ومع هذا فقد كانت تخاف ألاّ يأتى إليها الليلة . فغادرت الحديقة فى ساعة مبكرة وذهبت إلى غرفتها . واستولى عليها القلق فذهبت تنصت إلى ما يجرى فى غرفة جوليان ، ولكنها لم تجرؤ على دخولها وإن كانت فريسة للاضطراب والحب . وتذكرت وهى فى موقفها مثلا ريفيا فحكمت على عملها هذا بأنه أحقر الأعمال .

لم يكن الخدم قد أووا جميعا إلى مضاجعهم فاضطرها الحذر أخيرا أن تعود إلى مخدعها . ساعتان من الانتظار كانتا كقرنين من العذاب ! وكان جوليان جدّ أمين على ما سمّاه الواجب ، فلم يشأ أن يتأخر عن تنفيذ ما بدأه خطوة خطوة وفقا للخطة التى رسمها .

ودقت الساعة الواحدة فتسلّل من غرفته ، ثم تأكد أن صاحب الدار مستغرق فى نومه فدخل على مدام دى رينال . ونال فى هذه الليلة من صاحبته سعادة لم تتحقق له فى الليلة السابقة ؛ لأنه نسى أو كاد ينسى أنه يمثل دورا . فكانت له عينان تريان وأذنان تسمعان ، وأحس فى نفسه بعض هدوء حين حدثته عن سنها فقالت :

— وا أسفاه ! أنا أكبرك بعشرة أعوام ! فكيف تحبني ؟

وكانت تألم حقا من هذه الفكرة . لم يكن چوليان قد أدرك بؤسها ، فلما رأى أنه شقاء حقيقي ، كاد ينسى خوفه من أن يكون سخرية .

وذايلته كذلك تلك الفكرة الحمقاء وهى أنه فى نظرها عشيق وضيع ، وذلك لنشأته الحقيرة . ولمّا هدّأ فيض مشاعر چوليان من خجل خليلته ، بدأت تحس شيئاً من السعادة وتواتيها القدرة لتحكم على خليلها . ومن حسن الحظ أنه لم يكن كما كان بالأمس يبدو عليه التطبع المستعار الذى صبغ ليلتهما السابقة بصبغة الانتصار لا بصبغة السرور . لو أنها فطنت إلى أن غايته أن يمثل معها دورا لقضى هذا الاكتشاف المؤلم على سعادتها تماما ؛ ولكنها لم تكن ترى شيئاً إلا تلك الحقيقة المرّة وهى فارق السن بينهما .

ولو أن نظريات الحب لم تكن ترد على خاطر مدام دى رينال ؛ لكنها تعلم أن الفارق فى السن يأتى بعد الفارق فى الثروة ، وهو مثار نكتة فى الريف إذا تحدّث أهله عن الحب .

ومرت أيام قلائل فأصبح چوليان مغرما بها بكل ما أوتى من عاطفة وما فيه من شباب .

وكان يقول فى نفسه : يجب أن أعترف بأن فيها طيبة الملائكة فوق جمالها الرائع .

ثم كاد ينسى فكرة أنه يمثل معها دورا ، وأفضى إليها فى لحظة تجاوبت فيها أنفاسهما بكل ما ينتابه من هواجس . وبهذا الاعتراف بلغ

حبه فى قلبها غايته . فأخذت تفكر فى لذة بالغة وتقول فى نفسها : لم تكن لى غريمة فى هذه السعادة ! ثم جرؤت مرة وسألته عن الصورة التى كان يحرص عليها و يهتم بها فأقسم لها أنها صورة رجل .

كانت إذا خلت بنفسها وفكرت فى هدوء ، يكاد يذهلها أن مثل هذه السعادة موجودة ، وأنها لم تدر بخلدها من قبل ، فتقول :

آه ! ليتنى عرفته منذ عشرة أعوام أيام كنت لا أزال جميلة !

كانت هذه الأفكار لاتخطر على بال چوليان ، لأن حبه لايزال نوعا من الطموح ، وكان السرور يملأ نفسه حين يرى هذه المرأة السرّية الجميلة رهن إشارته وهو الفقير البائس الوضيع .

واطمأن قلبها قليلا حين رآه معجبا بها ينتشى بلقائها ، فلم يعد يقلقها مابينهما من فارق السن . ولو أنها أوتيت من الخبرة بعض ما تعرفه أترابها اللائى يعشن فى أماكن أكثر مدنية لانزعجت حين تعلم أن حبّا يكاد لا يقوم إلا على عنصر المفاجأة وحب الذات ، حب مداه قصير .

وكان چوليان يعجب بقبعاتها وثيابها كثيرا عندما ينسى طموحه ، ولا يملّ أبدا رائحة عطرها الذى يفوح من أردانها فيحمل السرور إلى نفسه ؛ وكثيرا ما كان يفتح صوان ملابسها ويظلّ واقفا أمامه ساعات طويلة ، يتأمل بإعجاب مافيه من جمال وحسن تنسيق . وكانت صديقته تتكىء عليه ناظرة إليه وتشاركه النظر إلى جواهرها وثياب عرسها التى كانت تملأ ليلة الزفاف سلّة من سلال العرس .

وكانت مدام دى رينال تقول فى نفسها بعض الأحيان : ليتنى

تزوجت رجلا مثله ! فيالها من نفس متأججة ! و يالها من حياة سعيدة إلى جواره !

لم يعش جوليان من قبل على مقربة من هذه الآلات المعقدة فى عالم النساء الصاخب . وكان يقول فى نفسه : محال أن أرى فى باريس أجمل مما أراه الآن ! وزالت من نفسه عوائق كانت تحول بينه و بين السعادة ، لأن إعجاب خليلته به فى إخلاص وفرحها بوصاله جعلاه ينسى نظريته الخاطئة التى خلعت عليه سخرية تدعو إلى الشفقة فى اللحظات الأولى لهذا الوصال. وعلى الرغم من نفاقه الفطرى ، كانت هناك لحظات يلذله فيها أن يعترف لتلك السيدة الكبيرة التى تعجب به بجهله كثيرا من صغائر الأشياء . لقد رفعته مكانة خليلته إلى منزلة فوق مستوى نفسه . وأما مدام دى رينال فكانت تجد لذة معنوية كبيرة فى أن توقف هذا الشاب النابغ على حقيقة ما يجهله من تافه الأشياء ، هذا الشاب الموهوب الذى ينتظر له الناس مستقبلا زاهرا . ولم يكتم إعجابه به أحد حتى السيد ڤالنو ونائب الحاكم اللذان أصبحا أقل حمقا . وأما مدام درڤيل ، فكانت لا تشارك المعجبين بجوليان رأيهم . ودخل إلى نفسها اليأس من أمر عرفته حزرا وتخمينا ، ورأت أن النصائح الحكيمة قد أصبحت بغيضة عند امرأة قد عميت بصيرتها حقاً ، فغادرت ڤرجى دون أن تكشف عن عذر لم يطلب منها . ذرفت مدام دى رينال دمعة أو دمعتين على رحيل صديقتها ، ثم ما لبثت أن شعرت بأن سعادتها قد زادت ؛ لأن هذا الرحيل أتاح لها أن تظل طول النهار مع حبيبها وجها لوجه .

وقد أصبح چوليان يجد لذّة فى الجلوس إلى صديقته ، لأنه كلما خلا بنفسه طويلا وثب إلى فكره من جديد اقتراح فوكيه ، ذلك الاقتراح الذى رماه به القدر ، فتضطرب له نفسه .

وفى الأيام الأولى لهذه الحياة الجديدة كانت هناك لحظات يجد فيها ، وهو الذى لم يحب ولم يحببه من قبل إنسان ، يجد السرور اللذيذ فى أن يكون مخلصاً فيكاد يفضى إلى مدام دى رينال بطموحه الذى لما يزل قوام وجوده .

وكثيرا ما ودّ لو استطاع أن يشاورها فيما أغراه به صديقه فوكيه بما اقترح عليه ، لكنّ حادثة صغيرة حالت بينه و بين كل صراحة .

الفصل السّابع عشر

النائب الأول

[كم يشبه ربيع هذا الحب تلك البهجة الخادعة ليوم
من أيام إبريل ، تشرق فيه الشمس بكل جمالها ثم لاتلبث
سحابة أن تخفى معالمه !]

سيدان من فيرونا

وذات مساء والشمس تغرب ، كان چوليان جالسا بجوار صديقته فى أقصى البستان بعيدين عن أعين الرقباء ، غارقا فى أحلامه مسائلا نفسه : تُرى هل تدوم هذه اللحظات السعيدة إلى الأبد ؟ وكان مضطرب النفس لأنه متردد لا يستقر على أمر ؛ وتألم للبؤس القاسى الذى خيّم على مرحلة طفولته ، وأفسد السنوات الأولى من شبابه التدليل الغبى ، ثم صاح قائلا :

— آه ! لقد كان نابليون الرجل الحق الذى أرسله الله إلى شباب فرنسا ! فمن يا ترى سيأتى بعده ؟ وماذا يكون أمر أولئك البائسين بدونه ، بل وأمر أولئك الذين نالوا من المال أكثر مما نلت أنا ؟ ماذا يفعل الذين ليس لهم إلا مال قليل يتيح لهم قسطا وافرا من التعليم ، ولا يسمح لهم بأن يشتروا رجلا فى العشرين من عمره ، ولا يعينهم فى الحصول على منصب ! ثم تنهد تنهدا عميقا واستطرد : ومهما يكن من أمر فإن هـذه الذكرى التى كتبها علينا القدر تحول بيننا و بين السعادة إلى الأبد !

والتفت إلى مدام دى رينال فوجدها متجهمة غاضبة تدل هيئتها

على الفتور والاحتقار ، لأن هذا النوع من التفكير لا يليق فى نظرها إلا بالخدم. نشأت فى بحبوبة من العيش ، فخيل إليها أن چوليان نشأ كما نشأت ، وهذا أمر طبيعى ؛ إنها تحبه أكثر مما تحب الحياة ألف مرة فلم تدخل فى حسابها المال .

لكن چوليان ما كان يعلم شيئا مما يدور بخلدها ؛ رأى تقطيبها فهوى من علياء السعادة ، وأسعفته بديهته ، فحوّر قليلا فى كلامه ليدخل فى روع هذه السيدة الأرستقراطية الجالسة على العشب الأخضر قريبا ، منه أن ماقاله ليس من كلامه ، وإنما هو يسمعها ما سمعه يوم رحلته إلى صديقه تاجر الأخشاب . وهذا تفكير لا يليق إلا بالمارقين .

كانت مدام دى رينال لا تزال فى غمرة قليلة من الفتور بعد أن كانت رقيقة كل الرقة ، وقالت له :

— إياك والاختلاط بأمثال هؤلاء الناس !

فكان هذا التقطيب بل هذا التأنيب على عدم حذره ، أول فشل منى به چوليان فقال فى نفسه : إنها طيبة رقيقة ، تحبنى ما فى ذلك شك ولكنها نشأت فى معسكر أعدائى . هؤلاء الذين يرتعدون فرقا من ذوى العقول الجبارة الذين لا يجدون مالا يرفعهم إلى المناصب بعد أن ينالوا قسطا من التعليم . وماذا يكون أمر هؤلاء النبلاء لو أننا تصارعنا معهم بسلاح واحد ؟ فلو أصبحت أنا مثلا عمدة ڤرير لكنت أمينا نزيها كالسيد دى رينال تماما ! ولعزلت الخورىّ والسيد ڤالنو ولقضيت على مفاسدهما ، ولساد العدل فى ڤرير !

أنا لا أخشى مواهبهم ، لأنهم يتخبطون .

أوشكت سعادة چوليان فى ذلك اليوم أن تكون أبدية ، كانت الجرأة تعوز بطلنا ليكون مخلصا ، وكان عليه أن يتشجع فيثير فى الحال عراكا بينه و بين صديقته ، لأنها ذهلت مما قال چوليان ، ولأنها كثيرا ما سمعت ممن يغشون مجالسها أن عودة رو بسپير محتملة الوقوع وقد يظهر مرة أخرى من هؤلاء الشبان الذين ينتمون إلى الطبقة الفقيرة الوضيعة ، و ينالون حظا كبيرا من التعليم . وظلت على فتورها زمنا طو يلا ، فأثر ذلك فى چوليان . ثم خشيت أن تكون قد أسمعته مالا يحب دون أن تقصد ، فحل الخوف محل الاشمئزاز حين سمعت هذا الرأى البغيض وظهر شقاؤها فى وضوح على قسماتها التى تبدو ساذجة نقية حين تكون سعيدة النفس بعيدة عن الثقلاء .

وتخلص چوليان من أحلامه فأصبح أكثر هدوءا وأقل عشقا ، ورأى أن من الحذر ألا يدخل مخدع مدام دى رينال ، بل من الخير أن تنتقل هى إلى غرفته ، فلو أن خادما رآها تعدو فى منزلها عدوا لالتمس لذلك عشرين عذرا .

إلا أن مجيئها إليه كان لايخلو من الأضرار ، فقد تسلم چوليان من فوكيه كتبا لا يستطيع طالب اللاهوت أن يشتريها من إحدى المكتبات ، ولا يستطيع أن يقرأها إلا إذا أوى إلى غرفته فى الليل . ولم يكن يسره أن تحول زيارتها بينه و بين القراءة ، وهو يعلم أن مجرد انتظار موعدها كفيل وحده بأن يمنعه من المطالعة ، كما حدث بالأمس على إثر الخلاف

الذى نشب بينهما فى الحديقة . إنه مدين لهـا بلون جديد من ألوان فهم ما يقرأ ، فقد علمته الـكثير من الأشياء الصغيرة التى استطاع أن يسأل عنها . وكان ذكاؤه لا يسعفه فى التغلب على جهله بهـا ، نشأ بعيدا عن المجتمع و إن سلمنا له بالنبوغ الطبيعى .

وفى مدرسة الحب وعلى يد امرأة جاهلة ، تعلّم چوليان فـكان سعيدا بما تعلّم . وتمـكن من معرفة المجتمع كما هو قائم معرفة مباشرة . فـلم يعد الوصف الذى يقرؤه يسدل ستارا على نفسه حين يتناول كتبا تتحدث عن حالة المجتمع منذ ألفى عام أو منـذ ستين عاما فقط ، أيام ڤولتير ولويس الخامس عشر . سقط الحجاب عن عينيه ، فسر كثيرا حين استطاع أن يفهم ما يجرى فى ڤريير فهما صحيحاً .

أدرك أول كل شىء سرّ الدسائس المعقدة التى حيكت منـذ عامين لدى حاكم بيزانسون ، وكانت هذه المـكايد تستند إلى خطابات قادمة من باريس كتبها رجال لهم قيمة وخطر ، وطلبوا أن يعين رجل يدعى السيد دى موارو — عرف فى الإقليم كله بالتقوى — نائبا أول لعمدة ڤرييرلا نائبا ثانيا .

وكان ينافسه فى هذا المنصب رجل غنى من أصحاب الصناعات لايجدر به إلا أن يكون نائبا ثانيا .

وقد استطاع چوليان أخيرا أن يفهم تلك الـكلمات الغامضة التى سمعها من رجال الطبقة العليـا حين كانوا يتناولون الطعام على مائدة السيد دى رينال . كان هذا المجتمع الراقى مشغولا باختيار النائب الأول ، و بقية

السكان و بخاصة الأحرار لا يتوقعون أن يتمّ هذا الأمر . ومما زاد فى أهمية المسألة علم الجميع بأن الجهة الشرقية للشارع الرئيسى فى ڤرييريجب أن توسع أكثر من تسع أقدام ، لأنّ هذا الشارع سيصبح طريقا ملكيا .

و إذا صح أن يختار السيد دى موارو نائبا أول لڤرييرثم عمدة لها إذا أصبح السيد دى رينال عضوا بمجلس النواب ، فإنه سيغضّ الطرف عن هذا المشروع لأنه يملك ثلاثة منازل فى الجهة التى يتسع فيها الشارع ، و يستطيع أصحاب المنازل المطلة على الشارع العام أن يدخلوا عليها بعض إصلاحات لا تلحظ ، فتبقى هذه البيوت مائة عام . وعلي الرغم من ورعه الشديد فإنه سيكون سهلا لينا فى مقابلة الناس لأن له أولادا كثيرين . ومن بين تلك المنازل التى تدخل فى توسيع الشارع تسعة منازل يملكها وجهاء ڤرييير .

كان چوليان ينظر إلى تلك الدسائس ويرى أنها أكثر خطراً من تاريخ معركة فونتينوا التى يطالع تفاصيلها لأول مرة فى كتاب من تلك الكتب التى أرسلها إليه صديقه فوكيه . وكانت هناك أشياء تثير دهشة چوليان واهتمامه منذ خمسة أعوام ولا يستطيع الاستفسار عنها . كان يراها منذ أصبح يتردّد على الخورىّ مساء كل يوم ، ولا يقدر على توجيه أسئلة إليه؛ لأن التواضع والخشوع صفات ضرورية لطالب اللاهوت .

وفى أحد الأيام كانت مدام دى رينال تأمر خادم زوجها ، عدو چوليان ، أمرا فردّ قائلا لمولاته :

— ولكن يا سيدتى ، إنّ اليوم هو آخر جمعة فى الشهر .

فقالت له :

— إذهب !

عندئذ قال چوليان :

— حسنا ! إنه سيذهب إلى دكان العلف الذى كان يوما ما كنيسة، وأصبح الآن موطنا لهذا المذهب ، ولـكن ماذا يصنعون هناك ؟ هذا اللغز لم أستطع فهمه حتى الآن .

فقالت له صديقته :

— إنه نظام ملائم جدا وإن كان شديد الغرابة ، لأن النساء لا يقبلن فيه ، وكل ما أعرفه عنه أن الناس هناك سواسية . فأنت ترى هذا الخادم مثلا يلتقى بالرجل المتكبر السيد ڤالنو فلن يظهر اشمئزازا حين يخاطبه خادمنا سان چان بصيغة المفرد ، ثم يردّ عليه هو بنفس الصيغة . وإذا أردت أن تعرف ما يدور في هذه المجتمعات ، فسأطلب من السيد دى موچيرون ومن السيد ڤالنو بعض المعلومات . ونحن ندفع فى الشهر عن كل خادم من خدمنا عشرين فرنكا حتى لا يذبحنا هؤلاء القوم فى يوم من الأيام .

كان الوقت يمضى سريعا ، وكان ظرف مدام دى رينال قد قضى على الطموح القاتم الذى يظلل نفس چوليان . فعاهد نفسه ألا يتحدث إليها فيما يثير الحزن ، أو يدعو إلى التفكير مادام مشربهما مختلفا . فزاد هذا — دون أن يحس — فى سعادته التى كانت هى سببها ، وقوّى من سلطانها عليه .

كانا لا يتحدثان إلا بتلك اللغة الجافة لغة العقل إذا كان معهما الأطفال وهم شديدو الذكاء ، إذا استثنينا نظرات الحب العميقة التى كان چوليان يلقيها على حبيبته وهو يستمع فى خشوع إلى آرائها فى الحيـاة . وكثيرا ما سبحت نفسها فجأة فى آفاق بعيدة فلامها چوليان وهى تقص عليه قصة سرقة ، أحسن فيها التدبير ، وقعت فى توريدٍ أو فى مرفق من المرافق. وكانت تتبع معه فى الحديث نفس الحركات الودية الخالصة التى تتعبها مع أبنائها . كانت لا تلجأ إلى هذا إلاّ لأنها تخال أنها تحبه ، كما تحب أحد أبنائها ؛ أليست تجيب دائما على أسئلة ساذجة يوجهها إليها ؟ أسئلة تتناول آلافا من التوافه لا يجهلها فتى فى الخامسة عشرة ، نشأ فى بيئة كريمة . ولكنها بعد مضى لحظة ، تعجب به كما تعجب بسيدها . وأثر فيها نبوغه كثيرا حتى أخافها ، وبدا لها مع الأيام فى وضوح أنها ترى العظيم المنتظر فى شخص هذا القس الشاب : رأته بابا ورأته رئيس وزارة مثل ريشيليو ، وكثيرا ما قالت :

— هل أعيش حتى أراك فى مجدك ؟ ستكون عظيما : إن الملكية والدين معا فى حاجة إليك .

الفصل الثامن عشر

ملك فى ڤريير

[أهكذا أصبحتم قوما لا خير فيكم؟ وعادت أجسامكم
ولا روح فيها ، وعروقكم لا تجرى فيها دماء ؟]
من موعظة الاسقف فى كنيسة القديس كليمنت

فى الساعة العاشرة من مساء يوم الثلاثاء الثالث من سبتمبر ، أيقظ جندى سكان ڤريير من نومهم وهو يركض بجواده فى الشارع الرئيسى ، وأبلغهم أن صاحب الجلالة ملك . . . سيصل إلى بلدتهم يوم الأحد القادم . وقد صرح الحاكم أو على الأصح طلب حاكم المقاطعة تكوين حرس شرف ، وألاّ يدخر الأهالى وسعا فى تجميل البلد وتزيينه . وأرسلت الرسل ليلا إلى ڤرجى يطلبون العمدة . ووصل السيد دى رينال إلى ڤريير فرآها على قدم وساق . كلّ يعد عدته لينتهز فرصة الزيارة الملكية ، وكان أقلّهم طموحا أولئك الذين أجّروا الشرفات ليرى الناس منها الموكب الملكى وهو يدخل المدينة .

من الذى يرأس حرس الشرف ؟ رأى السيد دى رينال فى الحال أن السيد دى موارو خير من يتولّى قيادة هذا الحرس ، وما أملى عليه هذا إلا المنازل التى تحول دون توسيع الشارع الرئيسى . وستعزز هذه الرياسة منصب النائب الأول لعمدة ڤريير . لم يكن إخلاص السيد دى موارو ولاصلاحه موضع الشك ، لأنه أحسن أهل ڤريير جميعاً وإن

لم يركب جوادا من قبل . كان فى السادسة والثلاثين من عمره كثير الحياء خجولا ، يخشى أن يعرض نفسه لسخرية مواطنيه ويخاف أن يسقط عن ظهر الجواد .

استدعاه العمدة فى الساعة الخامسة صباحا ثم قال له :

— طلبتك يا سيدى لأعرف رأيك كما لو كنت عينت فى المنصب الذى ترشحك له الطبقة الراقية الأمينة ؛ إن الصناعات تدرّ أموالا كثيرة على هذه البلدة البائسة ، وقد أصبح الأحرار أغنياء إلى حد كبير ، لذلك يأمل حزبهم أن يتقلّد مناصب الحكم ، مستعينا بكل الوسائل ، معدًّا لكل شىء عدّته . فلنضع نحن نصب أعيننا مصلحة الملكية والملك بعد مصلحة ديننا القويم . فإلى من إذن نكل رياسة حرس الشرف ؟

كان ركوب الخيل يبعث فى نفس السيد موارو خوفا شديدا ، لذلك قبل ، بعد لأى ، شرف قيادة الحرس ؛ كأنه قبل أن يكون شهيدا ثم قال للعمدة : « أنا أعرف كيف أتخذ اللهجة المناسبة » .

ولم يبق أمام أولى الأمر إلا وقت قصير يصلحون فيه الحلل التى لبست قبل ذلك بسبعة أعوام ، حين مرّ بفرير أمير من الأسرة المالكة .

وحلّت الساعة السابعة ، فوصلت مدام دى رينال من فرجى يصحبها جوليان وأبناؤها . ودخلت منزلها فرأت صالونها مزدحما بنساء من حزب الأحرار ، جئن ينادين باتحاد الأحزاب ولتطلب منها كل منهن مكانا لزوجها فى رجال الحرس . وقد زعمت إحداهن أن زوجها سيحزن

حزنا شديدا يؤدى إلى إفلاسه إذا لم يكن فى رجال الحرس . لكنّ مدام دى رينال سرعان ما تخلصت منهن جميعاً ، وكان يبدو عليها أنها مشغولة إلى أبعد حدّ .

ذهل چوليان ثم غضب ، لأنها لم تفض إليه بما نفسها ، وأخذ يقول فى حزن شديد : لقد أدركت ذلك من قبل ، وفطنت إلى أنّ حبها لى قضت عليه سعادتها لأنها ستستقبل فى منزلها ملكا . وهذه الضوضاء الشديدة تفتنها وتسحرها ، لكنها لا تلبث أن تحبنى من جديد إذا لم يضطرب عقلها من الآراء التى تسيطر على عقول طائفتها .

ومن الغريب فى أمر چوليان ، أنه أصبح مع ذلك أكثر حبا لها . وانتظر فرصة يتحدث فيها إليها قليلا ، لكنه لم يتمكن لأن عمال المفروشات كانوا يملئون المنزل ويضطربون فى كل مكان . ثم لقيها وهى تهمّ بمغادرة غرفته حاملة ثوبا من ثيابه ، فأراد أن يتكلم معها ، لكنها انصرفت دون أن تصغى إليه . فقال فى نفسه : لقد ارتكبت حماقة لا تغتفر حين أحببت هذه المرأة ، إن حبّ الظهور قد قضى على عقلها وعقل زوجها !

كانت مدام دى رينال فرحة حقا ، وقد أخفت سبب سرورها عن صديقها لئلا تجرح كبرياءه ؛ ذلك أنها كانت تودّ من كل قلبها أن يخلع چوليان ملابسه السوداء القاتمة ، ويلبس أخرى ولو يوما واحدا ! واستعملت ما فطرت عليه من مهارة وحذق ، فحصلت على موافقة السيد دى موارو ونائب الحاكم دى موچيرون أن يتولى چوليان قيادة خمسة من الشبّاب أو ستة فى حرس الشرف ، وهؤلاء الشبان أبناء رجال أغنياء

من أصحاب الصناعات فى ڤرييز ، عرف اثنان منهم بالورع الشديد . ووافق السيد ڤالنو على أن يعير جوليان جوادا من جواديه النورمنديين ، وكان قبل ذلك يطمع فى أن يعير عربته لأجمل سيدات ڤرييز ، ليعجب الناس بجمال جواديه ، وافق على هـذه الإعارة وإن كان لا يضمر لجوليان إلاّ الـكره الشديد . بقى بعد ذلك الثوب العسكرى الأزرق السماوى المحلّى على الـكتفين بجديلين مفضضين ، وهو الثوب الذى يجب أن يرتديه كل من يشترك فى حرس الشرف . وكان بعض الشبان يقتنون هذه الحلة التى تزينوا بهـا قبل ذلك بسبعة أعوام واستعارها بعضهم . وكانت مدام دى رينال كثيرة الطموح ، فـلم ترد أن يكون صديقها كغيره من الشبان ، فأرسلت إلى بيزانسون تطلب حلة جديدة ، وأسلحه وقبعّة وغير ذلك ، طلبتها فى عجلة شديدة ، لأنه لم يبق أمامها إلا أربعة أيام ، وهى حريصة على أن يظهر جوليان فى أبهى زينة وأفخر ثياب . وقد ذهبت إلى أبعد من هذا ، فـلم تشتر الحلة من ڤرييز ، لأنها أرادتها مفاجأة لجوليان ، ولأهل البلدة جميعاً .

إنتهى العمدة من تنظيم حرس الشرف وتهدئة الخواطر ، وأخذ ينظم حفلة دينية كبيرة ، لأن الملك لم يشأ أن يمرّ بڤرييز دون أن يزور فى براى لى هو ، رفات القديس كليمنت الشهير — الواقع على بعد فرسخ من المدينة . كانوا فى حاجة إلى كثيرين من القسس فلاقوا فى ذلك عنتا شديدا ، لأن الخورى الجديد الأب مالون لا يريد أن يحضر الأب شيلان هذه الحفلة الدينية . وعبثا حاول العمدة أن يقنعه بأن فى هذا خطرا شديدا

عليهم جميعاً : لأن المركيز دى لامول الذى ظلّ أجداده حكاما لهذه المقاطعة زمنا طويلا هو الذى وقع عليه الإختيار ليرافق الملك فى رحلته . والمركيز يعرف الأب شيلان منذ ثلاثين عاما ، فهو لا بد سائل عنه، مستقص أخباره إذا ما أتى إلى فرييرِ . وإذا علم أنه مغضوب عليه فلن يتردد فى الذهاب إلى المنزل الصغير الذى اعتكف فيه الأب ، وسيكون فى صحبته ما يستطيع أن يكوّن من موكب ، فيالها من صفعة !

فقال الخورى مالون :

— لو حضر شيلان الحفلة لافتضحت هنا وفى بيزانسون . إنه متعصب يا آلهى لمذهب ينسينيوس .

فأجابه العمدة :

— مهما يكن من أمر يا سيدى الخورى ، فأنا لا أعرض إدارة بلدتنا إلى لطمة من المركيز دى لامول . أنت لا تعرفه ، هو رجل له خطورته فى البلاط ، أما هنا فهو هجّاء مقذع ، كثير السخرية والاستهزاء بالناس ، لا يحلو له إلاّ أن يحرجهم ، وفى استطاعته أن يسخر منا جميعاً على مرأى من الأحرار ، لا يبغى من وراء ذلك إلا اللهو والعبث .

وظلت المفاوضات بين العمدة والخورى ثلاثة أيام ، وأخيرا نزل الخورى عن كبريائه فى مساء السبت ، حين رأى أن خوف العمدة قد انقلب إلى شجاعة ، وكان عليهم أن يكتبوا إلى الأب شيلان خطابا معسولا يرجون فيه أن يتفضل بحضور الحفل الدينى فى براى لى هو ، إن سمحت شيخوخته وضعف صحته وبالحضور . ولكن الأب شيلان

طلب منهم أن يوجهوا خطاب دعوة إلى جوليان الذى يحب أن يرافقه كمساعد شماس ، فاستجابوا لطلبه .

وحلّ صباح الأحد ، فازدحمت شوارع ڤرييير بألوف من القرويين هبطوا من الجبال المجاورة ؛ وكانت الشمس ساطعة ، ثم دقت الساعة الثالثة فاضطربت الجموع الحاشدة ، حين رأت نارا عظيمة تضطرم فوق صخرة على بعد فرسخين من ڤرييير ، إيذانا بدخول الملك أرض الأقليم . وطنطنت النواقيس تدقّ ، ودوّت فى الأرجاء طلقات مدفع أسبانى قديم تملكه المدينة ، إعلانا للسرور العام الذى شمل النفوس لهذه المناسبة السعيدة . وصعد نصف سكان ڤرييير سطوح المنازل ووقفت النساء فى الشرفات ، وتحرك حرس الشرف فعجب الناس بالحلل الزاهية الجميلة ، وتعرف كلّ على قريب أو صديق ، وسخروا من السيد دى موارو الذى دفعه الخوف فى كل لحظة إلى أن يمسك بقربوس سرجه خشية أن يقع على الأرض ، ثم شغل الناس بعد ذلك بملاحظة أخرى كان وقعها كبيرا على نفوسهم ، وهى أن الفارس الأول على رأس القسم التاسع شاب جميل نحيف القوام ، لم يعرفوه حين رأوه . وسرعان ما انبعثت من قوم صيحات الاستنكار ، وصمت آخرون من شدة الذهول ، لأن الفارس لم يكن إلا جوليان سورل ابن النجار ، وقد ركب حصانا نورمانديا للسيد ڤالنو وعليه أفخر الثياب . وعندئذ انبعثت صيحات ضد العمدة ، كانت على الأخص من الأحرار الذين قالوا : ماذا نرى ! أيعيّن فى حرس الشرف هذا العامل الوضيع الذى يلبس لباس رجال الدين لأنه معلم أبنائه ، ويترك السادة

الأغنياء أصحاب الصناعات أمثال فلان وفلان ! .

ثم قالت إحدى السيدات الغنيات : يجب أن يلحق هؤلاء السادة العار بهذا الحقير الذى نشأ نشأة وضيعة . فقال أحد جيرانها :

— إنه مراء يحمل سيفا ، وهو خائن جدير بأن يمزق وجوههم بسيفه .

أما حديث الطبقة الراقية فكان أشد خطراً من حديث الأحرار ، إذ تساءلت النساء عمّا إذا كانت هذه الإهانة من العمدة وحده ؟ وعلى العموم فقد أنصفوا فى احتقاره لوضاعة أصله .

كانت هذه الأحاديث تدور حول جوليان ، وقت أن كان أسعد الناس قاطبة . وأمدته جرأته بشجاعة كبيرة ، فبدا على ظهر جواده خيرا من أولئك الذين نشئوا جميعا فى هذه البلدة الجبلية . وكان يقرأ فى نظرات السيدات أنهن يتحدثن عنه ، وشارتا كتفيه براقتان لأنهما جديدتان ، وحصانه يشب فى كل لحظة فيضفى عليه سعادة كبيرة .

وبلغت سعادته أقصاها حين مرّ على مقربة من الحاجز القديم ، فسمع ضجة شديدة أحدثتها طلقات المدفع الصغير ، فجمح حصانه ، لكنه لم يسقط على الأرض لحسن حظه ، فأحس كأنه أصبح بطلا ، وخيّل إليه أنه ضابط فى جيش نابليون ، قد كلّف الإشراف على المدفعية .

أجل ، كان سعيدا ، ولكن هناك من كان أسعد منه ، وهى تلك التى رأته من إحدى نوافذ مبنى البلدية ، ثم ركبت عربتها وسارت مسرعة فقطعت منحنى طويلا ، ووصلت ليقع فى قلبها الذعر حين رأت الجواد يبتعد به خارجا من الصف ! كانت مدام دى رينال تتبع الموكب على بعد

عشرين خطوة بين سحابة من التراب . وكانت عربتها مسرعة ، فخرجت من أحد أبواب المدينة ، ثم سلكت الطريق التي يمرّ منه الملك . وفى ذلك الوقت صاح عشرة آلاف من الريفيين : فليحى الملك ! حين كان العمدة يخطب بين يدى جلالته .

واستمرت الخطب ساعة كاملة ، ثم دخل المدينة فأطلق المدفع طلقات متتابعة . عندئذ وقع حادث ، ليس لأولئك الذين كانوا يطلقون المدفع فاعتادوا عليه من قبل فى ليبزج وفى مونمزاى ، ولكنه وقع لنائب العمدة المنتظر السيد دى موارو . لقد إلقى به جواده فى يسر إلى المكان الوحيد الذى تراكم فيه الوحل فوق الطريق ، فكانت فضيحة كبرى ، وكان لابدّ من إخراجه من الطين قبل أن تصل عربة الملك .

دخل جلالته كنيسة ڤرِيير الجديدة الجميلة التى زينت فى ذلك اليوم بالستائر القرمزية ، ثم ذهب يتناول غداءه ، ليركب عربته بعده مباشرة إلى حيث يمجّد رفات القديس كليمنت ، ولم يكد الملك يدخل الكنيسة حتى عدا چوليان بجواده إلى منزل السيد دى رينال . وخلع زيّه العسكرى الأزرق وهو يتنهد أسفا عليه ، وترك سيفه وشارتى كتفيه ليرتدى لباسه الأسود البالى ، ثم امتطى جواده ، ووصل بعد دقائق معدودات إلى براى لاهو ، الواقعة على قمة تل جميل ، وأخذ يقول : إن الحماسة لتزيد عدد هؤلاء الريفيين ، والمرء لا يستطيع أن يتحرك فى ڤرِيير ، وها أنذا أرى الآن أكثر من عشرة آلاف من الأنفس فى هذا الدير القديم .

هدم الثوار جزءا من هذا الدير فى وحشية ، ولـكنه جدّد تجديدا رائعا منذ أن عادت الملـكية ، وأخذ الناس يتحدثون عن المعجزات .

عنّف الأب شيلان چوليان تعنيفا شديدا حين لاقاه ، ثم أعطاه ثوبا من ثياب الـكهنة وقميصا يلبس فوق الثوب ، فارتدى چوليان ذلك فى سرعة ، وتبع الـكاهن الذى ذهب ليلقى رئيس أساقفة آجد ، وهو شاب عُيّن حديثا فى هذا المنصب ، يمتّ بصلة القرابة إلى المركيز دى لامول ، وقد عهد إليه بأن يُرى الملك رفات القديس . ولـكن رئيس الأساقفة كان قد اختفى ، ولا يعلم أحد أين هو .

فقد صبر القساوسة وهم ينتظرون الرئيس فى الرواق القوطى المظلم لهذا الدير القديم ، واجتمع فى الرواق أربعة وعشرون خوريا ليعرضوا الفصل القديم الخاص ببراى لاهو والذى عرضه أربعة وعشرون كاهنا قانونيا قبل عام ١٧٨٩ . وبعد أن ظلوا ثلاثة أرباع الساعة فى أسف على شباب الرئيس ، اقترحوا على عميدهم أن يذهب إلى مونسنيور ليخبره بأن جلالة الملك سيأتى بعد قليل ، وبأن الوقت قد حان ليغادر الرواق إلى المحراب .

عُيّن الأب شيلان عميدا لهم بحكم السن ، وعلى الرغم من غضبه على چوليان، أشار إليه أن يتبعه ، وكان القميص الذى ارتداه فوق الثوب يلائمه ملاءمة كبيرة ، ولسنا ندرى كيف استطاع أن يجعل من شعره الجميل المجعد شعرا سبطا مسترسلا ، ولا نعرف وسائل التجميل الـكنسيّة التى استعان بها فى هذا الأمر . ونسى چوليان المهماز الذى وضعه أثناء جرس الشرف ، فظهر من تحت طيات ثوبه الطويل ، فزاد هذا فى غضب الأب شيلان عليه .

وصلا إلى حيث رئيس الأساقفة ، فوجدا بالباب خدما فى أبهى زينة ، وأفخر ثياب ، أخبروا الـكاهن العجوز فى كبر شديد أن الرئيس لا يريد مقابلة أحد ، وسخروا منه حين قال لهم بأن مركزه كعميد فى فصل براى لاهو ، المجيد يسمح له بأن يلقى الرئيس فى أى وقت يشاء .

وعزّ على چوليان أن يعامل الأب بمثل هذه القحة ، فأخذ يذرع أبهاء الدير القديم ، ويجوس خلال مضاجعه ، ويفتح الأبواب التى تصادفه ، حتى عالج بابا صغيرا ، ففتحه . وسرعان ما رأى نفسه فى حجرة غصّت بخدم رئيس الأساقفة ، وقد ارتدوا السواد وعلّقوا فى أعناقهم سلاسل ، ولما رأى الخدم سرعته ولهفته ظنّوا أنّ رئيس الأساقفة طلبه ، فتركوه يمرّ ، وتقدّم چوليان بضع خطوات ، فرأى نفسه فى غرفة واسعة ، قوطية البناء ، حالـكة الظلمة ، مكسوة الجدران بخشب البلوط الأسود ، سدّت نوافذها الصغيرة بالطوب من وقت قريب ، إلاّ نافذة واحدة ، فنال بذلك مظهر النوافذ المسدودة لخشونة بنائه من مظهر فنى جميل يبدو للعين فى أخشاب هذه الجدران . والجانبان العظيمان فى هذه الغرفة المشهورة يعرفهما الأثريون البرجينيون جميعا ، فقد بناهما شارل الجسور قبيل سنة ١٤٧٠ ليكفر بهما عن ذنوب ارتـكبها ، وكانا مزينين بكراسى خشبية دقيقة الصنع ، مختلفة الألوان تعبّر عن ألغاز رؤيا القديس يوحنا الأنجيلى .

اكتأب چوليان لما رأى هذه الروعة الحزينة وقد أتلفتها الأحجار العارية والجبس الذى لا يزال أبيض حتى الآن ، فوقف صامتا . ثم رأى فى الناحية الأخرى من الغرفة على مقربة من النافذة الوحيدة التى يدخل

الضوء منها ، رأى مرآة من خشب الكابلى غير ثابتة ، وشابا إلى جوار النافذة على بعد ثلاث خطوات من المرآة ، عليه رداء بنفسجى وقميص من الدنتيلا ، عارى الرأس . ولا بدّ أنّ هذه المرآة ، التى لا تليق بحرمة هذا المكان المقدّس ، قد أحضرت من المدينة . كان الشاب يبارك بيده اليمنى بجانب المرآة ، وعلى وجهه دلائل الغضب ، فقال چوليان فى نفسه : ما هذا ؟ أهذا هو القسّ الشاب يعدّ العدة للحفل الدينى ؟ ربما كان سكرتير رئيس الأساقفة . . . وربما كان سفيها كالخدم . . . وماذا يعنينى فلأحاول .

وتقدّم فى بطء شديد ناظرا دائما إلى النافذة الوحيدة ، وعيناه لا تفارقان الشاب ، وهو ينثر البركات فى تؤدة وكثرة لا حدّ لها ، دون أن يستريح لحظة واحدة .

ورأى چوليان أنه كلما تقدّم إليه خطوة ، اشتدّ ظهور الغضب على وجه القسيس ؛ وراعته فخامة قميصه ، فوقف على بعد خطوات من المرآة دون أن يشعر ، وقال فى نفسه : من الواجب أن أتحدّث . ولكن جمال الغرفة بهره ، وخشى مقدّما أن يسمعه القس كلمات غليظة .

ورآه القس خلال المرآة المتحركة فاستدار إليه وقد زايله غضبه ، وقال له فى لهجة رقيقة :

— حسنا ! هل تمّ إصلاحه أخيراً يا سيدى ؟

فذهل چوليان ولم يدر ما يقول ، ثم رأى الصليب معلّقاً على صدره بعد ما استدار إليه ، فعرف أنّ هذا الشاب رئيس أساقفة آجد ؛ فقال

جوليان : أيكون رئيساً للأساقفة وهو فى هذه السنّ ؟ إنه لا يكبرنى إلا بستة أعوام أو ثمانية على الأكثر ! . . . وخجل من المهماز خجلا شديداً ، ثم قال فى حياء :

— أنا رسول العميد إليك ، مونسنيور .

فأجابه الرئيس فى لهجة خورية زادت من سروز جوليان :

— آه ! لقد أوصونى به خيراً ، وألحوا فى ذلك ، ومعذرة يا سيّدى فقد ظننتك من كلّفته إحضار تاجى . لقد أساءوا لفّه فى باريس فأفسدوا النسيج الفضّى فى أعلى التاج ؛ وهذا شىء لا يليق أبداً ، وسيكون له أثره السيء ومع ذلك فأنا لا أزال حتى الآن أنتظره .

فقال جوليان :

اسمح لى يا منسنيور ، فسأذهب لأحضره .

ونظر إلى الأسقف بعينيه الجميلتين ، فأحدثتا فى نفسه أحسن الآثار ، وقال له فى أدب ظاهر :

— اذهب يا سيدى ، فيجب أن يحضروه حالا ، لأنه يؤسفنى جداً أن أدع جماعة الكهنة القانونيين ينتظروننى .

ولمّا وصل جوليان إلى منتصف القاعة ، التفت خلفه فإذا برئيس الأساقفة ينثر البركات من جديد فسأل نفسه : ماذا يقصد من ذلك ؟ يخيل إلىّ أنه يتدرّب على ما سيقوم به فى الحفلة الدينية . ثم وصل إلى حيث يجتمع خدم رئيس الأساقفة ، فنظر إليهم نظرة سيطرة وتعال ، فقدّموا إليه تاج الرئيس . وهنا شعر بفخر وهو يحمله ، وقطع الغرفة سائراً

فى تؤدة و بطء ممسكا بالتاج فى احترام كبير . وكان الرئيس لا يزال جالساً إلى المرآة ، و يده اليمنى تنثر البركات بين لحظة ولحظة ، و إن شعر بالتعب . وعاونه چوليان فى لبس التاج ، فهزّ الرئيس رأسه قائلا فى فرح ظاهر :

— آه ! أستطيع الآن أن ألبسه ، فهل لك أن تبتعد قليلا ؟ ثم أسرع الرئيس إلى منتصف القاعة ، وعاد يقترب من المرآة رويدا رويدا ، مستعيدا ما كان ينطبع على وجهه من أمارات الجد ، و بدأ ينثر البركات فى تؤدة ووقار .

وظلّ چوليان واقفا يعجب ممّا يرى ، و يودّ أن يفهم ما يرمى إليه الرئيس ، لكنه لم يجرؤ على أن يسأله . ثم وقف الرئيس ونظر إليه نظرة خففت من وقاره بعض الشىء ، وسأله قائلا :

— ما رأيك فى تاجى هذا يا سيدى ؟ أيوافقنى ؟ .

فأجابه چوليان :

— إنه لجميل جدّا يا منسنيور .

— ألست تراه راجعاً إلى الوراء ؟ ولو تركته كذلك لكنت فى هيئة البلهاء . لكنه لا ينبغى لى أن أنكسه إلى الأمام و إلاّ كان مثل قلنسوة الضباط .

— يخيّل إلىّ أن وضعه جميل جدا .

— إنّ ملك . . . اعتاد أن يرى قساوسة مبجّلين فيهم وقار . وأنا لا أحبّ أن أظهر فى شىء من الخفة أو الطيش بالنسبة إلى سنىّ .

وجعل يمشى من جديد فى بطء ووقار و ينثر البركات ، فقال چوليان

فى نفسه : لقد أصبح الأمر جليا ، إنه يتمرّن على مباركة الناس .

وقال له الرئيس بعد لحظة :

— أنا الآن مستعدّ ، فاذهب يا سيّدى وأخبر بذلك السيد العميد والسادة القسس .

وسرعان مادخل الأب شيلان يتبعه قسّان هما أكبر القساوسة سنّا ، من باب كبير واسع قد زيّن برائع النقوش ، ولم يكن چوليان قد رآه من قبل ؛ وأسرع باقى رجال الدين فى دخول القاعة . وبقى چوليان هذه المرة فى المكان اللائق به ، حيث كان فى مؤخرة الجمع فلم يستطع رؤية الرئيس إلاّ من فوق أكتاف القسس .

قطع الرئيس أرض الغرفة فى بطء ، ولما وصل إلى عتبتها ، وقف القساوسة فى شكل موكب . وساد الإضطراب لحظة قصيرة ، سار الموكب بعدها وهم يرتلون مزمورا من المزامير . وكان الرئيس فى المؤخرة بين الأب شيلان وخورى كهل عجوز ؛ وفى هذه اللحظة اقترب چوليان من مونسنيور بحجة أنه متصل بالأب شيلان . وساروا فى ردهات دير براى لا هو المظلمة الرطبة ، وإن كانت الشمس مشرقة ساطعة .

وصل الموكب أخيرا إلى باب الدير ، وچوليان فى ذهول من أثر الروعة لأنه لم يشهد من قبل حفلا دينيا يشبه ماراه الآن . لقد امتلأ قلبه صراعا من طموحه الذى عاوده حين رأى رئيس الأساقفة لا يزال شابا ، ومن تأثره بأدب الرئيس الجم ، وهو أدب لم يره للسيد دى رينال حتى فى أحسن أيامه ، وهنا قال فى نفسه : لا شك أن المرء يرى صفات أطيب

وأرقّ كلّما ارتفع إلى الطبقة الأولى من المجتمع .

ودخل الموكب الكنيسة من باب جانبى ، فسمعت ضجة مفاجئة شديدة هزت قبابها القديمة ، حتى خيّل إلى چوليان أنهـا تتداعى ، ولـكنها كانت ضجة المدفع الذى وصل إلى جوار الـكنيسة منذ لحظة قصيرة ، تجره ثمانية جياد راكضة . ولمـا وصل أطلق منه مدفعيو ليپتزج خمس طلقات فى كل دقيقة ، كأنما كانوا يدفعون به البروسيين .

لم تؤثر هذه الجلبة الشديدة فى نفس چوليان ، فلم يعد يفكر فى ناپليون أو فى المجد العسكرى ، لأنه كان يقول : يالله! إن رئيس أساقفة آجد صغير السن! ولـكن أين تقع آجد ؟ وكم يدر عليه منصبه ؟ لعله يأخذ مائتى ألف فرنك أو ثلثمائة ألف .

ثم ظهر خدم مونسنيور يحملون مظلة رائعة يستظل بهـا الرئيس ، وأمسك الأب شيلان إحدى عصيّها ، وإن كان چوليان فى الواقع هو الذى يحملها ، واستطاع الرئيس وهو تحت المظلة أن يظهر بمظهر كبير السن، فأعجب به چوليان وقال فى نفسه : إن المهارة لا تعرف حدّا فيما تتناوله من الأعمال .

وصل الملك ، وأتيحت لچوليان فرصة أن يراه عن قرب .. وخطب رئيس الأساقفة بين يديه فى طلاوة وعذوبة ، ولم ينس أن يشير إشارة خفيّة مؤدبة إلى الثناء على جلالة الملك . ونحن لا نريد وصف حفلات براى لاهو لأنهـا ملأت أعمدة صحف الأقاليم طوال خمسة عشر يوما . وعرف چوليان من خطاب رئيس الأساقفة أن الملك من سلالة شارل

الجسور . ثم علم أن مصروفات حفلة براى لاهو وحدها كلفت المركيز دى لامول ثمانمائة وثلاثة آلاف من الفرنـكات ، لأن المركيز جامل قريبه رئيس الأساقفة فتحمل المصروفات كلها بعد أن عاونه فى الوصول إلى المنصب . علم چوليان بكل هذا بعد أن التحق بخدمة المركيز .

انتهى الرئيس من خطابه فردّ عليه الملك ، ثم وقف جلالته تحت المظلة ، وركع خاشعا على وسادة بالقرب من الهيكل . وكان حول القسس المرتلين كراسىّ ترتفع عن الأرض درجتين وچوليان يجلس عند قدمى الأب شيلان على آخر درجة ، كأنه من الذين يحملون أطراف ثوب الـكاردينال فى كنيسة سكستين بروما . وكان ترتيل «الحمد لله» يتردد فى أرجاء الـكنيسة ورائحة البخور تملأ الخياشيم ، وطلقات البنادق والمدفع تتردد فى الخـارج بلا انقطاع ، فشعر الفلاحون بسعادة كبيرة ، وامتلأت قلوبهم بالإيمان . ومثل هذا اليوم العامر بحوادثه يبطل أثر مائة صحيفة من صحف اليعاقبة الثائرين .

كان چوليان على مقربة من الملك ، فرآه يصلى فى ورع شديد ، ورأى لأول مرة رجلا قصير القامة نحيف القوام يشع من نظراته الذكاء ويرتدى ثيابا لا زينة فيها ولا ترقيش ، وفوق حلته البسيطة شريط أزرق . كان أقرب إلى الملك من أولئك السادة الذين زينوا ملابسهم بالذهب ، وغالوا فى ذلك حتى وارى الذهب « القماش » على حد تعبير چوليان ؛ ثم علم بعد قليل أن هذا السيد القريب من الملك هو المركيز دى لامول ، وقد رأى فيه چوليان كبرا وقحة ، فقال فى نفسه : إنّ ذلك المركيز

ليس فى أدب هذا الرئيس الجميل . آه ! إنّ الكنيسة لتضفى على المرء وداعة وعقلا ، وقد أتى الملاك ليبجل رفات القديس ، ولكنى لا أرى رفاتا ، فأين القديس كليمنت إذن ؟ وأخبره شماس شاب يجلس إلى جواره أن الرفات المقدس فى أعلى البناء فى مكان أوقدت فيه الشموع .

جرت العادة بأن الكهنة القانونيين لا يرافقون رئيس الأساقفة فى زيارة رفات القديس كليمنت إذا ما زار الكنيسة أمير من البيت المالك ؛ لكنّه ما كاد الركب الملكىّ يتحرك إلى الرفات ، حتى استدعى رئيس أساقفة آجد الأب شيلان وطلب منه أن يرافقه الكهنة ؛ وجرؤ چوليان فسار فى رفقة صديقه وأستاذه الشيخ .

صعدوا سلما عالياً ، ووصلوا إلى باب صغير جدا ، زُيِّن إطاره القوطىّ بزينة بديعة كأنما نفض منها الصانع يديه بالأمس ، يركع أمامه أربع وعشرون فتاة من أعرق الأسر فى ڤرييـر ، وقبل أن يفتح رئيس الأساقفة الباب ، ركع بين هؤلاء الفتيات الرائعات ؛ وأخذ الرئيس يصلّى بصوت مرتفع ، وهنّ ينظرن إليه معجبات بأناقته وظرفه وجمال وجهه ورقة شبابه ، فقضى هذا المظهر الساحر على بقية بقيت من عقل چوليان ! فُتح الباب بغتة وظهر مكان الرفات سابحا فى ضوء قوىّ ، فقد وضع على المذبح أكثر من ألف شمعة قسمت ثمانية أقسام ، تتخللها طاقات من الأزهار ، على حين عبق جوّ المكان برائحة بخور نقىّ شذى . أمّا الكنيسة فقد زينت حديثا بالذهب الخالص ، وهى مرتفعة جدا على الرغم من أنها صغيرة ، وأما الشموع التى وضعت على هيكلها فكان طول كل منها

يزيد على خمس عشرة قدما . ولم تستطع الفتيات أن يتغلبن على مافى نفوسهنّ فانبعثت منهن صيحة إعجاب ، ولم يدخل ردهة الكنيسة إلا الفتيات والخوريان وچوليان .

ووصل الملك بعد قليل يتبعه المركيز دى لامول وكبير حجابه ، وبقى الحراس أنفسهم خارج الكنيسة الصغيرة راكعين مؤديين بأسلحتهم التحية . ودخل الملك الكنيسة مسرعا ليصلّى ، فأتيح لچوليان فى هذه اللحظة ، وهو ملتصق بالباب المذهّب ، أن يرى من فوق كتف فتاة عارية الذراع تمثال القديس كليمنت الجميل الذى كان مخبئا تحت الهيكل ، وعليه ثوب جندى رومانى شاب ، وفى رقبته جرح واسع كأنّ الدم لا يزال يقطر فيه . لقد أجاد المثّال صنع هذا التمثال كل الإجادة : كانت العينان تفارقهما الحياة ، لكنهما تفيضان بمعان بالغة الرقة ، وقد أغلقتا كأنهما عيون بين الحياة والموت وله شارب حديث العهد زيّن فما دقيقا لطيفا ، شفتاه منفرجتان كأنه لا يزال يصلى ! ورأت الفتاة التى تجاور چوليان جمال التمثال ، فضجّت بالبكاء . وسقطت دمعة من دموعها على يد بطلنا الشاب .

وانقضت فترة الصلاة فى صمت عميق لا يقطعه إلا صوت النواقيس تدقّ بعيداً فى القرى المجاورة . انقضت الصلاة ، فطلب رئيس الأساقفة من جلالة الملك أن يأذن له بالكلام ، ثم ألقى خطابا قصيرا بليغا عميق التأثير ، كأنه تحدّث به إلى القلوب ، وقد خاطب الفتيات قائلا :

— أذكرن دائما أيتها المسيحيات أنكن رأيتن ملكا من أعظم

ملوك الأرض ساجدا أمام أولياء الله العزيز الجبار . ألا إنّ أولياء الله لمستضعفون فى الأرض، يضطهدون و يقتلون كما ينبئكن هذا الجرح الذى لا تزال تسيل منه دماء القديس كليمنت . هم يُستضعفون فى الأرض ولكنهم ينتصرون فى السماء ! هل تعدننى أيتها المسيحيات أن تظلّ ذكرى هذا اليوم خالدة فى قلوبكن ، وأنكن ستكرهن كل كافر أثيم ؟ هل تعدننى بأن تكنّ مؤمنات مخلصات لهذا الإله العظيم المنتقم الرحيم ؟

ثم نهض الرئيس بعد ذلك فى وقار وعظمة ، ومدّ ذراعه فى إيعاز وتلقين وسألهن :

— أتعدننى بذلك ؟ .

فسالت دموع الفتيات وقلن :

— نعم ، نعدك .

فقال لهن فى صوت جهير :

— تقبلت وعدكن باسم الإله الجبار .

وانتهى الحفل ، وقد بكى الملك نفسه ، وظلّ چوليان مضطرب النفس وقتا طويلا ، ثم عاوده الهدوء فسأل عن رفات القديس كليمنت التى أرسلت من روما إلى فيليب الطيب دوق برجونيا ، فقيل له: إنها مخبأة داخل هذا التمثال الشمعى الجميل .

وسمح جلالة الملك للفتيات اللائى رافقنه إلى الكنيسة ، أن يحملن

أشرطة حمراء ، طرزت بهذه الكلمات : الكراهية للكفار ، عبادة أبدية .

ثم أمر المركيز دى لامول بأن توزع على الفلاحين عشرة آلاف زجاجة من النبيذ . وفى المساء كان أحرار فرييير قد وجدوا سبباً يقيمون من أجله زينات خيراً من زينات الملكيين مائة مرة . وقد زار الملك قبل رحيله السيد دى موارو .

الفصل التاسع عشر

التفكير وسيلة الالام

[إن سخف الحوادث اليومية ليحجب عنك الآلام الحقة التى تضطرم بها العواطف .] بارناف

عثر جوليان فى الغرفة التى أعدت لإقامة المركيز دى لامول على أربع ورقات سميكة مطوية ، وذلك حين كان الخدم يرتبون أثاث الغرفة بعد رحيل المركيز . وقرأ جوليان فى أسفل الصفحة الأولى هذه الكلمات : إلى حضرة صاحب السعادة الماركيز دى لامول ، عضو المجلس الفرنسى الأعلى ، وحامل وسام الملك ... ثم قرأ الرجاء التالى ، وقد كتب بخط كبير كخطوط الطاهيات :

سيدى المركيز :

« لقد تمسكت طول حياتى بمبادىء الدين ، وكنت فى ليون معرضا للقنابل أثناء الحصار عام ٩٣ ، خلال تلك الفترة الأليمة . إنى أتناول القربان وأذهب إلى كنيسة خوريتنا فى أيام الآحاد لأؤدى فرضى نحو ربى : ولم أنقطع مرة واحدة عن أداء واجبى الفصحى حتى فى عام ٩٣ ، عام الذكرى الأليمة المرة . وطاهيتى لا تطعم اللحوم فى أيام الجمعة ، ويسعدنى أن أخبركم أننى قبل الثورة كنت من ذوى اليسار وكان لى خدم وأتباع . وأنا أتمتع فى فريير بثقة كبيرة وأستطيع أن أقول : إننى جدير بها . أسير فى المواكب العامة تحت المظلة بجوار الخورى والعمدة ، وأحمل فى المناسبات الكبيرة

شمعة ضخمة أشتريها من مالى ، وكل ما يختص بى من أوراق وشهادات فى وزارة المالية فى باريس . أما طلبى من سيدى المركيز فهو أن يتفضّل بتعيينى فى مكتب يانصيب ڤريير فى الموضع الذى سيخلو قريباً ، لأن شاغل هذا المنصب قد اشتدّ به المرض ، وهو بعد يسىء استعمال صوته فى الانتخابات . . . . »

دى شولان

وفى هامش هذا الرجاء حاشية وقّعها دى موارو جاء فى أولها :

« أتشرف بأن أرجو سعادتكم فى إجابة ملتمس حامله ؛ وهو من الرعايا المخلصين . . . . »

قرأ چوليان هذا الطلب فقال فى نفسه : حتى هذا الأحمق دى شولان يرشدنى إلى الطريق الذى يجب أن أتبعه !

كانت زيارة ملك . . . لڤريير مثار أحاديث مختلفة ، نشأت منها أكاذيب لا حدّ لها ومناقشات تافهة ، واستنتاج لا طائل من ورائه ، تتناول الملك تارة ، ورئيس أساقفة أجْد تارة أخرى ، وكذلك المركيز دى لامول ، وعشرة آلاف زجاجة النبيذ ، وسقوط المسكين دى موارو عن ظهر جواده ، وما إلى ذلك . وقد حرص دى موارو على الاعتكاف فى منزله شهراً كاملا ، لعلّه يحصل على وسام جزاء سقوطه عن الجواد . لكن أهمّ ماشغل أهل ڤريير وجعلهم يتحدثون عنه ثمانية أيام بعد زيارة الملك ، هو إقحام چوليان سورل فى حرس الشرف ، فتساءلوا ساخطين : كيف يتاح له هذا وهو ابن نجار وضيع ؟ ومن الطريف أن تسمع رأى الأغنياء

من أصحاب المصانع فى ڤرييه الذين كانوا يجتمعون صباحاً ومساء فى المقهى ينادون بالمساواة حتى بُحّت أصواتهم ؛ فقد رأوا أن مدام دى رينال السيدة المتكبرة هى التى حملت زوجها على أن يزجّ بجوليان فى حرس الشرف ، إنها هى التى ارتكبت هذه الحماقة الكبرى ، فما السبب فى ذلك ؟ إن جمال عيون جوليان ونضارة وجهه وشبابه تجيب فى صراحة عن هذا السؤال .

عادت أسرة دى رينال من ڤرجى إلى ڤرييه ، ومرّ زمن قصير فمرض ستانيسلاس كزاڤييه أصغر الأبناء بالحمى ، فجزعت أمه جزعاً شديداً ولامت نفسها فى عنف على خيانتها لزوجها وحبها لجوليان . شعرت لأول مرة بوخز ضمير لا يفارقها لحظة ، وخيّل إليها أن مرض ابنها انتقام من السماء نزل عليها لعظم جرمها وشناعة إثمها . وهى على تدينها العميق لم تفكر من قبل فى أن الله لا يرضى عن ذلك الإثم العظيم .

أحبّت الله حبًّا شديداً وهى فى «دير القلب المقدس» ، وأصبحت الآن تخشاه خشية عظيمة ونفسها فريسة لصراع أليم ، وحال خوفها العظيم بينها وبين أن تسمع صوت العقل . ووجد جوليان أنّ كلّ محاولة إلى إقناعها بالهدوء لا تجدى ، وأن المنطق فى الحديث يغضبها ويثير حفيظتها ؛ وكأنما كانت حججه فى نظرها صوت نذير من جهنم . وكان جوليان يحب الطفل كثيراً ، ويتحدث إليها عن مرضه فيلقى الحديث فى نفسها صدى ، ويبعث فيها شيئاً من الهدوء والرزانة . لكنّ وخزات ضميرها كانت شديدة فأقلقت حياتها وأقضت مضجعها ، وعقلت لسانها عن الكلام ؛

فكان صمتها طويلا مخيفاً ، وإن تكلمت فلا لشيء إلا لتعترف بإثمها لله والناس . ولقيها جوليان وحدها يوماً فقال لها :

— أتوسل إليك ألاّ تتحدثى إلى غيرى ، تكلّمى إلىّ وحدى ، وبثينى آلام نفسك ، وإن كنت لا تزالين تحبيننى فكفى عن الكلام ؛ إن حديثك إلى الناس لن يشفى عزيزنا ستانيسلاس من الحمى .

ولم تُجد نصائحه ومشاركتها آلامها شيئاً ، ولم يكن يعلم أن مدام دى رينال وطّدت عزمها على أن تكرهه أو على أن ترى ابنها يموت بين يديها لتخفّ عنها نقمة الله . وكانت حزينة متألمة لأنها لا تجد سبيلا إلى كراهية حبيبها ، فقالت له يوماً :

— أستحلفك بالله أن تغادرنى ، اترك المنزل ، فإن وجودك فيه يقتل ابنى . ثم استطردت فى صوت خفيض :

— إن الله يعاقبنى على جريمتى ، وإنه عادل ، وقد وطّدت نفسى على تحمّل العقاب . جرمى فظيع ! كنت أحيا من قبل حياة لا أعرف فيها وخزات الضمير ! هذه أول علامة تخلّى الله عنى ، وسيكون عقابى شديداً مضاعفاً .

تأثّر جوليان تأثراً عميقاً لأنه لم ير فى كلامها نفاقاً ولا مبالغة ، وقال فى نفسه : هى تعتقد أنها تقتل ابنها بحبها إياى ، ومع ذلك فهذه البائسة تحبنى أكثر من ابنها ، وأنا لا أشكّ أبداً فى ذلك . إن وخز ضميرها يقتلها قليلا قليلا ، وعواطفها نحوى قويّة نبيلة ، ولكن كيف استطعت أن أنال

منها هذا الحب العنيف ، وأنا الذى قد نشأت بين جهل وفقر ، لا تخلو حركاتى أحياناً من فظاظة وغلظة ؟

بلغ الألم بالطفل منتهاه فى إحدى الليالى . اشتدت عليه الحمى والتهبت وجنتاه وجاء أبوه فى الساعة الثانية صباحاً ليراه ، فلم يعرف الطفل والده . وهنا ارتمت مدام دى رينال فجأة عند قدمى زوجها ، ففطن جوليان إلى أنهـا ستعترف بكل شيء ، وفى ذلك هلاك محقق . لـكن السيد دى رينال غضب من حركاتها لحسن حظهما وانصرف قائلا :

— الوداع ! الوداع !

فصاحت زوجه وهى راكعة أمامه ، تحاول أن تستبقيه :

— لا ، لا تذهب . يجب أن تعرف الحقيقة كاملة . إننى أنا التى أقتل ولدى ! لقد كنت سبب وجوده ، وها أنذا أكون سبب موته . إن السماء تعاقبنى لأنها تعتبرنى سفاكة أثيمة ، فيجب أن أهين نفسى وأذلها لتـكون التضحية وسيلة إلى غفران آثامى !

ولو أن السيد دى رينال كان خصب الخيال لعرف كل شيء ؛ لـكنه صاح بامرأته وهى تحاول أن تستوقفه وتقبل ركبتيه قائلا لها :

— هذه آراء خيالية ! أمّا أنت يا جوليان فاستدع الطبيب فى الصباح الباكـر .

ثم عاد إلى غرفته لينام . وأمّا مدام دى رينال فقد هوت على ركبتيها وكاد يغمى عليها . وخفّ إليها جوليان ليغيثها فدفعته عنها فى شدة ؛ فظلّ فى مكانه مذهولا يقول فى نفسه : هذه هى الزانية ! ... فهل لى أن أعتقد

أن القس على وضاعتهم . . صائبو الرأى ؟ إنهم يرتكبون كثيراً من الذنوب ، لكنهم هم أصحاب الامتياز فى أن يعرفوا النظرية الصحيحة للآثام ، فيالها من مهزلة ! . . .

وظلّ عشرين دقيقة يرى المرأة التي يحبها بعد أن غادرها زوجها ، وقد أسندت رأسها إلى السرير الصغير الذى ينام عليه الطفل المريض ، ساكنة لا تتحرك ولا تحسّ . فقال فى نفسه : ها هى ذى امرأة عظيمة عبقرية ومع ذلك بلغ بها الأسى منتهاه وهدّها الحزن لأنها عرفتنى .

الوقت يمضى سريعاً ، فماذا أستطيع أن أفعل من أجل محنتها ؟ ينبغى أن أعرف ذلك فى الحال . علىّ أن أرحل من ذلك المكان . وماذا يهمنى من الرجال ومصانعتهم التافهة ؟ ماذا أستطيع أن أفعله من أجلها ؟ أأتركها وحدها فريسة لآلامها القاسية ؟ هذا الزوج الآلىّ يضرّها أكثر مما ينفعها . سيسمعها كلمات قاسية لأنه فظ غليظ ، وقد تفقد رشدها وتلقى بنفسها من النافذة . وأنا إذا تركتها ، ولم أعد أرقبها وأسهر عليها عن كثب ، ستعترف له بكل شىء . ومن يدرى ! إنه ربما أثار فضيحة على الرغم من الميراث الذى سترثه عن عمتها . وربما اعترفت ، يا إلٰهى إلى هذا الوغد ، إلى الخورى مالون ! وإذا فعلت هذا لزم الخورى منزلها لأمر فى نفسه ، واتخذ مرض الطفل ذريعة لإقامته . وهى فى ألمها وخوفها من الله تنسى كل ما تعرفه عن الرجل ، ولا ترى فيه إلا القسّ . .

وفتحت مدام دى رينال عينيها ، وقالت له بغتة :

— اذهب عنى !

فقال لها چوليان :

— إنى لأهب حياتى ألف مرّة لأعلم ماذا ينفعك ... لم أحبك قبل اليوم كما أحبك الآن يا ملكى العزيز ، لقد بدأت أعبدك منذهذه اللحظة فحسب كما ينبغى لك أن تعبدى . وماذا يكون مصيرى حين أصبح بعيداً عنك ، وضميرى يؤنبنى لأنك أصبحت بائسة بسببى ؟! لا أحبّ أن أتحدث إليك عن آلامى ، سأرحل ، نعم سأرحل يا حبيبتى . ولو تركتك ولم أسهر عليك ، واقفاً بينك و بين زوجك ، إذن لاعترفت له بكل شىء وفى هذا هلاكك . فكرى فى أنه سيطردك شر طردة تحملين فضيحة وعاراً ، وسيتحدث أهل ڤرييز جميعاً عنك وأهل بيزانسون عن هذا العار . وسيحملونك وحدك الوزر والآثام ، وسيظل العار يطاردك أينما تكونين .

فنهضت وصاحت قائلة :

— هذا ما أريد ، ومن الخير لى أن ألقى العذاب .

— لكن هذا العار الشنيع سيؤذى زوجك كما يؤذيك !

— ولكنى سأعمل على امتهان نفسى ، سألقى بها بين الأوحال لعلى أنقذ ولدى . وربما كان إذلالى إياها أمام الناس جميعاً توبة عامة ، وإن حال ضعفى بينى و بين الاقدام . أليس هذا تكفيراً خالصاً يرضاه الله ؟ ... ربما قبل هوانى وتوبتى وأبقى لى طفلى ! دلّنى على ما هو أعظم مما سأقدم عليه ، وكن على يقين من أننى لن أتردّد !

— دعينى أنزل العقاب بنفسى ، فأنا كذلك معتد أثيم . أتريدين أن أعيش وحدى وأعتزل الناس جميعاً ؟ إن خشونة هذه الحياة وقسوتها

قد تهدئان من غضب الله ... آه ! يا للسماء ! لم لا أستطيع أن أحمل عن ستانيسلاس قسوة مرضه ؟ . .

فنهضت مدام دى رينال وارتمت بين أحضانه قائلة :

— آه ! إنك تحبه كذلك .

ولكنها سرعان ما تخلصت من ذراعيه ودفعته عنها فى فزع ورعب ، ثم ركعت أمامه واستطردت تقول :

— إنى أصدقك ! إنى أصدقك ! يا صديقى الوحيد ! لماذا لم تكن أنت والد ابنى ستانيسلاس ؟ لو أنك كنت أباه ما كان فى حبى لك إثم ولا حرج حين يكون أكثر من حبى لابنك ستانيسلاس .

— أتسمحين لى بالبقاء ، على أن يكون حبى إياك منذ الآن حب أخ لأخته ؟ وهذا هو المخرج الوحيد المعقول ، وعسى أن يخفف من غضب الله علينا . فصاحت ممسكة برأسه بين يديها ، وهى تنظر فى عينيه :

— وأنا ، أفى وسعى أن أحبك كما تحب أخت أخاها ؟ أأستطيع أنا ذلك ؟

فبكى چوليان وارتمى تحت قدميها قائلا :

— سأطيعك ، سأنزل على إرادتك فى كل ما تأمرين . وهذا كل ما أستطيعه الآن . لقد أصابتنى غشاوة فأصبحت لا أدرى ما أنا فاعل، لو أنى تركتك لاعترفت لزوجك بكل شىء، وفى هذا هلاكك وهلاكه ؛ ولن يصبح يوماً ما نائباً إن حلت به هذه المصيبة . وإذا بقيت بجانبك أعتقدت إنى سبب موت ابنك فيقتلك الألم . أتريدين أن تجر بى أثر رحيلى ؟ إن شئت

عاقبت نفسى على إثمنا ، وعشت بعيداً عنك ثمانية أيام فى أى مكان تختارينه بعيداً عن الناس : فى دير «براى لاهو» مثلا . ولكن أقسمى لى بأنك لن تعترفى لزوجك وأنا غائب . وتذكّرى دائماً أننى لن أستطيع الرجوع إذا بحت له بشىء .

فوعدته ، ورحل ، ولكنه استدعى بعد يومين . ورأته فقالت :

— من العسير على أن أفى بوعدى وأنت بعيد عنى . إن لم تكن بجانبى فى كل لحظة لتأمرنى نظراتك بالصمت أفضيت إليه بكل ما بيننا . فكلّ ساعة من هذه الحياة المريرة تمرّ علىّ وكأنها يوم كامل .

وأخيراً رحمت السماء هذه الأم البائسة ، وبدأ الخطر يزول عن ستانيسلاس شيئاً فشيئاً ، ولكن الأم علمت شيئاً جديداً ؛ فقد أدركت عظم جريمتها ، فلم تعد تملك السيطرة على نفسها ، ولم تفارقها وخزات ضمير وجدت مرتعاً خصباً فى قلبها المخلص . كانت حياتها جنة تارة وتارة سعيرا ، تشقى كل الشقاء حين لا ترى جوليان ، وتسعد كل السعادة حين تكون عند قدميه . وكثيراً ما قالت له وهى فى تلك اللحظات التى يكون الحب فيها قد ملك عليها نفسها ومشاعرها :

— لست أحبّ أن أخدع نفسى ، فأنا أعلم أنى أثيمة ، صبّت علىّ السماء غضبها . أما أنت فشاب صغير السن قد أستجاب لغوايتى ، فلا بد أن يغفر لك الله . لا غفران لى بعد اليوم ! وأنا أعلم هذا حقّ العلم من أمارة لا تخلف ! أنا خائفة ، ومن ذا الذى لا يخاف حين يرى الجحيم ؟

لكنني لا آسف على شيء ، ولو أن الخطأ الذى وقعت فيه يُرتكب مرة أخرى ما تردّدت فى ارتكابه . على أنى أرجو ألاّ تعاقبنى السماء فى الدنيا بأن تقتصّ منى فى أبنائى ، وإن كنت أعلم أن جزائى فى الآخرة أدهى وأشدّ تنكيلا .

وفى لحظات أخرى كانت تقول له :

— ولكن خبرنى يا عزيزى جوليان أأنت سعيد ؟ وهل تشعر بما أكنّه لك من حب جارف ؟

فطر جوليان على الحذر وعلى أنه مجروح الكبرياء ، لذلك كان فى حاجة إلى حب مُضحّ مخلص . وقد زايله الحذر والكبرياء حين رأى ما تضحى به صديقته من أجله فى كل ساعة تضحية صادقة لا رياء فيها ؛ فعبدها عبادة . وكثيراً ما ناجى نفسه قائلا : مهما تكن كريمة المحتد ومهما أكن أنا ابن عامل فقير فهى تحبنى ولا شك . . . لست فى نظرها خادماً أمر بأن يؤدى مهمة العاشق .

ولما تبدّد الخوف من نفسه ، غمرته ألوان الحب الجنونى بما فيه من شك أليم . وكانت مدام دى رينال ترى شكوكه هذه فتقول له :

— أريد على الأقلّ أن أسعدك فى الأيام القليلة التي نعيشها معاً ! فلنسرع فى انتهاز الفرصة . ومن يدرى ، ربما انقضى كل ما بيننا غدا !؟ فلو أن السماء عاقبتنى بأن اقتصت منى فى أبنائى ، فإنى لا أستطيع أن أعيش فى هذه الدنيا لأحبك ، ولن أتمكن من أن أقنع نفسى بأنّ جريمتى لم تقتل ولدى . لو أصابتنى هذه الصدمة ما عشت من بعدها .

ولو رغبت فى الحياة ، ما وجدت إليها سبيلا ، ولأصابنى الجنون

آه ! ليتنى أستطيع أن أحمل عنك وزرك ، كما عرضت فى كرم بالغ أن تحمل الُحمّى الخبيثة عن ولدى ستانيسلاس !

وغيرت هذه الأزمة الخلقية الشديدة الطابع العاطفىّ الذى يربط جوليان بخليلته ، فلم يعد حبه مقصوراً على الإعجاب بجمالها ، ولا على الفخر بأنها فى متناول يده يملكها و يسيطر عليها ، بل أصبحت سعادتهما أكثر عمقاً وأحلى مذاقا ، وأصبح حبهما أشدّ قوة ورواء . وكانت تعتور نفسيهما اضطرابات جنونية . وكأنهما كانا سعيدين إلى أبعد الحدود ، لكنهما فى الواقع لم يعودا يشعران بالطمأنينة الهادئة ولا بالسعادة الصافية التى لا يُغطى سماءها سحاب ، سعادة أيام حبهما الأولى . وذلك لأن مدام دى رينال تخشى الآن كثيراً أن يكون هوى جوليان قد فتر ، وصارت سعادتهما تتخذ فى بعض الأحيان صورة الجريمة .

أما فى اللحظات السعيدة الهادئة ، فإنها كانت تصيح بغتة وهى تضغط على يده بيد مرتعشة وتقول :

— آه ! يا إلهى ! إنى لأرى جهنم ! يا للعذاب الأليم ! إنى استحقه .

ثم تضمه إليها فى قوة وحب وتلتصق به كما يلتصق اللبلاب بالجدار.

وحاول جوليان عبثاً أن يهدىء اضطراب نفسها ، فأمسك يدها وأمطرها بالقبل لكنها فكرت فى الجحيم من جديد ، وأخذت تقول :

— ستطهرنى جهنم من آثامى ، ولكن لا تزال لى بضعة أيام أعيشها معه على الأرض . غير أنّى أخشى جحيم الدنيا ، وهو أن أفقد

أولادى . . . وربما يعفو الله عنى لو عاقبنى هذا العقاب الصارم . . . آه ! يا إلهى ؟ أرجو ألا يكون صفحك عنى جزاء فجيعتى فى أبنائى . إنهم أطفال أبرياء لم يغضبوك ولم يقترفوا إثماً ، ولكننى أنا وحدى الآثمة لأننى أحب رجلا ليس زوجى .

وكان چوليان يراها فى بعض الأحيان هادئة الظاهر لأنها كانت تحاول التغلب على مخاوفها لتهيىء لحبيبها هدوءاً وسعادة . وأخذت الأيام تمضى سراعا وحياتهما كلها حب ولذة وندم ، ولم يعد چوليان يعمد إلى التفكير الطويل .

ذهبت الآنسة إليزا يوماً إلى ڤرييرلتحضر قضية تافهة ، فلقيت السيد ڤالنو وألفته مغيظاً من چوليان ناقماً عليه ، وكانت هى كذلك تكرهه منذ أن رفض أن يتزوجها . ولما تحدثت إلى ڤالنو قالت له :

— لو أنى أفضيت إليك بالحقيقة يا سيدى ، لكان فى ذلك هلاكى ! .. فالسادة جميعاً لا يختلفون فيما بينهم فى الأمور الخطيرة ... ولا يصفحون عن الخدم أبداً إذا اعترفوا ببعض ما يعرفون .

وسمع السيد ڤالنو هذه العبارات المألوفة ، فدفعه حب الاستطلاع إلى أن يحمل إليزا فى مهارة على الإفضاء بما تعرف ، فأخبرته بما آلمه وجرح كبرياءه جرحا بليغاً . فهذه السيدة التى تعد من أرقى نساء الإقليم ، كثيراً ما تملقها السيد ڤالنوا وغازلها وحاول أن يتقرب منها ، ومما يؤسف له أن ذلك كان على مرأى ومسمع من الناس ؛ لكنها كثيراً ما احتقرته فأخجلته . هذه المرأة المتكبرة قد اتخذت خليلا ، ويا له من خليل ! إنه عامل حقير

تنكر في ثياب معلم ! و بلغ حزن السيد مدير التصرفات غايته حين علم أنها تعبد هذا الخليل . ثم قالت إليزا للسيد فالنو وهى تتنهد :

— إن السيد لم يبذل فى هذا الغزو جهداً كبيراً ، بل إنه ليظهر لسيدتى دائماً ما جبل عليه من فتور .

ثم أخبرته أنها لم تتأكد من صلتهما إلا بعد أن ذهبوا إلى الريف ، و إن كانت تعتقد أنها صلة قديمة . ثم قالت له فى حسرة وحزن :

— ولا ريب فى أنه رفض الزواج بى من قبل لعلاقته بسيدتى . فيالى من بلهاء لجأت إلى مدام دى رينال أطلب منها النصح وأرجوها أن أن تتحدث عنى إلى المعلم !

وما حل مساء اليوم ، حتى تسلم السيد دى رينال من المدينة مع الصحيفة كتاباً طويلا بدون توقيع ، ذكر فيه كاتبه كل ما يدور فى منزله بإسهاب . وكان چوليان يرقب العمدة وهو يقرأ الخطاب ، فرأى لونه وقد امتقع امتقاعا شديداً ، ونظر إليه نظرات تنطوى على الشر . وكان الخطاب مكتوباً على ورق يضرب إلى الزرقة ، وقد ظل العمدة مضطرباً جداً طوال السهرة . وحاول چوليان عبثاً أن يتملقه بأن أخذ يوجه إليه أسئلة كثيرة يستفسر بها عن نسب الأسر العريقة فى بورجونيا .

الفصل العشرون

الخطابات المجهولة

[لا تطلق العنان كثيرا لمتعك ، فإن الأيمان المغلظة
كالهشيم لتلك السعير الذى يضطرم فى الدم .]
العاصفة

هم جوليان بمغادرة الصالون فى منتصف الليل ، فأتيحت له فرصة أن يتحدث إلى صديقته فقال :

— يجب أن يلتقى فى هـذه الليلة ، لأن نفس زوجك قد ساورتها الشكوك ، وأقسم أن هذا الخطاب الطويل الذى كان يقرؤه متنهداً إنما هو خطاب أرسله إليه مجهول .

ثم احتاط جوليان للأمر، فأغلق باب حجرته من الداخل. وجن جنون مدام دى رينال حين ظنت أنه زهد فى لقائها فاعتذر لها بما قال ، وفقدت رشدها حين ذهبت إلى غرفته فى الساعة الموعودة ، لأنه لم يكد جوليان يسمع جلبة فى الردهة حتى أطفأ المصباح . وسمع محاولات عنيفة ليفتح باب الغرفة فسأل نفسه : أهذه هى مدام دى رينال ؟ أم هذا زوجها الغيور ؟

وفى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى ، دخلت عليه طاهية كانت تحبه وتعطف عليه ، وفى يدها كتاب خط على غلافه باللغة الإيطالية هذه الكلمات : أنظر صفحة ١٣٠ .

ارتعدت فرائصه فرقا من تلك الغفلة ، وفتح الكتاب حيث الصفحة

المطلوبة فوجد خطاباً قد كتب على عجل وتساقطت على رقعته دموع غزيرة وكثرت فيه الأخطاء الإملائية على غير عادة كاتبته مدام دى رينال ، فتأثر حتى كاد ينسى الحماقة التى قد تجر عليهما الويل والثبور ، كتبت مدام دى رينال لصديقها تقول :

« لم أبيت أن تستقبلنى فى الليلة الماضية ؟ تمرّ علىّ لحظات أعتقد فيها أننى لم أتمكن بعد من معرفة ما يدور فى نفسك . نظراتك تبعث الرعب فى نفسى . أنا خائفة منك . يا إلهى ! هل أحببتنى حقا ؟ إن صحّ هذا فلسب أبالى أن يكشف زوجى ما بيننا من حب ، وحتى ولو زوجنى فى سجن مقيم فى الريف بعيداً عن أبنائى ، ربما كُتب علىّ هذا المصير ، إنى سأموت بعد قليل ، ولكنك ستظل شيطاناً . ألا تحبنى ؟ هل أتعبتك بما يعترينى من نوبات جنونية ومن وخزات ضميرى أيها العاقّ ؟ أتريد هلاكى ؟ سأدلك إن كنت تريد على طريقة هينة سهلة ، فاذهب بخطابى هذا وأطلع عليه أهل ڤريير جميعاً ، أو أطلع عليه السيد ڤالنو وحده ، وقل له إننى أحبك ، استغفر الله بل قل له إننى أعبدك ، وما عرفت الحياة ولا تمتعت بها إلا من يوم لقياك . قل له إننى يوم كنت شابة طائشة لم أكن أحلم بما سبغته علىّ من سعادة أنا مدينة لك بها . وقل له : إنى ضحيت من أجلك حياتى ، وأضحى من أجلك بروحى ، وأنت تعلم أنى أضحىّ بما هو أعز من ذلك وأغلى !

« ولكن هل يفهم هذا الرجل قيمة التضحية ؟ خبّره ثم خبّره لتزيد غضبه من أنى لا أبالى بالأشرار ، وأن ليس فى العالم كله إلا شر واحد

يصيبنى ، هو أن أرى الرجل الوحيد الذى أعيش من أجله قد تغيّر . وكم يطيب لى أن أفقد حياتى ، مضحية بها لأنجو من خوف يساورنى على أطفالى ! .

« ثق يا صديقى العزيز بأن كاتب الخطاب المجهول — إن صحّ أن هناك خطابا — هو هذا المخلوق الذميم ، الذى طاردنى ستة أعوام بصوته الجهير ، و بقصصه عن قفزات الجياد وهو على ظهرها ، و برقاعته وسخفه حين يعدّد لى محاسنه ومزاياه .

« هل تلقّى زوجى خطاباً من مجهول ؟ أردت أن أبحث هذا معك أيها القاسى ، ولـكنك أحسنت صنعاً بما فعلت ، فلو كنت بجانبك أعانقك عناقاً ربما كان الأخير ، استطعت أن أبحث الأمر فى هدوء وفتور كما أبحثه وحيدة ، لم تعد سعادتنا سهلة المأخذ منذ الآن كما كانت من قبل ، فهل يؤذيك هذا ؟ نعم ، إنه يؤلمك فى الأيام التى لا تتلقى فيها كتابا مسلياً من المسيو فوكيه . لقد وقعت التضحية ، وسأخبر زوجى غدا بأنى تسلمت خطابا غفلا ، سواء أكان قد وصله خطاب من مجهول أم لم يصله ، وسأطلب إليه أن يسدى إليك خيراً فيخلق عذراً مقبولا يسوّغ به إرسالك إلى والديك فى الحال .

« وا أسفاه أيها الصديق العزيز ! سنفترق خمسة عشر يوما ، وربما طال الفراق فصار شهرا ! يالله ! يجب أن أكون عادلة معك لأنى أعلم أنك ستلقى عذاباً كالذى ألقاه ، وليس أمامنا من سبيل نسلكه إلاّ هذا السبيل ، لنمحو أثر هذا الخطاب اللعين ، على أنه ليس أول خطاب يتسلمه

زوجى ؛ فقد أرسلت إليه من قبل خطابات تناولتنى بالسوء . وا أسفاه ! كم كنت أضحك ساخرة منها قبل ذلك ! .

« إننى أرمى من وراء ما أفعل أن أحمل زوجى على الاعتقاد بأن كاتب هذا الخطاب هو السيد ڤالنو ، وأنا واثقة من ذلك كل الثقة . و إذا ما غادرتنا فلا تتردّد فى الإقامة فى ڤريير . وسأقنع زوجى بالذهاب إليها والإقامة فيها خمسة عشر يوماً حتى نبرهن لأولئك الحمقى على أنى أنا وزوجى على وفاق كامل . و إذا ما كنت فى ڤريير ، فصادق جميع الناس حتى الأحرار ! وأنا أعلم أن أولئك السيدات سيتملقنك و يتقربن منك .

« حذار أن تغضب من السيد ڤالنو ، أو أن تنفذ ما توعدته به من قبل ، فتقطع أذنيه ، أوصيك أن تظهر له خير صفاتك ورقة حاشيتك ، حتى يعتقد أهل ڤرييرجميعاً أنك ستصبح مؤدب أولاد ڤالنو أو أى شخص آخر ؛ وهذه هى النقطة الأساسية الحساسة .

« لن يصبر زوجى على هذا ولن يطيقه . ولكن هل يقتنع بذلك ؟ ستسكن على كل حال فى ڤرپير ، وسأراك بين آن وآخر ، وسيراك أولادى لأنهم يحبونك كثيرا . يا إلهى ! لكأنما زاد حبهم فى قلبى حين رأيتهم يحبونك . كم ألوم نفسى ! وعلى أى وجه سينتهى هذا الأمر ؟ . . . لقد ضللت الطريق المستقيم . . . يخيّل إلىّ أنك تعرف الآن ما يجب أن تعمله : كن رقيق الحاشية ، مؤدباً ، وأضرع إليك ألاّ تحتقر هؤلاء الأفظاظ ، أتوسل إليك ، فهم وحدهم الذين يتحكمون فى مصيرنا ، وثق تماماً أن زوجى لن يرضى عنك إلاّ بمقدار ما يمليه عليه « الرأى العام » .

« أنت الذى ستهيء لى الخطاب الغفل الذى سأقدمه إلى زوجى ، فتذرع بالصبر ، وتسلح بمقصّ . واقطع من أى كتاب كان هذه الكلمات التى ستقرؤها ثم ثبتها بالغراء على الورقة الضاربة الزرقة التى أرسلها إليك . وسأدعى أنا أن هذا الخطاب من السيد ڤالنو ؛ وتوقع دائماً أن تفتش غرفتك ، فأشعل النار فى الكتاب الذى قصصت بعض صفحاته . وإذا لم تجد الكلمات معدّة فاصبر وكونها حرفاً حرفاً . وقد جعلت الخطاب موجزاً لكيلا أجهدك كثيرا . واأسفاه ! إن كنت لا تحبنى حقاً كما أخشى فستجد خطابى هذا طويلا مملا ! » .

خطاب غفل

« سيدتى :

« قد عرفت جميع دسائسك الوضعية ؛ على أنّ الأشخاص الذين يحرصون على كتمانها قد أخطروا بها . وأنا أدعوك إلى أن تهجرى هذا الفلاّح الحقير هجراً تاماً باسم ما بقى فى قلبى لك من صداقة . وإذا تغلبت عليك الحكمة واستمعت إلى نصحى ، اعتقد زوجك أنّ ما بلغه عنك كذب وهراء ، وعلى هذا فسنتركه فى ضلاله . تذكرى دائماً أننى أعلم أسرارك ، فارتعدى أيتها البائسة ، ويجب أن تكونى من الآن طوع بنانى » .

« وإذا ما انتهيت يا چوليان من لصق كلمات هذا الخطاب فأخرج من غرفتك وسألقاك فى المنزل . (ولعلك قد عرفت فيه أسلوب المدير وطريقة كلامه) سأذهب إلى القرية وأعود منها مضطربة مكفهرة الوجه ،

وفى الحق أنى سأكون كذلك . يا إلهى ! علام أقدم ؟ أكلّ هذا لأنك ظننت أن زوجى تسلم خطاباً غفلا من الإمضاء ؟ سألقاه بوجه غضوب ، وأقدم إليه الخطاب مدعية بأن قرويا لا أعرفه سلمه إلىّ . وعليك أنت أن تذهب بالأطفال إلى طريق الغابات الكبيرة بحيث لا تعود من نزهتك إلا وقت الغداء .

« وتستطيع أن ترى من فوق قمم الصخور برج الحمام ، فإذا سارت أمورنا على ما نهوى فسأرفع منديلا أبيض ، وإلاّ فلن يكون هناك شىء .

« هل يجد قلبك ، يا جحود ، سبيلا إلى أن يقول لى قبل أن تذهب إلى النزهة إنه يحبنى ؟ ومهما يكن فأرجو أن تثق أنى لن أعيش يوماً واحداً بعد أن نفترق فراقاً أخيرا . آه ! يالى من أمّ فاسدة ! على أن هذه الجملة الأخيرة لا قيمة لها عندى ، فلا أفكر إلا فيك يا چوليان فى هذه اللحظة ، ولم أكتبها إلا مخافة لومك وعتابك . أرى أنى سأفقدك وشيكا ، فلم أخفى عنك الحقائق ؟ نعم ، فلتر إذا شئت أن نفسى تنطوى على وحشية قاسية ، ولكن ينبغى لى ألاّ أكذب الرجل الذى أعبده ! لقد خدعت من قبل طول حياتى الماضية . ومع كلّ فأنا أصفح عنك إذا كان حبك قد نضب معينه . ليس لدىّ وقت كاف لقراءة ما سطرت لك . لقد قضيت بين أحضانك أياما سعيدة تتضاءل أمامها حياتى ؛ وأنت تعلم أن سعادة هذه الأيام ستكلفنى أكثر من حياتى » .

الفصل الحادى والعشرون

حوار مع سيد

[أسفا ، إن ضعفنا هو السبب ولسنا نحن : فهكذا خلقنا وكما خلقنا نكون .]

الليلة الثانية عشرة .

أكبّ چوليان على العمل الذى كلّفه ساعة كاملة يجمع الكلمات فى لذة وشغف كأنما هو طفل . ولما غادر غرفته لقى تلاميذه وأمهم ، فأخذت منه الكتاب فى بساطة وشجاعة حتى أخافه هدوؤها ، ثم قالت له :

— هل جفّ الصمغ تماما ؟ .

فأخذ يسائل نفسه : أهذه هى المرأة التى كاد الندم يذهب بفضلها ؟ ما مشروعاتها التى تدور الآن فى رأسها يا ترى ؟ ومنعته كبرياؤه أن يسألها عمّا يخامرها ، ولكن هذا لم يقلل من إعجابه بها . واستطردت صديقته تقول فى هدوء تام :

— لو لم تسر الأمور كما أهوى جرّدت من كل شيء ؛ فخبِّئ هذه الأمانة فى الجبل ، لأنها ربما أصبحت يوماً ما هى كل ما أملكه فى الحياة .

وأعطته وعاء من زجاج فى غلاف من الجلد الأحمر ، ملىء ذهباً وبه بعض ماسات ، ثم قالت :

— إرحل الآن .

ثم قبلت الأطفال ، وقبلت إبنها الأصغر مرتين ، وظلّ چوليان فى مكانه

لا يتحرك ، أما هى فقد غادرته مسرعة دون أن تلقى عليه نظرة واحدة .

كانت حياة السيد دى رينال مؤلمة إلى أبعد الحدود منذ أن تسلّم ذلك الخطاب المجهول ؛ لم يضطرب فى حياته هذا الاضطراب ، إلا يوم أن كاد يبارز فى سنة ١٨١٦ ، ويقتضينا العدل أن نقول : إنّ اضطراب السيد دى رينال من هذا الخطاب كان أشدّ من اضطرابه من رصاصة كادت ترديه فى يوم المبارزة . لقد فحص الخطاب من كل النواحى ثم جعل يسائل نفسه : أليس هذا الخط خطّ امرأة ؟ وإذا كان الأمر كذلك فمن تكون ؟ واستعرض جميع النساء اللائى يعرفهن فى ڤرييرفلم يهتد إلى الكاتبة ، فقال : هل أملى هذا الخطاب رجل ؟ ولكن من يكون هذا الرجل ؟ ولم يكن حظه فى هذه المرة أسعد منه فى المرة الأولى ؛ كان أغلب عارفيه من الرجال يكرهونه ويغارون منه . نهض من مقعده متثاقلا وقد أعياه التعب ثم قال كعادته : علىّ أن أشاور زوجتى فى الأمر .

لكنه ضرب رأسه بيده بعد ما نهض وقال : يا إلهى ! يجب أن أحذرها هى خاصة ، فإنها الآن عدوّى ! ثم أبكاه غضبه وغيظه .

كان جامد المشاعر معروفاً فى المقاطعة كلها بحكمة عملية . فكان جزاؤه العادل فى محنته هذه أنه خشى رجلين من دون الناس جميعاً ، وهما صديقان حميمان ، فقال فى نفسه : ربما كان لى عشرة أصدقاء إذا استثنيت هذين الصديقين . وبدأ يستعرض الأصدقاء ويتحسّس ما قد يجده عند كل صديق من عزاء ، لكنه سرعان ما صاح فى غضب : إنهم سيسرون جميعاً بهذه الفضيحة المرّة سرورا لا حدّ له ! ومن حسن حظه قد كان

يعتقد أنه محسود من جميع الناس ، وكان محقا ؛ لأنه يملك فى فرييير منزلا جميلا ، زاده شرفا على شرفه أن الملك قد نام فيه . وهو بعد قد أصلح قصره فى فرجى إصلاحا بديعاً ، فطليت واجهة القصر بالأبيض ، ومصاريع النوافذ بالأخضر . وحدّت هذه الروعة من غضبه وغيظه بضع لحظات . كان القصر فى الواقع يرى على بعد ثلاثة فراسخ أو أربعة ، وكان يفوق كل المنازل الريفية روعة وبهاء ، تلك المنازل التى سميت ، تجوزا ، بالقصور المجاورة ، والتى خلع عليها مرور الأيام لوناً رمادياً وضيعاً لم تمتدّ إليه يد فتغيرّه .

وكان السيد دى رينال يؤمن بإخلاص وكيل الكنيسة الذى تنهمر دموعه وتسيل نفسه شفقة ولوعة على العمدة إن خبّره بمحنته ، وهو على حمقه يبكيه كل أمر ، لكنّه فى نظر العمدة الرجل الوحيد الذى يعتمد عليه . عند ذلك استولى الغيظ على نفس الزوج وصاح : أية مصيبة تضارع مصيبتى ؟ يالى من بائس يعيش فى عزلة تامة ! و يالغرابة موقفى ! أيصدق إنسان أننى فى محنتى لا أجد صديقا ألتمس منه المشورة وأجد عنده مخرجا مما وقعت فيه ؟ لقد ضلّ عقلى وأنا أشعر بهذا تمام الشعور ! آه يا فالكو ! آه يا دوكرو ! وردّد هذين الاسمين فى مرارة أليمة ، وهما صديقا الطفولة : وقد حملتهما كبرياؤه على التخلى عنه سنة ١٨١٤ ؛ ولم يكونا كريمى

(١) يشير ستندال هنا إلى اثنين من معاصريه هما فالكو ، وكان صاحب مكتبة ودوكرو الذى كان يعمل أمين إحدى المكتبات . وقد تحدث عنهما المؤلف فى إعجاب كبير فى « حياة هنرى برولار » . المعرب

الحتد ، ولم يرقه منهما هذا الأسلوب الذى يدلّ على المساواة والذى درجا عليه منذ الطفولة .

أمّا أحدهما وهو فالكو فرجل حسن الطوية ذكىّ الفؤاد ، تاجر فى الورق فى فريير ثم اشترى مطبعة فى عاصمة المقاطعة ، وأصدر صحيفة . ثم عزم المجمع على إلحاق الخراب به . فهوجمت جريدته واتهمت بشتى التهم ، ثم سحب منه تصريح الطبع . وفى هذه الظروف الأليمة لجأ صديقه إلى السيد دى رينال فكتب إليه عشر سنوات ، للمرة الأولى ، فبدا لعمدة فريير أن يردّ على رسالته بلهجة رومانى قديم فقال له : لو أن وزير الملك شرفنى واستشارنى فى الأمر لقلت له : « عليك أن تلحق الخراب بجميع أصحاب المطابع فى الريف بلا رحمة أو شفقة ، ثم احتكر الطباعة كما تحتكر التبغ » .

تذكّر السيد دى رينال هذه العبارات فى اشمئزاز كبير ، لقد كُتبت إلى صديق حميم كانت فريير كلها تعجب به فى ذلك الوقت أيما إعجاب ، فندم على ما فعل وقال : من ذا الذى كان يعلم أننى سأندم على ما أفعل على الرغم من مكانتى وثروتى وأوسمتى ؟ وقضى ليلته متألما حائرا ، غاضباً على نفسه تارة وعلى كل من حوله تارة أخرى ، لكنه لحسن الحظ لم يفكر فى أن يتجسس على زوجته .

ثم قال فى نفسه : لقد اعتدت أن أحيا مع لويز وهى تعلم كل أعمالى ؛ ولو أننى كنت حراً فى أن أتزوج أخرى من غد ما وجدت من تملأ فراغها. وساير هذا الرأى الذى بدا له، وهو أن زوجته بريئة ، ولم يكن

هذا الرأى بطبيعته يفرض عليه ضرورة إظهار الحزم وصرامة الخلق ومناقشته فى جدّ ؛ وكم رأينا كثيرات يتُهمن فى أعراضهن بالباطل ! .

وسرعان ماصاح بغتة وهو يسير بخطوات مضطربة من الغضب :

ولـكن ما هذا ! أأصبر على الهوان كالذى لا قيمة له ولا كرامة ؟ أأصبر على هذا العبث بى وأدعها تسخر منى هى وعاشقها ؟ أأسكت حتى يسخر من لينى معها أهل ڤرييرجميعاً ؟ أيكون مصيرى مصير شارمييه الزوج الذى خانته امرأته جهارا نهارا ؟ أليست تعلو الابتسامة جميع الشفاه حين يذكر اسمه ؟ إنه محام بارع ، ولـكن من ذا الذى يذكر عبقريته فى فنّ الـكلام ؟ آه ! شارمييه ! إنهم يقولون عنه : شارمييه دى برنارد ، ويدعونه كذلك باسم الرجل الذى يمتهن شرفه .

ثم كان يقول فى لحظات أخرى : أحمد الله على أنى لم أنجب بنات ، ولن يؤثر ما أعاقب به زوجى فى مستقبل أبنائى ؛ فى استطاعتى أن أباغت هذا الفلاح الوضيع وهو فى خلوته معها فأقتلهما معاً ، وعند ذلك قد تغطىّ مرارة المأساة على سخرية الناس .

وصادف هذا الرأى هوى فى نفسه ، فدرس جميع تفاصيله ، ثم قال : إنّ قانون الجنايات فى صالحى ، ومهما يكن فستنقذنى جمعيتنا وأصدقائى المحلّفون . ونظر إلى سكينة الصيد فرآها حادة ، لـكنه مالبث أن ارتاع من منظر الدماء : وقال فى استطاعتى أن أضرب المعلم الوقح فأهشم عظامه ثم أطرده من منزلى ، ولـكن يا لها من فضيحة عامة فى ڤرييربل فى المقاطعة كلها ! لقد ساهمت فى المشروع الذى كنا نرمى من ورائه

أن يفقد رئيس تحرير جريدة فالكو بعد خروجه من السجن ستمائة فرنك بعد أن اتهمنا جريدته فعطلت . ويقال إن هذا الكو يتب جرؤ على الظهور ثانية فى بيزانسون ، وفى استطاعته أن يفضحنى بمهارة بحيث لا أتمكن من مقاضاته . وكيف أحاكمه ! . . . إن الخبيث سيعمد إلى ألف طريقة ليشير من طرف خفىّ إلى أنه ذكر الحقيقة . وإن رجلا كريم الأصل ، يحافظ على مكانته مثلى ، لهو مكروه من السوقة والعامة دائما . آه يا إلهى ! والصحف الباريسية الكريهة ستتناول عرضى ؛ يا لها من هوة سحيقة تلك التى يتردّى فيها الاسم القديم الكريم : اسم دى رينال ! وأية سخرية وعبث سيُلاقى بها ! . . لو أننى اعتزمت السفر يوماً ما لغيَّرت اسمى ؛ ولكن أأتخلى عن هذا الإسم الذى يمدّنى بالقوة والجاه ؟ فيالتعاستى وشقائى ! لو أننى لم أقتل زوجى وطردتها فى مهانة وذلة لوجدت عمتها فى بيزانسون ولأعطتها العمة كل ثروتها فتستطيع أن تذهب لتعيش مع جوليان فى باريس ، ثم يعلم أهل فرييرقصتها ، فأُتّهم بالغفلة والحماقة .

فطن هذا الرجل البائس حين نظر إلى مصباحه ورأى شحوب نوره إلى أن ضوء النهار قد بدأ يظهر ، فذهب يستنشق نسيم الصباح فى الحديقة بعد أن قرر ألاّ يعالج الأمر فى ضجة وجلبة ، لأن ذلك يشرح صدور أصدقائه المخلصين من أهل فريير .

وأفادته تلك النزهة وخففت عنه بعض ما كان يلقاه ، فتحدث إلى نفسه قائلا : لا ، لا أريد أن أحرم نفسى من زوجتى ، إنها لجة المنافع ، ثم تصور منزله يوم يخلو منها فبدا بشع المنظر ، ولم يكن له قريبات غير

المركيزة دى ر . . وهى عجوز شريرة حمقاء .

وطرأت له فكرة على جانب كبير من الصواب ، لكن تحقيقها يتطلب قوة خلق ليست لهذا الرجل المسكين ، فقال فى نفسه : لو أننى أبقيت عليها ما سلم الأمر من أن ألومها على خطئها يوماً من الأيام ، وهى متكبرة معتزة بنفسها ، وعلى هذا يفسد الأمر بيننا ، وسيحدث هذا كله قبل أن ترث عمتها . كم سيسخر القوم منى ! إنها تحب أولادها ، وأنا واثق من أن ثروتها ستكون من نصيبهم . ولكن سأكون حديث أهل فرييز ؛ سيقولون إنى لم أعرف كيف أنتقم منها ! ألا يحسن ألاّ أثير هذه الشبهات ، وأعرض عن هذه الشكوك فلا أسعى وراء التأكد من صحتها ! وعلى هذا أنفض يدى من الأمر كله ، ولن أقدر بعد ذلك على أن أوجّه إليها لوماً .

ومرّت لحظة عادت بعدها إلى السيد دى رينال كرامته المجروحة ، وتذكر فى اهتمام ما كان يدور من حديث فى صالة « البليياردو » بالمقصف الذى يعدّ ندوة الأشراف فى فرييز ، تذكر أن أحد العابثين كان يقف اللعب لحظة ليمرح ساخراً من زوج تخونه امرأته ؛ ولشد ما أصبحت تلك الدعابات فى هذه اللحظة ثقيلة الوطأة على نفسه !

يا إلهى ! ليتها ماتت ! إذن لكنت بعيداً عما سألاقى من سخرية وعبث . ليتنى كنت أيّماً ! إذن لقضيت ستة شهور فى أحسن مجتمعات باريس . و بعد هذه اللحظة التى فيها أسبغت عليه فكرة الترمل بعض السعادة ، عاد به خياله إلى الطرق التى يستطيع بها معرفة الحقيقة . أيضع

في منتصف الليل بعد أن ينام من فى المنزل طبقة رقيقة من النخالة أمام باب جوليان . وفى ساعة مبكرة من الصباح التالى يذهب ليرى آثار الأقدام ؟ لكنه سرعان ما صاح غاضباً : هذه الطريقة لا تجدى . ستعرف الأمر إليزا اللئمة ، وما أسرع ما يذاع فى المنزل أنى غيور . ثم تذكر طريقة أخرى سمعها فى المقصف ، وهى أن زوجا تحقق من خيانة امرأته بأن ألصق شعرة بباب غرفتها وشعرة أخرى بباب غرفة حبيبها . وظل القلق يساوره ساعات حتى اقتنع بأن الطريقة الأخيرة خير الطرق وأجداها ، وعزم على أن يلجأ إليها ، لكنه التقى فجأة فى إحدى طرقات الحديقة بالمرأة التى كان يتمنى أن تموت .

كانت عائدة من ڤرچى حيث ذهبت لتستمتع إلى القداس فى كنيستها . وقد تناقل الناس طويلا أن هذه الكنيسة الصغيرة التى يصلون فيها الآن كانت مصلىً لقصر سيد ڤرچى فى يوم من الأيام . وهذه فكرة آمنوا بها ، وإن كانت رأيا لا يقتنع به مفكر متحرر . واستولى على مدام دى رينال خاطر صاحبها طوال صلاتها فى الكنيسة وهو أن زوجها لا بد قاتل جوليان في الصيد ، ثم يدعى أنه أصابه خطأ ، ثم يطعمها من قلبه عندما يحل المساء . ظنت هذا فقالت فى نفسها : إن مصيرى يتوقف على ما يفكر فيه وهو يصغى إلىّ ، وبعد ربع الساعة المنكود قد لا أجد سبيلا إلى أن أتحدث معه . إنه ليس عاقلا تتغلب عليه الحكمة ، وفى استطاعتى أن أعرف ما سيعمله أو ما سيقوله بعقله الصغير . إنه وحده هو الذى يقرر مصيرنا ، وهو قادر على تقرير المصير ؛ لكن نهايتى تتوقف

على مهارتى ، وعلى مقدار الفن فى توجيه هذا المخلوق الغريب الذى أعماه الغضب فعاد لا يرى إلا أنصاف ما يرى . يا إلهى ! أنا فى حاجة إلى البراعة والهدوء ، فمن لى بهما ؟ .

لكنها لم تكد تدخل الحديقة وترى زوجها من بعيد حتى شملها الهدوء كأنما أتاها بفعل ساحر . كان مشعث الشعر غير مرتب الهندام ، تدل هيئته على أنه لم ينم . وقدمت إليه خطابا مفتوحا لكنه مطوى ، فنظر إليها كالمجنون ولم يفتح الخطاب . فقالت له :

— فحشاً وعاراً ، لقينى رجل قبيح يدّعى أنه يعرفك ، وأنه مدين لك بالفضل ، ثم أعطانى هذا الخطاب وأنا سائرة خلف حديقة المسجل . إنى أريد منك شيئاً واحداً وألحّ فيه ، وهو أن تبعث بهذا السيد چوليان إلى أهله فى الحال .

قالت له هذا كله بسرعة ، وربما كان من الخير ألا تواجهه بما قالت إلا بعد لحظات ، لكنها أرادت أن تتخلص من هذا العبء الثقيل بأن تفضى إليه بما قالت .

وسرى الفرح فى نفسها حين رأتْ ما أحدثته لزوجها من هدوء وأدركت أن چوليان كان على صواب فيما ذهب إليه حين أخذ العمدة ينظر إليها نظرات ثابتة ، فحدثت نفسها قائلة : يا له من عبقرىّ ! ويا له من شاب وهب ذوقاً سليما ! إنه لم يجزع من هذا البلاء العظيم ، ولو أنه لا يزال شاباً لا دراية له بالحياة ! إنه جدير بأن يصل إلى أعلى المراتب ، ولم لا ؟ ولكن وا أسفاه ! سيحمله النجاح على أن ينسانى .

وأنساها إعجابها بمعبودها إضطرابها وقلقها ، وارتاحت نفسها إلى مسلكها ، وأخذت تقول فى لذة ونشوة : أنا حقًّا جديرة بچوليان .

لزم العمدة الصمت لئلا يتورط فى شىء وأخذ يفحص الخطاب الثانى الذى جمع من كلمات مطبوعة ألصقت على ورقة تضرب إلى الزرقة كما يذكر القارىء ، ثم تحدث إلى نفسه قائلا وقد أعياه التعب : إنهم يسخرون منى على أى حال . هذه إهانات جديدة يجب أن أخصها ، وكل ذلك من أجل امرأتى ! وكاد يوجه إليها أقذع الشتائم ، لكنّ الميراث المنتظر الذى سيأتى من بيزانسون أسكته على كره . كان يريد أن يطفىء غيظه فى أى شىء ففرك ورقة الخطاب الثانى براحة يده ، وأخذ يسير فى الحديقة مسرعاً لأنه كان فى حاجة إلى أن يبتعد عنها . ومرت لحظات قليلة عاد إليها بعدها ، وهو أكثر هدوءا من قبل .

ورأته زوجه فقالت له :

يجب أن تبتّ فى الأمر وأن تطرد چوليان ! إنه ابن عامل لا أكثر ولا أقل ، وستعوضه عن فقد منصبه بالقليل من المال ، على أنه سرعان ما يجد منصباً آخر نظراً لعلمه الغزير ؛ وربما التحق بالعمل عند السيد ڤالنو أو نائب الحاكم دى موچيرون ، وكلاهما له أولاد . وعلى هذا فلن يلحقه منك ضرر كبير . . .

فصاح زوجها فى صوت مخيف :

— إنك تتحدثين كالبلهاء . وهل نبتغى عند امرأة سلامة تفكير ؟ أنت لا تأبهين أبدا بما فيه الجدّ والحزم ، فكيف تظنين أنك على شىء

من العلم ؟ إن فتورك وكسلك لا يبعثان فيك نشاطاً إلاّ حين تصيدين الفراش . أنت من المخلوقات الضعيفة ، ومن البؤس أن تكون مثيلاتك في أسرتنا ! . .

فتركته يتكلم ، وتكلم كثيراً لينفّس عن غضبه كما يقال في هذا الإقليم. وأخيراً قالت له :

— أنا أتحدث إليك يا سيدى كامرأة أسىء إليها في عرضها ، وشرف المرأة أغلى ما تملك .

وصاحبها أثناء هذا النقاش الأليم ، الذى يتوقف عليه مصيرها ومصير حبيبها ، هدوء شديد ، وكانت حريصة أشد الحرص على أن تعيش معه يظللهما سقف هذا المنزل . فجرت في حديثها وراء كل رأى يبعث في نفس زوجها الغضب الأعمى ، وأما شتائمه المقذعة فكانت لا تسمعها لأنها كانت تفكر في چوليان ، وتسائل نفسها : هل سيسر منى ؟ ثم خاطبت زوجها قائلة :

— هذا الفلاح الصغير الذى بسطنا عليه من رعايتنا ونعمتنا ، وأتحفناه بهداياانا الكثيرة . قد يكون بريئا ، ولكنه على كل حال سبب في أن وجهت إلىّ أولى الأهانات . . . إننى حين قرأت هذه الورقة المهينة عزمت يا سيدى على أحد شيئين ، فإما أن يغادر المنزل ، وإما أن أغادره أنا .

— هل تريدين أن تجرّى علىّ وعلى نفسك الفضيحة والعار ؟ أنت بذلك تتيحين لكثير من أهل ڤرييز فرصة أن يسخروا منا .

— حقاً إنهم جميعاً يحسدونك على رخائك ونعمتك، وما ذلك إلا لإدارتك الحكيمة التى جعلتك أنت و بيتك والمدينة بأسرها فى خير . وعلى هذا فسأوحى إلى چوليان أن يطلب منك إجازة شهر يقضيه فى الجبل عند صديقه تاجر الأخشاب ، ذلك الصاحب الجدير بصداقة هذا العامل الوضيع .

فأجابها السيد دى رينال فى هدوء :

— احذرى أن تفعلى هـذا ! وأنا أطلب منك قبل كل شىء ألا تتحدثى إليه فى أىّ أمر ، فإنك إن كلمته غضب وفسدت العلاقة بينى و بينه ، وأنت تعلمين أن كثيرا من الناس يتطلعون إلى هذا السيد الناشىء .

— هذا الشاب لم يوهب من سلامة الذوق شيئا أبدا ، قد يكون غزير العلم ، وأنت وحدك من يستطيع الحكم عليه فى هذا ، لكنه فى الواقع فلاح غير مصقول ، وقد غيّرت رأيى فيه منذ رفض الزواج بأليزا ، وقد كان أمامه ثروة مؤكدة فاعتذر متعللا بأنها تزور السيد ڤالنو خفية بين حين وحين

فسألها وقد علا حاجباه علوا شديدا :

— آه ! ماذا تقولين ؟ هل أخبرك چوليان بهذا ؟

— لا ، لم يقل هذا فى صراحة ، بل كان يتحدث إلىّ دائما عن رغبته فى اللحاق بالكنيسة ، ولكنى أؤكد لك أن أول مايشغل مثله من الشبان هو أن يحصلوا على القوت ، وقد لمّح لى كثيرا بأنه لا يجهل أمر هذه الزيارات السرية .

فغضب مرة أخرى وصاح يقول وهو يتدبر ما ينطق به :

— وأنا ! أنا ! أأجهل هذا الذى يرتكب فى منزلى ؟ إن هذا لأمر عجاب !... أهناك علاقة بين إليزا وڤالنو ؟

فضحكت قائلة :

— هى قصة قديمة يا صديقى العزيز ! ومن يدرى ؟ لعلهما لم يرتكبا فاحشة قط . كان ذلك يجرى أيام كان صديقك العزيز السيد ڤالنو مرتاحا حين كان أهل ڤريير يعتقدون أنّ بينى و بينه حبا طاهرا ناشئا .

فصاح العمدة وضرب رأسه فى غضب كمن ينتقل من اكتشاف إلى اكتشاف ، ثم قال لزوجه :

— لقد عنّت لى من قبل هذه الفكرة ، ولكن لم لم تخبرينى بذلك ؟

— لم أشأ أن أفسد صداقة رجلين لغرور سيطر على نفس مديرنا العزيز .

وهل هناك فى المجتمع سيدة واحدة لم يرسل إليها ڤالنو بضعة خطابات رقيقة طريفة لا تخلو من الغزل ؟

— وهلى كتب إليك ؟

— كثيرا ما كتب .

— أريد أن أراها فى الحال ، وآمرك بهذا .

وبدت قامته وكأنها قد طالت ست أقدام .

فأجابته فى لطف قد يكون فتورا وعدم مبالاة :

— لن أفعل ، بل ستراها يوما حين تصبح أكثر هدوءا .

فصاح وقد أثمله الغضب ، لكنه أحسّ بسعادة كانت فارقته منذ اثنتى عشرة ساعة :

— لا . بل أريدها فى الحال !

فأجابته فى رزانة وتؤدة :

— أتقسم لى بأنك لن تتشاجر مع المدير يوما من جراء هذه الخطابات ؟

— سواء أتشاجرت أم لم أتشاجر فإن فى استطاعتى أن انتزع منه اللقطاء ، ثم استطرد فى غضب شديد :

أريد هذه الخطابات حالا ، فأين هى ؟

— فى أحد أدراج مكتبى ، ولكن ثق أننى لن أعطيك المفتاح .

فجرى إلى غرفتها وهو يصيح قائلا :

أنا أعرف كيف أكسره .

ولم يتردد فى تحطيم المكتب الفخم الذى صنع فى باريس من خشب شجر الكابلى ، واستعان على كسره بوتد من الحديد ، مع أنه كان يعتز به من قبل و يحافظ عليه حتى كان ينظفه بذيل ثوبه إذا توهم أن هناك ما يعلق به .

صعدت مدام دى رينال مائة وعشرين درجة فى سرعة كبيرة حتى إذا ما وصلت إلى برج الحمام ، ربطت منديلا أبيض فى قضيب حديدى من قضبان النافذة الصغيرة . وكانت فى تلك اللحظة تشعر بأنها أسعد النساء . ثم نظرت إلى الغابات الكبيرة التى تجاور الجبل ، ودموع الفرح تترقرق فى عينيها ، وحدثت نفسها قائلة : لا ريب أن جوليان يترقب هذه العلامة السعيدة واقفا تحت شجرة باسقة من أشجار الزان ، ثم تسمعت وقتا طويلا فلم يصل إلى مسامعها إلا الضجة المملة ، ضجة تغريد الطيور

ولولا هذه الجلبة الملعونة لوصلت إلى مسامعها صرخة فرح انبعثت من بين هذه الصخور الكبيرة . كانت عينها المتلهفة تلتهم هذا المنحدر الشاسع الأخضر القاتم ، الذى تلاقت فيه ذوائب الأشجار واجتمعت ؛ فبدا للعين كأنه مرج . ولما أيقنت أنها لن تسمع صوتا ولن ترى شبحا ساءلت نفسها فى حنان بالغ :

لم لم يمل عليه ذكاؤه أن يعمد إلى إشارة تخبرنى بأن سعادته تضارع سعادتى ؟ ولم تغادر برج الحمام إلاّ بعد أن خشيت أن يصعد إليها زوجها باحثا عنها .

ثم عادت فوجدته مغيظا . كان يتصفح الجمل التافهة التى كتبها السيد ڤالنو والتى لم تقرأ من قبل بمثل ما تقرأ به الآن من جزع واضطراب . وانتهزت فرصة رأتها ملائمة لتسمع زوجها صوتها فقالت :

— لا زلت متمسكة برأيى ، إنه من الخير أن يقوم چوليان برحلة ، ومهما يكن علمه باللغة اللاتينية وتعمقه فيها ، فهو قبل كل شىء فلاح غليظ سىء المعاملة ، وإن كان حريصا على أن يظهر لى أدبه دائماً بما يوجه إلىّ من ثناء مبالغ فيه بعيد عن الذوق السليم ، أظنه قد حفظه من إحدى القصص ...

— إنه لا يقرأ قصصا أبداً وقد تأكدت من ذلك . أتعتقدين أننى رب بيت أعمى لا يعرف ماذا يدور فى منزله ؟

— حسنا ! هب أنه لم يحفظ هذا الثناء من بعض القصص وأنه أنشأه . فأنا كذلك لا أبالى به ، ولكنى أخشى أن يتحدث عنى بهذه اللهجة فى ڤريير .... ثم استطردت كأنها وقفت إلى كشف جديد :

ولم تذهب بعيدا ؟ هبه تحدث بهذا الأسلوب أمام إلبزا ألا يكون بذلك كأنه قد تحدث إلى السيد ڤالنو تقريبا ؟

فأهوى السيد دى رينال على المنضدة بضربة قوية عنيفة دوت بها أرجاء الشقة ، وصاح قائلا :

— آه ! هذا الخطاب المجهول المطبوع وخطابات ڤالنو كلها مكتوبة على ورق من نوع واحد .

فتحدثت إلى نفسها قائلة : وأخيرا ! ...

وتصنعت الحزن لما اهتدى إليه زوجها ، ولم يعد فى مقدورها أن تضيف جديدا إلى ماقالت ، فذهبت لتجلس على أريكة في أقصى الصالون .

وهكذا بدأت تربح المعركة ، وبقى عليها أن تمنع زوجها من أن يتحدث إلى الكاتب المزعوم الذى بعث الخطاب المجهول ، فقالت له :

— ألا تعلم أن الخلاف مع السيد ڤالنو على أمر لم تتحقق بعد منه ، لأنه تعوزه البراهين القاطعة ، عمل لا يخلو من حماقة ؟

أنت محسود ياسيدى ، فمن المسئول عن هذا الحسد ؟ أهى مواهبك ؟

إن الإدارة الرشيدة التى تصرف بها الأمور ، ومنازلك التى تدل على الذوق السليم ، والمال الذى حملته بائنة لك ، ثم الميراث الكبير الذى نأمل أن يئول إلينا من عمتى الطيبة ، والذى قد بالغ فيه أهل ڤرييز كثيرا ، كل أولئك خلقت منك أهم شخصية فى ڤرييز كلها .

فابتسم قليلا ثم قال :

— عليك ألا تنسى محتدى الكريم .

فأجابته مسرعة :

-- أنت من أكرم رجال المقاطعة كلها ! ولو أن الأمر بيد الملك وحده وأراد أن ينصف رعاياه من ذوى الحسب الفاضل ، لكنت عضوا فى المجلس الأعلى ما فى ذلك من ريب . . . فهل تريد وأنت جدير بهذا المنصب الرفيع أن تمكن أعداءك الحاسدين من سلاح يحاربونك به ؟ لوتحدثت إلى السيدڤالنو عن هذا الخطاب المجهول لأذيع الحديث فى ڤرييرِ .

استغفر الله ، بل فى بيزانسون وفى الإقليم كله ، ولقيل : إن هذا البرجوازى الوضيع الذى عاشر دى رينال — وما كان ينبغى لنا أن نصطفيه — قد وجد سبيلا إلى الإساءة إليه . على أنك إن وجدت فى الخطابات التى بين يديك ما يدلّ على أنى أجبت ڤالنو إلى ما يبتغى أو جاريته فى هواه ، وجب عليك أن تقتلنى شر قتلة ، فأنا فى هذه الحالة أستحق هذا المصير ، ولكنى أرجوك ألا تظهر له غضبك من هذه الخطابات ، وفكر دائما فى أن جيرانك جميعا ينتظرون فى لهفة مايساعدهم على أن يثأروا منك لتفوقك عليهم ؛ ولا تنس أنك ساهمت سنة ١٨١٦ فى القبض على بعض أشخاص . إن هذا الرجل الذى كان قد اختبأ فوق سطح منزله ...

فصاح السيد دى رينال صيحة تدلّ على أسف شديد ، أثارته هذه الذكرى ، وقال .

— يخيّل إلىّ أن نفسك لا تكنّ لى صداقة ولا تبجيلا ، ومع ذلك لم أعيّن عضوا فى المجلس الأعلى ! ...

فابتسمت قائلة :

— ويخيل إلىّ ياصديقى أننى سأكون أكثر منك مالا ، وأناقر ينتك منذ اثنى عشر عاما ، وعلى هذا فمن حقى أن أدلى إليك برأيى وعلى الأخص فى موضوع اليوم . ثم استطردت تقول فى غيظ لم تحسن أن تظهره : إذا كنت تفضل على السيد چوليان هذا ، فأنا مستعدة أن أقضى عند عمتى فصل الشتاء .

وكانت جملتها الأخيرة موفقة جدا أصابت بها الهدف . كانت لهجتها كلها حزم يشوبه الأدب ، فجمات السيد دى رينال على أن يبتّ فى الأمر على ماتهوى ؛ وإن تحدث إليها وقتا طويلا كعادة أهل الريف ، وتناول من جديد كل الحجج والبراهين بالبحث وتركت هى زوجها يتحدث ويتحدث وكلامه لايزال مشوبا بالغضب ؛ فظل ساعتين يثرثر بما لا طائل تحته حتى نفذت قوى هذا الرجل الذى ظلّ ليلة كاملة وهو فريسة لغضب شديد . وأخيراً رسم لنفسه الخطة إزاء السيد ڤالنو وچوليان وإليزا كذلك .

كادت مدام دى رينال تحسّ فى نفسها ميلا نحو هذا الرجل الذى ظلّ صديقها اثنتى عشرة سنة ، حين كان تحت سلطان الألم أثناء هذا النقاش الحاد . كادت عواطفها تميل إليه مرة أو مرتين ، ولكن الحب الحقيقى لا تفارقه الأنانية ، فقد توقعت فى كل لحظة تمرّ أن يفضى إليها زوجها بخبر الخطاب المجهول الذى تسلمه بالأمس ، لكنه أمسك عن الكلام ، ولم تتمكن هى على الرغم من ثباتها أن تعرف ما أثاره الخطاب فى نفسه ، وهو الذى يملك البتّ فى مصيرها ؛ لأن الأزواج فى الأرياف لهم الكلمة العليا دائما على زوجاتهم ، والزوج الذى يشكو من امرأته لا يعفى من العبث

والاستهزاء ، على أن هذا يعدّ في فرنسا دائما أمرا غير ذي بال . ولكن امرأته إذا لم يعطها مالا أصبح مثلها مثل العاملة التي تتناول خمسة وسبعين سنتيما يوميا ، ومع ذلك فالنفوس الكريمة تتحرج من أن تسند إليها عملا .

إن الجارية في قصر من قصور السلاطين تستطيع أن تحبّ مولاها حبا قويا ، وهو قوى جبار لا تتمكن من أن تنزع منه سلطانه مهما يكن دهاؤها ومكرها ، وانتقام السيد شديد تسيل فيه الدماء ، لكنه انتقام عسكرى كريم : وطعنة من خنجر تقضى على كل شيء . والرجل الذى يقتل زوجه في القرن التاسع عشر يحتقره الناس وتقفل في وجهه الصالونات .

استولى على مدام دى رينال شعورها بالخطر ، ولما عادت إلى غرفتها آلمها ما رأت فيها من الفوضى . فقد كسرت أقفال الخزائن الجميلة الصغيرة ، وانتزع خشب بعض أرض الغرفة ، فحدثت نفسها قائلة : لقد كان قاسيا علىّ كل القسوة ! وهكذا أفسد الأخشاب الجميلة الملونة التي يحبها إلى حد أنه كان يغضب إذا دخل أحد أبنائه الغرفة ووطىء أرضها بحذائه المبلل ، ها هو ذا قد أتلفها ولم يعد هناك أمل في إصلاحها ! وحينما وقع بصرها على آثار القسوة والعنف زال من نفسها بعض لوم كان خامرها لانتصارها السريع .

ثم عاد چوليان مع الأطفال قبل أن يدق جرس الغداء بقليل ، وأخذوا يطعمون الحلوى بعد أن خرج الخدم من غرفة الطعام . فقالت له مدام دى رينال في جفوة وغلظة :

— كنت أظهرت لى رغبتك في أن تقضى في ڤرييرخمسة عشر يوما ، لذلك قد تفضل السيد دى رينال ومنحك عطلة ... تستطيع إذن أن ترحل

فى أى وقت تشاء ، ولكيلا يضيع وقت الأطفال عبثا ، فسنرسل إليك يوميا ما يترجمونه إلى اللاتينية لتصححه .

وقال السيد دى رينال كذلك فى لهجة جافة :

— هذا صحيح ، ولن أسمح لك فيما بعد إلا بأسبوع واحد .

وقرأ چوليان فى وجهه قلقا شديدا دلّ على ما لاقاه من عذاب ، فقال لصاحبته فى لحظة عزلة أتيحت لهما وهما فى الطريق إلى الصالون :

— إنه لا يزال فى حيرة من أمره .

فقصت عليه مسرعة ما فعلت معه منذ الصباح . ثم ضحكت قائلة :

— سأقصّ عليك الليلة كل التفاصيل .

فقال فى نفسه : يا لفساد النساء ! أى غريزة وأى لذة تدفعانهن إلى خيانة الرجال !

ثم قال لها فى شىء من الفتور :

— أرى أن الحب قد هداك وها هو ذا يضلك من جديد ؛ لقد كنت اليوم رائعة المسلك ، ولكن ألا ترين معى أن من الخير ألا نلتقى فى هذا المساء ؟ لأن المنزل غاصّ بالأعداء ؛ ولا تنسى تلك الكراهية الشديدة التى تضمرها لى إليزا .

— بغضاؤها شديدة كزهدك فى لقائى تماما .

— إن صحّ هذا وكنت زاهدا فى لقائك ، فواجبى أن أنقذك من خطر عرضتك له . لو تحدث السيد دى رينال إلى إليزا فقصت عليه أمرنا ، أفلست تعتقدين أنه أهل لأن يختفى على مقربة من غرفتى مدجّجا بالسلاح؟...

فأجابته بكل ما فطر عليه الأشراف من كبرياء :

— ما هذا ! أليس فى قلبك شىء من الشجاعة ؟

فقال فى فتور :

— لا أريد أن أحط من قدرى حين أتحدث عن شجاعتى ، فحديث المرء عن شجاعته يزرى بنفسه . ليحكم الناس بالأفعال . ثم أمسك يدها وقال :

— ولكن ألا ترين مقدار تعلقى بك ؟ ألا تقدرين ما يملكنى من نشوة وسرور حين أتمكن من لقائك قبل هذا الفراق الأليم ؟

الفصل الثانى والعشرون

ضروب من التصرفات فى عام ١٨٣٠

[ما وهب الناس الكلام إلا ليخفوا رأيهم .]
ر . ب . مالاجريدا

ما وصل چوليان إلى ڤريير حتى أخذ يلوم نفسه التى قست على مدام دى رينال : لو أنها أخفقت فى مسعاها وانتصر زوجها لاحتقرتها وعدتها امرأة خاملة ضعيفة الحيلة ، لكنها خرجت من الأزمة منتصرة كما ينتصر السياسى ، وإن كنت أعطف على هذا الرجل المغلوب مع أنه عدوّى . فى عملى هذا وضاعة برجوازية . لقد جرح كبريائى أن السيد دى رينال رجل أى رجل ! ينتمى إلى الطائفة الكبيرة المجيدة التى أتشرف بالاتصال بها ، إننى لأحمق .

رفض الأب شيلان المساكن التى عرضها عليه كبار الأحرار فى الإقليم حينما جرّ عليه فصله من منصبه طرده من دار الخورى . واستأجر غرفتين ازدحمتا بكتبه . فأراد چوليان أن يقف أهل ڤريير جميعا على قيمة القسيس ، فذهب إلى أبيه ومعه اثنا عشر لوحا من خشب الصنوبر ، حملها بنفسه على ظهره سائرا بها فى الشارع الرئيسى ، واستعار من أحد أصدقائه القدماء أدوات صنع بها مكتبة وضعت فيها كتب الأب شيلان .

فرح الشيخ فرحا شديدا حتى بكى وقال له :

— كنت أعتقد أن الحياة أفسدتك باللهو والغرور ، ولكن عملك

هذا أنسانى عبثك الصبيانى يوم لبست الحلة الفاخرة مع حرس الشرف ، وقد خلق لك عملك هذا أعداء كثيرين .

كان السيد دى رينال قد أمر چوليان قبل رحيله أن يقيم فى منزله أثناء وجوده فى ڤرييز . ولهذا لم يفطن أحد إلى ما حدث ، وفى اليوم الثالث لوصوله صعد إلى غرفته رجل خطير الشأن ليلقاه وهو السيد دى موچيرون نائب الحاكم . وتحدث معه ساعتين كاملتين بحديث تافه تناول الشكوى المرة من شرور الرجال وعدم أمانة الذين يؤتمنون على الأموال العامة ، والأخطار المحدقة بفرنسا البائسة ، وما إلى ذلك ... و بعد هذا الحديث الممل الطويل ، بدأ چوليان يدرك سرّ الزيارة . وكان وزائره قد وصلا إلى درج السلم حيث أخذ المعلم المسكين الذى يكاد يكون مغضوباً عليه يودّع الحاكم المنتظر لأحدى المقاطعات السعيدة فى تجلة و إكبار ، فبدا للحاكم أن يتفضل بالاهتمام بأمر چوليان ، وأخذ يثنى على زهده فى المال ... وأخيرا احتضنه السيد دى موچيرون فى حنان الآباء واقترح عليه أن يغادر السيد دى رينال ليشرف على تربية أبناء أحد الموظفين ، وهو موظف كالملك فيليب تماما فى أنه سيشكر الله كثيراً لا لأنه منّ عليه بالأبناء فحسب ، بل لأنهم ولدوا قريبا من مقام السيد چوليان . والمعلم الذى سيعهد إليه بتربية هؤلاء الأولاد وتثقيفهم يمنح ثمانمائة فرنك مقدّما لكل ثلاثة أشهر ، لأن الدفع الشهرى لا يتفق مع الكرامة والشرف .

وأخيرا جاء دور چوليان فى الكلام ، بعد أن ظلّ ساعة ونصف ساعة يترقبه فى سأم وملال ، وكانت إجابته بارعة طويلة كأنها منشور ؛ لمح

فيها لمحدثه بكل شيء لكنه لم يصرح بشيء ؛ وحفل حديثه بالاحترام الكامل للسيد دى رينال وبإجلاله لأهل ڤريير وباعترافه بجميل نائب الحاكم الجليل الخطير .

فذهل السيد دى موچيرون حين رأى چوليان أكثر منه دهاء ، وحاول عبثاً أن يسمع منه رأياً قاطعاً صريحاً . وإن انتهز چوليان فرصة رغبة محدثه فأعاد من جديد ما قاله أولا مغيّرا أساليب حديثه الأول . ولو أن وزيراً ذكىّ الفؤاد واسع الحيلة أراد أن يقضى على مناقشة تمسك مجلس النواب أن يثيرها ، ما قال أكثر مما قاله چوليان . ثم غادر السيد دى موچيرون المنزل ، فأغرق چوليان فى ضحك شديد . انتهز فرصة توقد قريحته فكتب خطابا فى تسع صفحات إلى السيد دى رينال يخبره بكل ما حدث ويرجوه أن يتفضل بإدلاء النصح إليه . ثم أخذ يقول : لم يخبرنى هذا الخبيث باسم من يعرض علىّ هذا العرض السخىّ ! ربما كان السيد ڤالنو بعد أن رأى أن خطابه إلى العمدة قد أثمر ثمرته فنفيت هنا فى ڤرييز .

وشمله سرور وفرح بعد أن أرسل إلى العمدة خطابه هذا كأنه صيّاد قد بكّر إلى سهل كثير الصيد فى يوم جميل من أيام الخريف ؛ ثم غادر المنزل ليستطلع رأى الأب شيلان . وكأنما أرادت السماء له ألاّ يسرف فى فرحه . فذكرته بالسيد ڤالنو قبل أن يصل إلى منزل الخورى الطيب ، ثم لم يَخْفَ على الأب أن قلبه نهب الوساوس والهموم ، لأن شاباً مسكيناً مثله ، صرفته الحياة الدنيا أو كادت ، عن أن يستجيب إلى دعوة الله التى ملكت عليه نفسه ولبّه ، يجب أن يتعلم لكى يكون هادى الناس

يرشدهم إلى الصراط المستقيم ، ينبغى أن يأخذ قسطا وفيرا من العلم حتى لا يكون أقل من زملائه العلماء الأفذاذ ؛ إذن فليلتحق بالمدرسة الاكليريكية ببيزانسون ليقضى عامين قد يرهقانه فى النفقات ؛ لذا يجب أن يقتصد بعض المال ، وقد يتيسر له ذلك لو أن مرتبه ثمانمائة فرنك يدفع كل ثلاثة شهور أكثر مما يتيسر لو كان ستمائة فرنك يدفع مشاهرة ولا يبقى منه شىء آخر الشهر . على أن المقادير قد ساقته إلى أبناء السيد دى رينال وغرس الله فى قلبه حباً لتلاميذه ، أليس ذلك دليلا على دفعه إلى البقاء معهم وعدم الإقبال على غيرهم من أبناء الأسر الأخرى ؟ . . .

كان چوليان يجيد فن الكلام ، واتصف بالبلاغة التى حلت محل سرعة العمل فى زمن الامبراطورية ، لكنه كاد يمل فصاحته ويكره وقع كلامه فى أذنيه .

وعاد إلى المنزل فوجد أحد أتباع السيد ڤالنو بملابسه الجميلة يحمل إليه رقعة يدعوه فيها سيده للغداء فى نفس اليوم ، وأخبره الخادم أنه بحث عنه فى كل مكان بالمدينة ليبلغه دعوة مولاه . لم يكن چوليان قد دخل منزل ڤالنو من قبل ، وكان يفكر قبل ذلك بأيام فى طريقة تتيح له أن يضربه بالعصا عدة ضربات ، بحيث لا يقع فى يد الشرطة . وقد أخبره الخادم أنّ الغداء فى الساعة الواحدة ، لكنّ چوليان رأى أن من الاحترام أن يذهب إلى مكتب السيد مدير المخازن قبل الميعاد بنصف ساعة . ودخل عليه فرآه معتزا بمكانته بين ملفّات من الورق المقوى ، فلم يأبه چوليان بشعر عارضيه الأسود ، ولا بشعر رأسه الغزير ، ولا بقبعته اليونانية التى لبسها

منحرفة فى أعلى رأسه ، ولا بغليونه الضخم ولا بيابوجه المزركش ، ولا بتلك السلسله الذهبية الغليظة التى تزين صدره من أعلاه إلى أسفله ومن يمينه إلى شماله ، ولا بكل تلك الأدوات التى يقتنيهـا صيارفة الريف ، ولم يصرفه ذلك كله عن رغبته الملحة فى أن يهوى عليه بعصا غليظة كما فـكر من قبل .

ثم طلب چوليان إلى السيد ڤالنو أن يكرمه بتقديمه إلى مدام ڤالنو ، فأخبر بأنها لا تستطيع الآن مقابلة أحد لأنها مشغولة بزينتها . إلا أنه شهد السيد المدير وهو يرتدى ثيابه ، ثم ذهبا معا إلى مدام ڤالنو ، التى قدمت إليه أولادها والدموع تترقرق فى عينيها . وكانت هذه السيدة التى تعدّ من فضليات نساء ڤريير ، ذات وجه ضخم كوجوه الرجال ، صبغ بالأحمر استعدادا لهذا الحفل الـكبير . وقد أظهرت أثناء الحفل ما جبلت عليه من شقشقة ، تبالغ فيها الأمهات وتتقنها .

ورآها چوليان فتذكر مدام دى رينال ، ولـكن حال جرصه وحذره بينه و بين ذكرياتها اللذيذة التى أثارتها فى نفسه رؤية الضد ، ثم أخذ يفـكر فيها فى لذة وهيام . وزاد الفرق بين الأسرتين عظما حين رأى منزل مدير المخازن بدعوة من صاحبه . كلّ شىء وقع عليه بصره جديد ، وأخبر بثمن كل قطعة من الأثاث . لـكن موقع ذلك فى نفسه كان غير مريح فـكأنه اشتم فيه رائحة المال المسروق وأوحى إليه كل ما فى المنزل أن يحتقر جميع من يرى حتى الخدم .

ثم حضر إلى المنزل محصل الضرائب ، والموظف المختص بفرض

ضرائب غير مباشرة ، وضابط الشرطة ، وموظفان أو ثلاثة من الموظفين العموميين ومعهم نساؤهم. ثم جاء بعض الأحرار الأغنياء ، وانتقلوا جميعاً لتناول الطعام . وكان چوليان ضيق النفس بما يرى ، يحس أن فى الناحية الأخرى من غرفة الطعام سجناء بائسين ربما اقتطع من قوتهم ما اشترى به هذا الأثاث الغالى الذى يدل على مزاج سقيم وذوق معتل ، وإن عرضوه على چوليان ليبهروه . ثم قال فى نفسه : ربما كانوا الآن جائعين . فانقبض حلقه ، وأصبح من العسير عليه أن يأكل ، بل من العسير عليه أن يتحدث . وازدادت حاله سوءا بعد ذلك بربع ساعة ، لأنهم سمعوا من بعيد كلمات أغنية عامية فاحشة يترنم بها أحد السجناء ، فنظر السيد ڤالنو إلى رجل من رجاله يلبس ملابسه الرسمية ، فسرعان ما اختفى وسرعان ما سكت السجين . كان أحد الخدم فى هذه اللحظة يصب لچوليان نبيذ الرين فى كوب أخضر ، وحرصت ربة الدار على أن تخبر چوليان بأن ثمن زجاجة هذا النبيذ تسعة فرنكات فى مكان تعبئتها . فأمسك چوليان بكأسه قائلا للسيد ڤالنو :

— لم نعد نسمع الآن تلك الأغنية الفاحشة التى ترددت منذ لحظة .

فأجابه المدير فى نشوة المنتصر :

— يا إلهى ! هذا ما يجب أن يكون ، لقد أمرت بإسكات هؤلاء الصعاليك . ووقعت هذه الكلمات على نفس چوليان موقعاً شديدا ، لأنه وإن قبس من هؤلاء السادة عاداتهم فإنه لم يوهب قلوبهم أبدا فسالت دمعة كبيرة على خده حزناً وأسفاً ، وإن كان من الذين يجيدون النفاق .

وحاول أن يخفيها بكوبه الأخضر ، لكنه لم يتمكن بعدُ من أن يذوق النبيذ . قال لنفسه : لقد منعه أن يغنى ! يا إلهى ! وكيف أحتمله ؟ ولم يلحظ — لحسن حظه — أحد من الحاضرين حزنه الذى قد يؤاخذ عليه . وبدأ محصل الضرائب يغنى أغنية ملكيَّة ردّد المدعوون بعض مقاطعها فى جلبة ، على حين كان چوليان يستمع إلى صوت ضميره : هذا هو الغنى الملوّث الذى تطمح إليه ، ولن تصل إليه إلاّ بمثل هذه الوسائل ، وبين أمثال هؤلاء الأصدقاء ! قد تصلُ إلى منصب يدر عليك عشرين ألفا من الفرنكات ، ولكن عليك أن تمنع هذا السجين البائس من الغناء وأنت تزدرد اللحوم ! وا أسفاه عليك يا نابليون ! لقد كان الناس ينالون الثراء فى عصرك بعد أن يواجهوا أخطار المعارك ، أما الآن فإننا نزيد بؤس البائسين فى جبن ورعونة ! .

ولكن دعنى أعترف بأن الشفقة التى أبداها چوليان فى حديثه هذا ، قد صورته لى صورة غير كريمة ، لأنه لا يعدو أن يكون زميل هؤلاء المتآمرين من ذوى القفازات الصفراء ، الذين يزعمون أنهم يريدون قلب أوضاع الحياة ، وهم مع ذلك يخفون أيديهم خشية أن تصيبها خدوش لا تضير .

طُلب من چوليان بغتة أن يقوم بدوره ؛ لأنه لم يدع إلى الطعام مع هذه الطبقة الراقية ليلزم الصمت أو يسترسل فى الأحلام .

وكان بين الحاضرين أحد صناع المنسوجات المرسومة ، اعتزل عمله وأصبح عضوا مراسلا لمجمع بيزانسون ومجمع أيزس ، فسأل هذا چوليان

من طرف المائدة عما إذا كان نجاحه الباهر وتقدمه السريع فى دراسة العهد الجديد حقيقة من الحقائق ؟ .

فساد الجمع صمت سريع ، وكان فى يد عضو المجمعين نسخة لا تينية من العهد الجديد. قرئت منها على جوليان كلمات من جملة لا تينية كما طلب هو ، فأخذ يتلو عن ظهر قلب ، ولم تخنه ذاكرته . فدهش الحاضرون وأعجبوا بالمعجزة فى ضجة وجلبة أحدثهما الذين فرغوا من تناول الطعام .

ونظر جوليان إلى وجوه السيدات التى زينت بالأحمر فرأى بينهـا وجوها جميلة ، وأجمل مافيها وجه زوج محصل الضرائب ذلك الفتى البارع . فنظر إليها وقال :

يخجلنى حقاً ، أننى تحدثت باللاتينية وقتاً طويلا بين يدى هؤلاء السيدات الفضليات . فإذا تفضل السيد روبينيو — عضو المجمعين — وقرأ بأية جملة لاتينية فإنى أحاول أن أترجمها فى الحال إلى الفرنسية بدل أن أقرأ النص باللاتينية .

ونجح ببراعة فى هذا الامتحان الثانى وكلل بالمجد والفخار . وكان بين الحاضرين جماعة من أغنياء الأحرار ، آباء سعداء بأطفالهم المجدّين ، الذين قد يحصلون على إعانات مالية من الدولة لأنهم مجتهدون ، وقد أصبح هؤلاء الآباء من نصراء الحكومة منذ زمن البعثة الأخيرة . لـكنه على الرغم من هذه السياسة الحاذقة ، رفض السيد دى رينال أن يستقبلهم فى منزله ، فلم ير هؤلاء الأمجاد جوليان إلاّ يوم زيارة ملك . . . وهو على صهوة الجواد . ولم يشهدوا نبوغه عن قرب وإن كان ذائع الصيت بين أهل فرييرجميعاً ،

لذلك كانوا أكثر الحاضرين إعجاباً بجوليان ، وأكثرهم صخباً وجلبة . ثم قال جوليان فى نفسه : متى يمل هؤلاء الحمقى سماع أسلوب الأنجيل، الذى لا يفهمون منه شيئاً ؟ إنهم لم يملوا ولم يسأموا ، و إن كان هذا الأسلوب غريباً فإنهم يعبثون و يضحكون ، ولكن جوليان دب إلى نفسه الملل .

نهض فى تؤدة حين دقت الساعة السادسة ثم تحدث إليهم عن فصل فى علم اللاهوت الجديد لليجوريو ،وكان جوليان قد كلف حفظه ليتلوه فى اليوم التالى على الأب شيلان . ثم قال لهم فى ظرف ودعابة :

— إن مهنتى تقتضينى أن أسمع الدروس التى تتلى على ، وأن أتلو أنا أيضاً دروساً أخرى .

فضحكوا معجبين ؛ لأن هذا اللذع من النكتة كان سائدا وقتذاك فى ڤرير . كان جوليان واقفاً فوقف جميع الحاضرين واغفلوا الفارق الاجتماعى بينه و بينهم ، وقفوا احتراما لنبوغه . وهم بالانصراف فاستوقفته مدام ڤالنو ربع ساعة ليسمع أبناءها وهم يتلون دروسهم فى الدين ؛ فأخطئوا خطأ شنيعاً لم يتبينه إلا هو وحده ، ولم يشأ أن يصحح لهم الأخطاء ، ولكنه قال فى نفسه : واأسفاه على الجهل بمبادىء الدين الأولية ! ثم حيا الحاضرين ظاناً أنه يستطيع الهرب ، ولكنه كان عليه أن يتحمل سماع قصة من قصص لافونتن ، فقال لمدام ڤالنو :

— إن لا ڤونتن مؤلف فاسق ، فى بعض قصصه عن السيد چان شوار ، سخرية بما هو مقدس ، وقد لامه على ذلك خير الشراح وأفضل المفسرين .

وقبل أن ينصرف دعى إلى خمس مآدب أو ست . وصاح المدعوون جميعاً فى فرح وسرور : هذا الشاب فخر لإقليمنا . ثم أخذوا يتحدثون عن مدّه ببعض المال من خزانة البلدية ، حتى يتمكن من إتمام دراسته فى باريس .

كان هذا الرأى يتردّد فى أرجاء غرفة الطعام ، حين خرج جوليان فى خفة ونشاط من الباب الذى تخرج منه العربات ، وهو يقول فى صوت منخفض. آه ! يا لكم من لصوص ! ويا لكم من أوغاد ! وردد هذه العبارة ثلاث مرات أو أربعاً ، وهو يجد لذة فى استنشاق الهواء النقى .

شعر فى هذه اللحظة بأنه أرستقراطى ، وقد كان من قبل يتألم من الابتسامات التى تحمل الازدراء ، ومن الكبر المتعالى الذى تنم عنه عبارات المجاملة فى منزل السيد دى رنيال . ولم يجد بدّا من الموازنة بين الأسرتين فوجد البون شاسعاً ، وتحدّث إلى نفسه وهو فى طريقه إلى المنزل قائلا : لنتناس أن أموال ڤالنو حرام ، اختلسها من السجناء البائسين الذين يحرم عليهم أن يغنوا ! فالسيد دى رينال لا يقدم أبداً على أن يخبر ضيفانه بثمن زجاجة نبيذ يقدّم إليهم . والسيد ڤالنو حين يحصى ممتلكاته ، وكثيرا ما يرد ذكرها فى حديثه ، لا يستطيع أن يتحدث عن منزله وممتلكاته فى حضور زوجته إلا أن يقول : منزلك وممتلكاتك .

وهذه السيدة التى تميل فى الظاهر إلى حبّ التملك لامت خادمها لوماً عنيفاً ؛ لأنه كسر كوباً ذا قاعدة فنقص عدد أكوابها إلى أحد عشر ،

ولم يسكت الخادم عمّا فعلت بل أجاب على حدتها بقحة شديدة ثم استطرد چوليان :

إنها لمجموعة غريبة ! لو أعطونى نصف مايسرقون ما قبلت أن أعيش معهم ، لأننى سأ كشف لهم يوماً ما حقيقة شعورى ، وأظهر لهم احتقارى الشديد .

كان عليه أن ينزل على إرادة مدام دى رينال و يشهد بعض مآدب مثل مأدبة السيد ڤالنو ؛ فأصبح مشهورا بين مواطنيه . وغفر له الناس زلّة ثوب حرس الشرف ، و إن كانت تلك الحماقة سبب ما لقيه من نجاح بعد ذلك ، ثم شغل أهل ڤرييرجميعاً بمعرفة من سيكون المنتصر : من ذا الذى سيستميل الشاب العالم إليه : العمدة أم مدير المخازن ؟ وكان هذان السيدان والسيد مالون يؤلفون ثالوثا، حتى أرهقوا البلدةمنذ سنوات عديدة . والناس يحسدون العمدة ، والأحرار يشكون منه دائماً ، ولكنه على الرغم من ذلك، كان كريم المحتد خُلق ليتبوأ أعلى المناصب ، أما أبو السيد ڤالنو ، فإنه لم يترك إلاّ دخلا يبلغ ستمائة فرنك . وقد كان الناس جميعاً يشفقون عليه فى صغره وهو يرتدى الحلة الخضراء المهلهلة ، أما الآن فقد أصبحوا يحسدونه على الجياد النورماندية وسلاسله الذهبية ، وملابسه الباريسية وثرائه العظيم .

وخيّل إلى چوليان أنه قد كشف فى هذا العالم الجديد الذى لاعهد له به ، رجلا أميناً يدعى جرو (١) ، هو مهندس يقال عنه إنه يعقو بى مشاغب ،

(١) جرو مدرس الهندسة ، الذى كان يعلم الشاب «هنرى بيل» فى «جرينوبل» وكان الشاب معجبا إعجابا كبيرا بوطنية أستاذه ، وقد أشار إليه مرات عديدة خلال مؤلفاته كما تحدث عنه حديثا طويلا فى قصته «لوسيان ليفان» تحت اسم «جوتييه» المعرب .

وكان جوليان معاهدا نفسه على ألاّ يقول إلا ما يراه كاذبا لا يصدقه هو نفسه ، لكنه خالف العهد حين تحدّث إلى السيد جرو . تسلّم جوليان من ڤرجى أوراقا كثيرة ترجمها تلاميذه من اللاتينية إلى الفرنسية ، وأشير عليه أن يزور والده كثيراً ، فخضع على كره منه ، وعلى الجملة فإنه أخذ يعمل على أن يشتهر أمره بين مواطنيه وأفلح . وفى صباح يوم وهو لا يزال فى فراشه ذهل حين شعر بيدين توقظانه وهما تغميان عينيه .

قدمت مدام دى رينال بصحبة أولادها إلى المدينة . وصعدت سلم المنزل مسرعة حتى تصل إلى غرفة جوليان قبل أولادها بلحظة ، وتركتهم يعبثون بأرنب شغلوا به طول الرحلة وأرادوا أن يطلعوا معلّمهم عليه . وقد كانت اللحظة التى سبقت فيها أبناءها إلى جوليان قصيرة ولذيذة . ثم غادرت الغرفة حين دخل الأولاد ، فاستقبلهم أحسن استقبال ، وفرح بهم وبأرنبهم ، وخيّل إليه أن أسرته قد عادت إليه ؛ كان يشعر بأنه يحب الأطفال ، ويلذّ له أن يثرثر معهم . وأذهلته رقة أصواتهم ، وبساطتهم ونبل حركاتهم ، وقد كان فى حاجة إلى أن يمحو ما علق بخياله من أعمال مرذولة ، وأفكار سقيمة رآها وسمعها وهو مقيم فى ڤرييز . كان الصراع شديداً بين الفقر والغنى ، وكان الخوف من الفاقة كبيراً بليغاً ، وقد سمع ممن استضافوه أحاديث حطت من قيمتهم و بعثت الاشمئزاز فى نفس سامعها .

فقال لمدام دى رينال عند ما قصّ عليها خبر المآدب التى حضرها :

— أنتم يا معشر الأشراف محقون فيما تظهرون من كبرياء .

— أراك أصبحت الآن هوية أهل ڤرييز ! .

ثم أغرقت فى الضحك ، مستحضرة فى ذهنها صورة وجه مدام ڤالنو، الذى كان يصبغ بالأحمر حتما كل مرة ترى صاحبته چولیان فيها ، ثم قالت :

— يخيل إلىّ أن لها مشروعات تريد بها أن تستولى على قلبك .

وتناولوا طعاما لذيذا وزاد وجود الأطفال فى سعادتها ، وإن كان فى الحقيقة مصدر تضييق عليهما ، وكان هؤلاء الأطفال البرآء عاجزين عن أن يظهروا فرحهم برؤية چوليان . ولم يتردد الخدم فى أن يخبروهم بأن السيد ڤالنو عرض على چوليان مائتى فرنك زيادة على مرتبه ليعلم أبناءه .

وسأل ستنسيلاس كزاڤييه وهم يأكلون ، ولا يزال شاحب اللون من أثر المرض ، سأل أمه بغتة عن ثمن الأدوات الفضية التى يأكل بها ، وعن ثمن القدح الذى يشرب فيه ، فقالت له :

— ولماذا تسأل يا بنى ؟

— أريد أن أبيعها وأمنح السيد چوليان ثمنها حتى لا يكون مغبونا ، إن بقى معنا .

فقبله چوليان والدموع تترقرق فى عينيه . أما أمه فقد بكت كثيرا ، ثم أجلسه چوليان على ركبتيه وجعل يعلمه أن استعمال كلمة مغبون «dupe» التى وردت فى حديثه لا تليق إلا بالخدم فى المعنى الذى قصد إليه .

ورأى السرور الذى شمل صديقته ، فأخذ يبين للأطفال بأمثلة شائقة معجبة ، كيف يكون المرء مخدوعا .

فقال ستنسيلاس :

— أنا أفهم ماتقول ، فقد ارتكب الغراب حماقة حين خدعه الثعلب،

فترك قطعة الجبن تسقط منه ، فأخذها هذا الثعلب المتملق .

فاستطيرت مدام دى رينال فرحا وقبلته قبلات كثيرة ، ولم يكن فى استطاعتها أن تقبله هو دون أن تستند قليلا على جوليان .

وفتح الباب فجأة ودخل السيد دى رينال . كان صارم الوجه عبوسا ، فاختفى المرح والسرور حين وقعت عليه الأبصار . وامتقع وجه مدام دى رينال ، ولم تجد فى نفسها القوة على إنكار شىء . وأخذ جوليان يتحدث إلى العمدة فى صوت مرتفع ويقصّ عليه ما قاله ستنسيلاس من بيع أدواته الفضية وقدحه . وكان على ثقة مقدما من أن القصة لن ترضى هذا الوالد الشحيح ، فقد قطب حاجبيه على عادته حين سمع ذكر الفضة ، وكان ذكر هذا المعدن أمامه مقدمة ، كما يقول ، إلى طلب نقود معه .

أمّا الآن فلم يعن كثيرا بالمال ، بل زادت شكوكه حين رأى زوجه متكئة على جوليان : ولم يكن مظهر السعادة الذى يغمر أسرته فى غيابه مما يساعد على تهدئة رجل مغرور . كانت زوجه تطرى تلك الطريقة التى لا تخلو من ظرف وذكاء والتى عمد إليها جوليان فى تعليم تلاميذه . فقال لها :

— حقا ! حقا ! أنا على علم بطريقته ، إنه يحاول أن يضع سدا بينى و بين أولادى ، وفى استطاعته أن يكون أكثر ظرفا منى مائة مرة ، ونسى أنى رب البيت . إنه يبذر لى الجفاء فى نفوس أبنائى ، وأى غرابة فى ذلك مادام كل شىء فى هذا القرن يرمى إلى تشويه كل سلطة شرعية؟ فيالبؤسك يافرنسا !

لم تعر مدام دى رينال اتقاء وزوجها لها أى التفات ، ولم تهتم بمعرفة الأفكار الدقيقة التى تدور الآن بخلده ، لقد جاءت لتقضى اثنتى عشرة ساعة

مع چوليان . وكانت تريد شراء أشياء كثيرة من حوانيت المدينة ، وتتناول قطعاً الغداء فى الحانة ؛ وأصرّت على رأيها مهما يقل زوجها أو يفعل ، وسرّ الأطفال من كلمة حانة التى كانت تنطق فى ذلك العصر نطقا كله لذة على الرغم من التظاهر بالوقار .

ترك السيد دى رينال زوجه فى أول حانوت دخلوه وذهب ليزور بعض الأصدقاء . وزاد حزنه عن وقت الصباح لأنه كان واثقا أن المدينة كلها مشغولة به و بجوليان . والحقيقة أن أىّ امرىء فى ڤرييرلم يظهر له شيئا يكشف عن الناحية التى تجرح كبرياءه وشرفه ؛ وكل ماقيل هو : هل يبقى چوليان عند العمدة بأجر يبلغ ستمائة فرنك أو ينتقل إلى مدير المخازن بثمانمائة فرنك ؟

كان المدير يلقى العمدة بفتور حين يقابله فى المجتمعات ؛ وكان مسلكه هذا لايخلو من مهارة ، وقلّما تلقى نزقا فى الريف : فالتأثرات هناك نادرة ، والريفيون لا يؤمنون بها .

والسيد ڤالنو مثل صادق للاسم المستعمل على بعد مائة فرسخ من پاريس : فهومتغطرس ذوسليقة وقحة سفيهة و إن كان نجاحه فى الحياة منذعام ١٨١٥ قد قوى مواهبه الجميلة . وكان يحكم فى ڤرييرإذا صحّ هذا التعبير تحت أوامر السيد دى رينال ، إلا أنه كان أكثرنشاطا من العمدة ، لا يستحيي من شيء بل يتدخل فى كل شيء ، يذهب إلى كل مكان و يكتب و يتكلم ، و ينسى الإهانات ، ولا يعتز أبداً بنفسه ، فتمكن بهذا من التخلص من

سلطان العمدة عليه فى نظر رجال الدين . كان مثله كمثل من قال لبد الى الأقليم : هاتوا اثنين من أكثركم حماقة ، ولرجال القانون : دلونى على اثنين من أكثركم جهلا ، ولرجال الصحة : أخبرونى عن اثنين من مدعى الطب، فلما اجتمع من كل المهن أكثر رجالها سفاهة وحمقا قال : لنحكم مشتركين .

كانت طرق هؤلاء الناس تؤذى السيد دى رينال . وكانت قحة ڤالنو لا تبالى بشىء ولا يؤثر فيها لوم ، فلم يكن يهتم بتكذيب الخورى ما لون له أمام الناس .

كان على الرغم من ثرائه فى حاجة إلى أن يتسلح بشىء من السفه ، ليدفع ما يواجهه به الناس من حقائق كثيرة لا سبيل إلى إنكارها . ثم ازداد نشاطه لأن زيادة السيد أپتر تركت فى نفسه مخاوف جمة ، فذهب ثلاث مرات إلى بيزانسون ، وأرسل خطابات كثيرة فى كل بريد يغادر ڤريير ، ثم أرسل أخرى بأشخاص مجهولين كانوا يفدون عليه تحت جنح الظلام . وقد يكون مخطئا فى عزل الخورى الشيخ من منصبه ، لأن عزل الأب شيلان جعله شريرا فى أعين كثيرات من الصالحات، اللائى ينتمين إلى أعرق الأسر . ومع كل فقدأصبح ڤالنومنذ عزل الأب رهن إشارة مونسنيور ڤريلير كبير الأساقفة ، الذى كان يطلب منه القيام بمهام غريبة نظير استجابته إلى طلبه .

انتهت سياسته إلى هذا الحد الذى وصفنا حين امتحاب إلى لذته النفسية فكتب الخطاب المجهول ، وزاد الأمر تعقيدا أن طلبت منه زوجه أن يقيم چوليان فى منزلها ، وقد لاقت هذه الفكرة قبولا حسنا فى نفسه

التى فطرت على الغرور . كان السيد ڤالنو يتوقع شجارا وقطيعة بينه و بين شريكه السيد دى رينال مادامت الأمور قد وصلت إلى هذا الحدّ . لقد وجه إليه العمدة كلاما قاسيا ، و إن كان لا يأبه كثيراً بما يقال . وقد يكتب العمدة إلى بيزانسون و إلى بار يس إذا شاء ، فيأتى إلى ڤر يير بغتة قريب لأى وز ير من الوزراء ليتسلم مخازن الصدقات من ڤالنو . من أجل ذلك ، فكرّ فى أن يتقرب إلى الأحرار ؛ فدعا بعضهم لتناول الغداء يوم كان جوليان يتلو بعض مقطوعات من العهد الجديد . قد يكون فى التقرب من الأحرار توطيد كبير لمركزه ضد العمدة ، وقد تكون هنالك انتخابات ، ومن الواضح أن التصويت السىء لا يتفق مع احتفاظه بمركزه .

كانت مدام دى رينال خبيرة بسياسة ڤالنو ، فحدثت عنها جوليان وهى مستندة إلى ذراعه متنقلين من حانوت إلى حانوت ، ثم حدثته عنها كذلك حين ذهبا إلى حديقة الأخلاص ، وقضيا فيها ساعات هادئة كأنهما فى ڤرجى

وكان هذا يدور والسيد ڤالنو يحاول جاهدا أن يؤجل موعد القطيعة بينه و بين رئيسه القديم ، فعمد إلى طريقة أفلحت معه فى ذلك اليوم و إن زادت غضب العمدة : ذلك أنه ظهر أمام رئيسه بمظهر الجرأة .

إن الكبرياء إذا خالطها الحرص الشديد على المال ، ذلك الحرص الذى يؤدى إلى الحقارة والتفاهة ، لتدفع المرء أن يكون صعلوكا حقيرا ، وهذه هى صورة السيد دى رينال حين دخل الحانة . فانقبض أولاده لدخوله على حين أنهم كانوا قبل ذلك فرحين مسرورين ، وزاده حزنا وألما مارآه من تناقض ، فقال بصوت تحمل نبراته سيطرة وسيادة :

— يخيل إلىّ أننى دخيل على أسرتى !

ولم تجبه زوجه ولكنها انتحت به ناحية وأخبرته بضرورة إبعاد چوليان؛ ذلك لأن السعادة التى لقيتها فى الساعات التى قضتها مع چوليان بعثت فى نفسها الحزم واللين الضروريين لمتابعة تطبيق منهج فكرت فيه منذ خمسة عشر يوما . وزاد فى اضطراب العمدة المسكين أنه يعلم أن أهل ڤرييز جميعا يسخرون من حرصه على المال . أما السيد ڤالنو فهو كريم ككل اللصوص. وقد حرص على أن يظهر بمظهر الحذر فى التبرعات الخمسة الأخيرة أو الستة التى جمعت لحساب أخوة القديس يوسف ولجماعة العذراء ولجمعية السر المقدس وما إلى ذلك . . .

أما اسم السيد دى رينال فكان يرد كثيرا فى آخر القائمة التى فيها أسماء عمد ڤرييز والبلاد المجاورة . وكان القسس الذين يجمعون الصدقات حريصين على أن يرتبوا الأسماء فى القوائم، وفقا للمبالغ التى يتبرع بها . وعبثا كان يدّعى أنه لا يربح شيئا ، ورجال الدين لا يعرفون المزاح فى مثل هذه الأمور .

الفصل الثالث والعشرون

أحزان موظف

[لذة أن يرفع المرء رأسه طول العام يدفع ثمنها غاليا فى ربع ساعة لا مفر من مواجهته .]

كاستى .

لنترك هذا الرجل التافه فريسة لمخاوفه الوضعية ؛ فلماذا أدخل بيته رجلا عالى النفس ، وهو فى حاجة كبيرة إلى وضعاء النفوس ؟ لماذا لا يعرف كيف يختار رجاله ؟ والعرف المتبع فى القرن التاسع عشر هو أن الرجل القوىّ الذى ينتمى إلى طبقة الأشراف ، لا يلبث إذا هو لاقى عظيم النفس أن يقتله أو ينفيه أو يلقى به فى غياهب السجون ، أو يزدريه كثيراً ، فيحزن الأحمق ويموت غيظا وكمدا . ولكن المصادفات أرادت أن يكون المعذّب فى هذه المرة هو القوى الشريف . ومن أكبر البلايا التى تمنى بها المدن الفرنسية الصغيرة ، وأكبر المحن التى تمنى بها الحكومات الانتخابية كحكومة نيويورك ، أنها لا تستطيع أن تنسى وجود قوم مثل السيد دى رينال . ففى بلدة يبلغ عدد سكانها عشرين ألفاً من الأنفس يكوّن هؤلاء الرأى العام فيها . والرأى العام فى بلد دستورى شديدُ الوطأة . وذو النفس العالية الكريمة الذى اتخذته صديقاً ، ولكنه يقطن بعيداً عنك بمائة فرسخ ، يحكم عليك بما يمليه عليه الرأى العام المسيطر على بلدك ، وهو

عادة يتحكم فيه الحمقى الذين ولدوا أشرافا أغنياء معتدلين . والويل لمن يمتاز عن أقرانه فيظهر بين مواطنيه ! .

و بعد تناول الغداء سافرت الأسرة إلى ڤرجى ؛ ثم مرّ يومان فعادت الأسرة كلها إلى ڤرِيير .

وما مضت ساعة على وصولها حتى اكتشف چوليان أنّ مدام دى رينال تخفى عنه شيئاً ، فذهل ذهولا عظيما . كانت تمسك عن الكلام مع زوجها حين يدخل عليهما ، وتودّ لو أنه غادرهما . على أنه لم يكن فى حاجة إلى أن ينبّه إلى هذا الأمر مرتين . وأصبح فاترا محتاطا ؛ وأدركت مدام دى رينال هذا المسلك الجديد ، لكنها لم تشأ أن توجه إليه أى استفسار . كان يفكر فى أمرها مسائلا نفسه : هل ستتخذ خليلا غيرى ؟ لقد كانت حتى أمس الأول صافية النفس صادقة الودّ ! ولكنه يقال : إن سيدات الطبقة الراقية يفعلن هذا دائماً . هنّ كالملوك لا يظهرون ودّا وعطفاً إلاّ للوزير الذى يخرج من حضرتهم راجعاً إلى داره فيجد هنالك خطاب عزله بانتظاره . ولحظ چوليان أنّ المناقشات التى كانت تدور بين العمدة وزوجه وتنقطع بغتة حين يقترب منهما ، تدور غالباً حول منزل كبير تملكه بلدية ڤرِيير ، منزل قديم لكنه مريح واسع يقع تجاه الكنيسة فى أحسن موضع تجارى فى المدينة ، فأخذ يسائل نفسه : ولكن ما العلاقة بين هذا المنزل والخليل الجديد ؟ .

وكان فى حزنه هذا يردد أشعاراً جميلة كانت جديدة بالنسبة إليه ، لأن مدام دى رينال هى التى أنشدته هذه الأشعار قبل ذلك بأقل من شهر .

ولطالما أثبتت وهى تنشد فى كل بيت من الأبيات ، أن هذه الأشعار التى أنشأها فرنسوا الأول كاذبة ، أثبتت ذلك بأيمان ومداعبات كثيرة لطيفة ! .

المرأة سريعة التحول ، لا يركن إليها إلا كل مخبول .

سافر السيد دى رينال إلى بيزانسون ، وقد تقررت هذه الرحلة فى ساعتين ، وكان يبدو أنه فريسة لعذاب شديد . ولما عاد ألقى على المائدة حزمة كبيرة مغطاة بورق رمادى ، ثم قال لزوجه :

— لقد انتهى هذا الأمر اللعين .

ومرت ساعة فجاء لاصق الإعلانات وحمل الحزمة فتبعه چوليان على عجل ، وهو يقول : سأعرف سر هذا الأمر الغامض عند أول منعطف للطريق.

وقف خلف الرجل وصبره نافذ ، وأمسك الرجل « فرشاة » كبيرة بلّل بها ظهر الإعلان . ثم ألصقه على الحائط ، فأقبل عليه چوليان يقرؤه . كان يتناول بالتفصيل استئجار المنزل القديم الذى تردد ذكره فى الحديث بين السيد دى رينال وزوجه ، على أن يكون الإيجار بالمزاد العلنى ، وميعاده الساعة الثانية من اليوم التالى فى قاعة البلدية ، حينما تنطفىء الشمعات الثلاث. خاب أمل چوليان حين رأى المدة المحددة للمزاد قصيرة جدا : فكيف يتاح للمتزايدين جميعا أن يعلموا الموعد ؟ على أن تاريخ الإعلان سابق لإلصاقه بخمسة عشر يوما . وقرأه چوليان فى ثلاثة أماكن مختلفة ، لكنه لم يستفد منه شيئا . ثم ذهب يستطلع المنزل المعلن عنه ، ولم يكد البواب يراه يقترب حتى قال لجاره فى غموض :

— آه ! آه ! إنه لجهد ضائع . لقد وعده السيد مالون أن سيستأجره بثلاثمائة فرنك ، لكن العمدة لم يقبل فاستدعى إلى الاسقفية ، ليلقى السيد دى فريلير النائب الأول للأسقف .

كان وصول چوليان إلى مكان الصديقين داعية إلى أن يكفا عن الكلام ، و بدا عليهما من حضوره انزعاج وقلق . وحرص فى اليوم التالى على أن يشهد المزاد ، فذهب إلى القاعة فألقاها مزدحمة بالناس فى نورها الضئيل . وكل من فيها ينظر شزرا ، والأبصار متجهة إلى منضدة رأى عليها چوليان وعاء من القصدير به بقايا ثلاث شمعات مضيئة . وكان الحاجب يصيح قائلا :

— ثلثمائة فرنك أيها السادة !

فقال أحد الحاضرين لجاره بصوت منخفض وچوليان واقف بينهما :

— ثلثمائة فرنك ! هذا كثير . المنزل يساوى ثمانمائة فرنك ، إنى أريد أن أعلى المزاد.

— لن يجديك هذا نفعا . وماذا تستفيد من معاداة السيد مالون والسيد ڤالنو والأسقف وهذا الفظ الغليظ دى فريلير ، وكل هذه العصبة الخاسرة.

فقال الآخر ضاحكا !

— ثلثمائة وعشرون فرنكا .

فقال له جاره وهو يشير إلى چوليان :

— يا لك من بهيمة ! إن بجوارك أحد جواسيس العمدة .

فالتفت چوليان إلى الرجلين فى سرعة وغضب لينتقم لهذه الإهانة

لـكنهما لم يعيراه انتباها ، فبعث هدوؤهما فى نفسه السكينة . وفى اللحظة نفسها كانت البقية الباقية من الشمع قد ذابت وانطفأت ، فأعلن الدلال أن المنزل قد استأجره السيد دى سان چيرو رئيس قسم فى ولاية . . . لتسعة أعوام بإيجار قدره ثلثمائة وثلاثون فرنـكا . وغادر العمدة القاعة فتوالت الأحاديث . قال أحد الحاضرين :

— لقد كسبت خزينة البلدة ثلاثين فرنـكا من حماقة جروچو .

فأجابه آخر :

— ولـكن السيد دى سان چيرو سينتقم منه على ما فعل ، لن يترك الأمر يمر بسلام .

ثم قال رجل ضخم كان إلى يسار چوليان :

— يا للعار ! لو كان الأمر بيدى لاستأجرت المنزل لمصنعى بثمانمائة فرنك ، ولـكنت رابحاً فى هذه الصفقة .

فأجابه صاحب مصنع ينتمى إلى الأحرار :

— صه ! أليس السيد دي چيرو منتمياً إلى الجمعية ؟ ثم أليست الخزانة العامة تنفق على أولاده ؟ فياله من رجل بائس ! يجب أن تعينه خزانة فرير بمبلغ خمسمائة فرنك وهذا هو كل شىء .

وقال ثالث :

— ويقال إن العمدة لم يتمكن من منعه ! لأنه هو أيضا من المتطرفين ولـكنه لا يسرق .

فاستدرك آخر قائلا :

— لكنه لا يسرق ؟ إنه لحمامة تطير . على أنّ كل مايختلس يدخل الخزانة العامة و يقسم آخر العام . ولكن هاهو ذا الصغير سورل، فلننصرف.

عاد چوليان إلى المنزل غاضبا ثائراً ، فألقى مدام دى رينال حزينة مكتئبة ، وقد سألته حين رأته :

— أ أنت آت من المزاد ؟

— نعم ياسيدتى ، وتشرفت بأن قيل عنى : إنى جاسوس حضرة العمدة .

— لو أنه استمع إلىّ لغادر ڤرييبر .

ودخل السيد دى رينال فى هذه اللحظة مكتئبا عبوسا . وتناولوا الغداء جميعا فى صمت ، ثم أمر العمدة چوليان أن يذهب بالأطفال إلى ڤرجى ، فكانت رحلة تسودها الكآبة ، وأخذت مدام دى رينال تهوّن الأمر على زوجها قائلة :

— لقد اعتدت مثل هذا ياصديقى .

وفى المساء التفت الأسرة كلها حول الموقد وهى صامتة ، وكانت الضوضاء التى تنبعث من الخشب المتأجج هى لذة المجلس الوحيدة . ومثل هذه اللحظات الحزينة توجد حتى فى أشد الأسر ارتباطا . و بينما هم كذلك ، صاح أحد الأطفال فى مرح وهو يقول :

— الجرس يدقّ ! الجرس يدق !

فردّ العمدة فى قلق :

— يا إلهى ! إنه السيد دى سان چيرو، جاء يطاردنى بحجة أنه يشكرنى سأقول له كل ما يجول بخاطرى ، هذا شيء لايطاق . إنه لمدين لڤالنو

بالشكر ؛ أما أنا فقد أصبحت متهما . ما العمل ، لو أن الصحف المشاغبة الكريهة تناولت القصة بالنقد ، وسخرت منى كما تسخر من السيد بونانت سانك ؟

دخل فى هذه اللحظة رجل جميل الهيئة ، شعره أسود غزير على العارضين ، وقد سار أمامه خادم ، ثم خاطب ربّ الدار قائلا :

— سيدى العمدة ، أنا السنيور جيرونيمو [1] ، وهاك خطابا من السيد دى بوفيزى الملحق بسفارة نابلى ، سلمنيه ساعة رحيلى ، أى قبل تسعة أيام . ثم نظر إلى مدام دى رينال مستطردا فى سرور :

— وابن عمك السنيور دى بوفيزى صديقى الحميم ، وقد حدثنى ياسيدتى أنك تتكلمين الإيطالية .

وكان مرح هذا القادم من نابولى وظرفه سببا فى أن تبدلت سهرة الأسرة من حزن وكآبة إلى فرح وسرور . وأرادت مدام دى رينال أن تقدّم إليه طعاما ، فأقامت المنزل كله وأقعدته ، لأنها حريصة على أن تدخل السرور على قلب جوليان لتنسيه صفة ألصقت به اليوم ظلما وعدوانا وهى التجسس، التى سمع مواطنيه يتهمونه بها . كان السنيور جيرونيمو مغنيا بارعا، لطيف المعشر ، مرحا إلى أبعد الحدود ، وهى صفات لا تتاح لأحد من الفرنسيين ، فأخذ يغنى بعد الطعام هو ومدام دى رينال أغنية ثنائية ، ثم قص عليهم قصصا طريفة . وفى الساعة الأولى صباحا طلب جوليان من

(١) يخيل إلينا أن ستندال ، وهو يخلق هذه الشخصية ، كان يفكر فى المغنى «لابلاش» الذى كان يغنى وقتذاك دور «دون جيرونيمو» بباريس فى «متريمونيو سجريتو» غير أن بعض النقاد يرى أن ستندال يشير هنا إلى «كريسنتينى» مغنى الامبراطور . المعرب

تلاميذه أن يأووا إلى فراشهم ، فتصايحوا رافضين وقال كبيرهم :

— نريد أن نسمع أيضا هذه القصة .

فأجابه السنيور چيرونيمو :

— إنها قصتي يا عزيزي السنيور : كنت منذ ثمانية أعوام تلميذا صغيرا مثلك في مدرسة الفنون بناپولي ، أعني أنني كنت في سنك و إن لم يكن لي شرف انتسابك إلى هذا الرجل الخطير عمدة فرييير الجميلة .

فتنهدّ السيد دي رينال حين سمع هذا الكلام ثم نظر إلى زوجه ، واستطرد المغني الشاب يقصّ قصته على الأطفال مبالغا في نطق كلماته حتى ضحك الأطفال منه ضحكا شديدا :

كان السنيور زنجاريللي[١] معلما صارما، من أجل ذلك لم يكن محبوبا في المدرسة، ولكنه كان حريصا على أن يظهر تلاميذه دائما بمظهر المحبين له. وكنت أغادر المدرسة في كثير من الأحيان لأذهب إلى مسرح سان كرلينو حيث أسمع موسيقى رائعة . ولكن يا للسماء ! كيف السبيل إلى جمع أربعين سنتيما لأحصل على مكان في بهو المسرح ؟ ثم نظر إلى الأطفال فأغرقوا في الضحك وقال :

يا له من مبلغ كبير ! لقد سمعني مدير مسرح سان كرلينو أغنّي وكنت إذ ذاك في السادسة عشرة من عمري ، فقال : هذا الطفل كنز . ثم سألني :

— أتريد أن تعمل معنا هنا أيها الصديق العزيز ؟

— وكم أجري ؟

(١) زنجاريللي : مؤلف إيطالي ومدير معهد الموسيقى بناپولي ؛ وهي المدينة التي ولد فيها « لابلاش » وتلقى بها علومه الأولى . المعرب

— أربعون دوكا شهريا أى مائة وستون فرنكا أيها السادة . فاعتقدت أن أبواب السماء فتحت لى . ثم قلت لچيوڤنونى :

— ولكن كيف السبيل إلى إقناع زنجار يللى القاسى بتركى أغادر المدرسة؟

فقال لى :

— لاسيكا ڤارى آمى Lascia fare a me

وهنا صاح أكبر الأطفال مترجما ما قال :

دعنى أقم بهذا الأمر .

فقال المغنى الشاب :

— هذا حق يا سيدى الصغير . ثم قال لى چيوڤانونى :

— وقع أولا هذا العقد البسيط ، فوقعت ، فأعطانى ثلاث دوكات ؛ فبهرنى المال الكثير الذى لم يتح لى أبدا من قبل ، ثم أطلعنى على ما يجب أن أعمله . وجاء اليوم التالى فطلبت مقابلة زنجار يللى الطاغية فادخلنى خادمه العجوز إلى مكتبه . فقال لما رآنى :

— ماذا تريد أيها الطالب الذميم ؟

— ما يسترو ، إنى لنادم على أخطائى ، وأعدك بأنى لن أغادر المدرسة مرة أخرى من فوق السور الحديدى . وستراني بعد ذلك مجدا كل الجد .

— لولا أنى أخشى دبيب الفساد إلى صوتك الذى يعد أجمل صوت حنون سمعته فى حياتى لوضعتك فى السجن خمسة عشر يوماً ، وقضيت عليك ألا تتناول إلا الخبز والماء أيها الأحمق .

— ما يسترو ، سأكون أنموذجا لحسن السيرة فى المدرسة كلها وأرجو

أن تصدقنى هذه المرة . لـكننى أطلب منك طلبا أودّ أن تجيبنى إليه :

إذا جاءك أحد يرجوك فى أن تسمح لى بأن أغنى خارج المدرسة فلا تستمع إليه ، واعتذر من عدم استطاعتك السماح بذلك . أرجو أن تفعل هذا من أجلى سيدى المدير .

— ومن ذا الذى يطلب شقيّا مثلك ليغنى له ؟ وهل أسمح أنا لك بمغادرة المدرسة ؟ أتريد أن تسخر منى ؟

ثم قال وهو يحاول أن يركلنى وأنا أولى الأدبار :

— اذهب ! اذهب ! وإلا فالويل لك من السجن والخبز القفار .

وبعد ساعة أتى السنيور چيوڤانونى ليلقى مدير المدرسة ثم قال له :

— جئت أطلب منك أن تؤدى إلى خدمة فيها سعادتى وثرائى : أحب أن تتفضل بالسماح لچيرونيمو بالغناء على مسرحى . إذا أجبتنى إلى طلبى فأؤكد لك أننى سأزوج ابنتى هذا الشتاء .

— أتريد خيرا من وراء هـذا الأحمق ؟ أنا لا أوافق على ذلك . ولن تحصل عليه . وهب أنى أجبتك فإنه لا يريد أبدا أن يغادر المدرسة ؛ ولقد أكد لى هذا منذ قليل .

فأجابه چيوڤانونى فى تؤدة ثم أخرج من جيبه العقد قائلا :

— إذا كان الأمر متوقفاً على إرادته فإليك توقيعه !

فغضب زنجار يللى غضبا شديدا وهوى على الجرس يدقه وصاح :

— ليطرد چيرونيمو من المدرسة فى الحال .

وطردت وأنا أضحك . وحلّ المساء وأنا أغنى أغنية «دل مولتيپليكو» وكانت پولنشينل تريد أن تتزوج ، فأخذت تحصى على أصابعها ما تحتاجه

فى منزل الزوجية ، لـكنها كثيرا ما كانت تخطىء فى حسابها .

عند ذلك قالت له مدام دى رينال :

آه ! هل لك أن تسمعنا هذه الأغنية ؟

فأخذ چيرونيمو يغنى وهم يضحكون ، حتى سالت دموعهم من فرط الضحك . ولم يأو السنيور إلى مخدعه إلاّ فى الساعة الثانية صباحا ، بعد أن أدخل المرح والسرور على القلوب ونال إعجاب الأسرة لظرفه ومرحه وكياسته .

وفى اليوم التالى أعطاه السيد دى رينال وزوجه خطابات التوصية التى طلبها لتشدّ من أزره فى بلاط فرنسا .

قال چوليان فى نفسه : إن الـكذب والبهتان فى كلّ مكان . فها هو ذا السنيور چيرونيمو يذهب إلى لندن ليغنى بستين ألفا من الفرنـكات . ولولا براعة مدير مسرح سان كارلينو ما عُرف صوته الجميل وما ذاع صيته إلا بعد عشرة أعوام . إنى أفضل أن أكون مثل چيرونيمو فذلك خير من أن أكون كالسيد دى رينال ، لأن الأول ، وإن فقد المكانة الاجتماعية والتبجيل الذى يلقاه العمدة ، فلن يصيبه حزن أو أسف فى مزاد كمزاد هذا اليوم ، إنه يحيا حياة يسودها المرح والسعادة .

عجب چوليان من أن الأسابيع التى قضاها فى ڤرييز وحده بمنزل السيد دى رينال ، كان سعيدا فيها تماما ؛ لم يشعر بالبغضاء ولا الـكراهية ولم يتألم من الأفـكار السقيمة إلا فى المـآدب التى كان يغشاها . ألم يقرأ ويكتب ويفـكر وهو فى عزلته دون أن يزعجه أحد ؟

ولم ينتزعه فى هذه الفترة من أحلامه منتزع ، ليرى حركات أثيمة تصدر من نفوس دنيئة ، ولا ليخدع نفوس الناس بما يمليه عليه النفاق .

ذكر هذا فقال فى نفسه : أيقرب منال السعادة إلى هذا الحد ؟ . . . إن قضاء الحياة على هذا النحو سهل مستطاع ، ففى وسعى أن أتزوج الآنسة إليزا ، وأن أشارك فوكيه فى تجارته كما أشاء . . . ولكن المسافر الذى يصعد جبلا وهو مسرع ، يجد اللذة كل اللذة فى أن يجلس على القمة ليستريح قليلا . ولكن هل يشعر بنفس السعادة لو اضطر إلى راحة دائمة ؟ .

أما مدام دى رينال ، فقد كتب عليها ألاّ تخفى شيئاً عن چوليان . وعلى الرغم من عزمها على ألاّ تطلعه على شىء فقد أخبرته بأمر المزاد ، ثم قالت لنفسها : إنه ينسينى إذاً كل قسم !

كانت من قبل لا تتردّد فى أن تضحى بنفسها لتنقذ حياة زوجها إن رأته فى خطر ، ونفسها من تلك النفوس النبيلة التى يتحكم فيها الخيال ، والتى إذا أتيح لها أن تفعل خيرا ولم تفعله استهدفت لألم وتأنيب ، حتى كأنها ارتكبت جريمة . لكنها اليوم تمرّ عليها أيام وهى فى بؤس وحزن؛ لأن فكرة تسلطت عليها فألقت فى روعها أن السعادة الكاملة فى أن تفقد زوجها هذا لتستطيع أن تتزوج بچوليان .

وكان هو يحب أولادها فوق ما يحبهم أبوهم ؛ وكان معبود تلاميذه على الرغم من عدله القاسى . وكانت مدام دى رينال تدرك أن عليها مغادرة ڤرجى إذا ما تزوجت چوليان ، وإن كانت ظلالها جدّ عزيزة عليها .

تصورت نفسها مقيمة فى باريس ، دائبة على تعليم أولادها بالطريقة التى أعجب بها الناس ، وتصورت أنها هى وأطفالها وچوليـــان سعداء كل السعادة .

لشدّ ما أصبح الزواج عجيباً فى القرن التاسع عشر ! إن السأم الذى يصيب الحياة الزوجية يقضى ولا ريب على الحب، إذا ما سبق الحبُّ الزواج ومع ذلك فأن فيلسوفاً يقول بأن الأغنياء وحدهم هم الذين يشعرون بالملل ويزهدون فى ملذات الحياة الهادئة لأنهم لا يعملون؛ فتبعث البطالة فى نفوسهم ما يعانون . أما النساء اللائى لا تتهيأ للحب نفوسهن ، فهنّ جامدات العواطف .

ورأى هذا الفيلسوف يحملنى على أن ألتمس عذراً لمدام دى رينال ، و إن كان أهل ڤرييرلا يلتمسون لها عذراً ، فأصبحت المدينة كلها مشغولة بفضائح غرامها وهى لا تعلم ، ولم يحسوّا سأماً طول فصل الخريف ، لأنهم فى شغل بهذا الحدث العظيم .

ثم انقضى الخريف وجزء من الشتاء كذلك فى سرعة ، وأصبح من المحتم أن تغادر الأسرة غابات ڤرجى . و بدأت الطبقة الراقيــة فى ڤرييرتتأذى من مسلك السيد دى رينال ، وتعجب له لأنه لم يبــد اهتماما بالمؤاخذات التى اتهمت بها زوجه . وفى أقل من ثمانية أيام ، أثار بعض الناس فى نفسه شكوكا مُرّة ألقوها إليه فى عبارات حذرة متحفظة، وهم من الذين عرفوا بالوقار ، فهم إنما يدخلون على أنفسهم بما يفعلون سروراً يدفع عن قلوبهم ملل حدٍّ فطروا عليه .

أما السيد ڤالنو فكان يلعب دوره فطنا بصيراً ، فقد أدخل إليزا منزل أسرة من الأشراف لها مكانتها بين الناس ، و إن كان بالمنزل خمس سواها . وقد زعمت هى أنها تخشى ألا تجد عملا فى الشتاء فلم تطلب من الأسرة إلا ثلثى الأجر الذى كانت تأخذه فى منزل العمدة . وذهبت من نفسها إلى الخورى السابق الأب شيلان لتعترف أمامه ثم إلى الخورى الجديد ، مبتغية من وراء ذلك أن تقص عليهما تفاصيل المغامرات الغرامية بين چوليان ومدام دى رينال .

وفى الساعة السادسة من صباح اليوم التالى لوصولها ، استدعى الأب شيلان چوليان وقال له :

— لا أطلب منك أن تقول لى شيئاً فأرجوك بل آمرك إذا اقتضى الأمر ألا تفضى إلىّ بشىء ؛ لكننى أريد منك أن تذهب إلى بيزانسون بعد ثلاثة أيام لتدخل المدرسة الاكليريكية ، أو اذهب إلى صديقك فوكيه فأقم معه وهو لا يزال على أتم استعداد لأن يهيىء لك مستقبلا مجيداً . لقد توقعت كلّ شىء وأعددت لكل أمر عدته ، فعليك أن ترحل وألاّ تعود إلى ڤرييرقبل أن ينقضى عام على غيابك .

لم يجب چوليان ، وفكر فيما إذا كان شرفه أهين باهتمام الأب شيلان بأمره، والخورى على الرغم من كل هذا ليس أباه . ثم قال بعدما فكر :

— سأتشرف غداً بلقائك فى مثل هذه الساعة .

فأراد الأب شيلان أن يكسب المعركة فتكلم كثيراً . لكنّ چوليان انطوى على نفسه متظاهرا بالخضوع والخشوع ولزم الصمت . ثم أسرع

من عنده إلى مدام دى رينال ليخبرها بما جرى بينه و بين الخورى ، فإذا بها فريسة لليأس ، لقد حدثها زوجها فى شىء من الصراحة ، و إن حمله ضعف خلقه الطبيعى ، والميراث المنتظر، على أن يؤمن بأنها بريئة . وكاشفها بالحالة العجيبة التى رأى الرأى العام عليها فى ڤرييير . إلاّ أنّ الناس مخطئون و إنما أضلّهم الحسّاد ، ولكن ما العمل ؟

ووقعت هى تحت سلطان أمل باطل بعض الوقت ، فاعتقدت أن فى وسع چوليان أن يقبل المنصب الذى عرضه عليه ڤالنو ليبقى فى ڤرييير . لم تعد هى تلك الساذجة الخجول كما كانت فى عامها الماضى ، لأن نفسها استنارت بحبّ قدُرٍ، و بألم عظيم ووخز ضمير . ولشد ما تألمت وهى تستمع إلى زوجها وتقدر فى نفسها أن تبتعد مؤقتاً عن چوليان .

قالت فى نفسها : إذا ابتعد عنى عاودته مشروعاته التى ترمى إلى الطموح ، وهى مشروعات طبيعية جداً بالنسبة إلى كل فقير .

أما أنا يا إلهى فغنية جداً ! ولكن ثرائى لا يحقق لى لوناً من ألوان السعادة ! سينسانى چوليان . سيحبّ غيرى وتحبه امرأة سواى ؛ لأنه خلق ظريفاً ، آه ! يا لى من بائسة ! ... ولكن ممّ أشكو ؟ إن السماء لعادلة ، ولا فضل لى فى أن أقف الجريمة عند هذا الحدّ . لقد غُلبت على أمرى . وكان فى استطاعتى أن أسكت إليزا بما أغدقه عليها من المال ، وما كان أهونه ، لكننى لم أفكر فيه فى وقت من الأوقات ، لأن حب چوليان شغل كل أوقاتى . لقد هلكت .

ولما أفضى إليها چوليان بخبر رحيله، لم يمل عليها حبها نفسها أن تعترض

بأى اعتراض ، فذهل ، وما كان يعلم أنها بذلت مجهوداً كبيراً حتى لا تجهش بالبكاء ، ثم قالت له :

— نحن يا صديقى فى حاجة إلى العزم .

وأهوت على شعرها فقصّت خصلة منه ، ثم قالت بعد ذلك :

— لست أعلم يا چوليـان ما أنا مقدمة عليه ، فعدنى بألاّ تنسى أولادى إذا فارقت الحياة . حاول أن تخلق منهم رجالا أمناء على بعدك عنهم أو على قربك منهم . و إذا شبت ثورة جديدة فاعلم أن الأشراف جميعاً سيقتلون . وربما هاجر أبوهم بسبب الفلاح الذى قتل فوق أحد سطوح المنـازل . اسهر على الأسرة ... هات يدك : وداعاً يا صديقى ! هذه آخر لحظة نقضيها معاً . وما دمت قد أقدمت على هذه التضحية الهائلة ، فأنا أرجو أن تتاح لى الشجاعة ، حتى أفكر فى إصلاح عار لحقنى أمام الناس .

كان يعتقد أن ساعة الوداع ستكون أليمة شاقة ، ولكن بساطة وداعهما تركت فى نفسه أكبر الأثر ، فقال لها :

— لا ، لا أريد أن يكون وداعنا على هذه الصورة . سأرحل قطعاً لأنهم يريدون ذلك ، وأنت نفسك حريصة على رحيلى . سأرحل وسأعود بعد ثلاثة أيام لأراك فى منتصف الليل .

تغيرت حياة مدام دى رينال . إنّ چوليان يحبها إذاً حباً صادقاً مادام قد اخبرها بأنه سيعود ليراها ! وتحول حزنها الأليم إلى فرح شديد لم تحسّه نفسها من قبل . وأصبح كل شىء فى نظرها سهلا يسيراً ! لأن

ثقتها برؤية حبيبها مرة أخرى نزعت من نفسها مرارة الفراق وموقف التوديع ، فتكلمت قسماتها وحركاتها بنبل وثبات ووقار .

ثم عاد السيد دى رينال بعد قليل مغيظاً حانقاً . وتحدّث أخيراً إلى زوجه عن الخطاب المجهول الذى تسلّمه منذ شهرين قائلا لها :

— أريد أن أحمل هذا الخطاب معى إلى المقصف لأبين للناس أن كاتبه هو الحقير فالنو الذى انتشلته من وهدة الفقر ، وجعلته من أغنى البرجوازيين فى فريير . سأحقّق له خزياً وعاراً أمام الناس ، ثم أقاتله بعد ذلك . إنّ هذا شىء فظيع .

فقالت فى نفسها : سأكون إذن أرملة ياإلهى ! لكنها قالت فى نفس اللحظة : إذا لم أمنع هذه المبارزة كنت قاتلة زوجى . وما أيسر أن أحول بينهما و بين القتال .

واستطاعت أن تخفى كبرياءهافى مهارة لم تتح لها من قبل . وفى أقلّ من ساعتين ؛ تمكنت من إقناعه بأنّ عليه أن يظهر الصداقة والود للسيد ڤالنو ، وحملته على أن يدللّ بنفسه على صواب رأيها . وذهبت إلى أبعد من هذا فاقترحت عليه أن يعيد إليزا إلى عملها فى المنزل . وكانت مدام دى رينال فى حاجة إلى كثير من الشجاعة لترجع هذه الفتاة إلى منزلها لأن إليزا سبب ما نزل عليها من بلاء . ولكنه رأى أوصى به جوليان ولا بدّ لها من أن تطيع .

وأخيراً هدت زوجها إلى الطريق ثلاث مرات أو أربعاً ، وأخذ هو يفكر من تلقاء نفسه فى تلك المسألة المالية المعقدة المرهقة : لأن أخوف

ما يخافه أن يبقى جوليان فى فريير معلما لأولاد السيد فالنو، بين هذا الهياج العام وتلك الأقاويل التى تدنسّ شرفه. ومصلحة جوليان تقضى عليه أن يقبل ما عرضه عليه مدير الصدقات ، ومجد السيد دى رينال يحتم عليه أن يغادر جوليان فريير ليدخل المدرسة الاكليريكية فى بيزانسون أو مدرسة ديجون . ولكن كيف السبيل إلى إقناع جوليان بذلك ؟ ثم كيف يعيش فى المدرسة لو اقتنع برأى العمدة ؟

ورأى دى رينال أن التضحية بالمال قاب قوسين أو أدنى فيئس أكثر من يأس امرأته التى أصبحت بعد هذا الحديث زاهدة فى كل شىء، كأنها رجل شجاع كافح الحياة حتى زهدها فتجرع الداتورة ، وصارت حركاته آلية لأنه زهد فى كل شىء . وهذا ما وصلت إليه حالة لويس الرابع عشر فقد قال وهو يموت : حينما كنت ملكا » فياله من قول بارع !

وفى الصباح الباكر من اليوم التالى ، تسلّم دى رينال خطاباً غفلا كتب بأسلوب بذىء . ينطوى كل سطر من سطوره على كلمات جارحة تحطّ قدره ومكانته . إنه من عمل أحد مرؤوسيه الذين يحسدونه على نعمته ، وأعاد إليه هذا الخطاب فكرة قتال السيد فالنو ، حتى سوّلت له شجاعته أن ينفذ رأيه فى الحال ، فخرج وحده إلى صانع أسلحة واشترى منه مسدسات حشاها بالرصاص .

ثم قال فى نفسه : حقاً إن الإدارة الحازمة التى كانت من سمات عصر الإمبراطور نابليون ستعود إلى الدنيا من جديد ، و إذا ما كان هذا فلن يستطيع أحد أن يتهمنى بأنى سرقت سنتيا واحداً ؛ إنّ كل ما فعلته

أنى أمرت أن أغضّ الطرف عن السرقات كما تشهد بذلك خطابات حفظتها فى مكتبى ، لقد صدعت بما أُمرت ولم أفعل سوى ذلك !

اضطربت مدام دى رينال كثيراً للغضب الهادىء الذى استولى على زوجها وذكرته بما جاشت له نفسها ولم تستطع له دفعاً ، وهو أنها ستصبح أرملة . وانفردت به ساعات طويلة تتحدث إليه فذهب حديثها أدراج الرياح ، لأن الخطاب المجهول الجديد خلق فيه عزماً لا يدفع . ثم استطاعت أن تحول شجاعته التى تريد صفع ڤالنوا إلى ستمائة فرنك يأخذها چوليان وهى مصروفات المدرسة الإكليريكية لمدة عام . وكم نقم السيد دى رينال بعد ذلك على اليوم المشئوم الذى فكر فيه أنّ يتخذ لأبنائه معلماً حتى أنسته نقمته هذه ما بعثه فى نفسه الخطاب المجهول .

ثم سرى عن نفسه بفكرة لم يصارح بها امرأته ، وهى أنه يستطيع أن يستغل أفكار هذا الشاب التى تميل إلى الخيال ، ويأمل ، إن هو استعمل المهارة ، أن يرفض چوليان اقتراح السيد ڤالنو ويعمل عنده بمبلغ أقل من المبلغ الذى عرضه عليه مدير إدارة الصدقات .

صادفت مدام دى رينال مشقة كبيرة فى إقناع چوليان بأنه مادام قد ضحّى من أجل زوجها بعمل يدرّ عليه ثمانمائة فرنك عرضه عليه السيد ڤالنو كما يعلم الناس جميعاً ، فليس عليه من ضير إذا قبل تعويضاً عن تضحيته ، ولكن چوليان كان يقول لها دائماً !

— ما فكرت أبداً فى قبول ما عرضه علىّ السيد ڤالنو . وأنتم قد

عودتمونى الحياة الرافهة الناعمة الرقيقة . وفظاظة أمثال هؤلاء الناس كفيلة بأن تقضى علىّ .

ثم تغلبت وطأة الفقر فأضعفت إرادة جوليان . وإن خيّل إليه غروره أنه يستطيع قبول المبلغ المعروض من عمدة فرير على أن يكون قرضا بصكّ عليه يدفعه بعد خمس سنوات مع أرباحه .

وكانت مدام دى رينال لا تزال محتفظة ببضعة آلاف من الفرنكات خبأتها فى مغارة الجبل . فعرضت عليه هذا المبلغ وهى مضطربة واثقة من أنه سيرفض فى غضب شديد ، فقال لها جوليان :

— أتريدين أن تكون ذكرى حبنا ألمة مرة ؟

ثم غادر فريير . فشعر السيد دى رينال بعد ذلك بسعادة لا تحدّه .

غادر فريير بعد أن قدّم إليه العمدة المال فى لحظة كان فيها جوليان جريح القلب، فرفض المال بإباء وشمم، فلم يسع العمدة إلا أن يعانقه فى فرح شديد والدموع تترقرق فى عينيه . ثم طلب منه جوليان شهادة بحسن السلوك ، فلم يجد فى مثل هذه الساعة الفرحة السعيدة ، كلمات رائعة ولا تعابير جميلة ، يستعين بها على تسطير ما يجول بخاطره مثنيا على سلوكه الرفيع . ولم يكن مع بطلنا سوى خمسة لويسات كان قد اقتصدها . وقد عزم على أن يقترض مثلها من صديقه فوكيه .

كان بالغ التأثر لكنه لم يكد يبعد عن فريير بفرسخ واحد حتى فكر فى السعادة التى سيلقاها حين يرى عاصمة كبيرة ، ومدينة حربية

عظيمة مثل بيزانسون . فكرّ فى هذا و إن خلف وراءه فى فريير حبا مخلصا عميقا .

وفى غيبته القصيرة التى لم تكن سوى ثلاثة أيام وقعت مدام دى رينال فريسة لعاطفة قوية عنيفة ، و إن كانت تعتقد أنها ستصبر على فراق الحبيب، كانت حياتها مجرد زمن يمرّ ، و إن حال بينها و بين الشقاء العظيم ما سيكون من لقاء چوليان للمرة الأخيرة . كانت تعد الساعات والدقائق التى بقيت بينها و بينه . ثم حلت ليلة اليوم الثالث ، فسمعت من بعيد الإشارة المتفق عليها ، و بعد أن عرّض چوليان نفسه لكثير من المخاطر رأته ماثلا بين يديها .

لم تعد تفكر فى هذا الوقت إلا فى شىء واحد هو أنها رأت حبيبها لآخر مرة . كانت نفسه تفيض بالحيوية والفرح ، أما هى فكانت جسداً فيه بقية أنفاس ، تدبّ فيه الحياة دبيباً خفيفاً . فإذا ما حملت نفسها على أن تقول : إننى أحبك ، خرج الكلام من بين شفتيها خالياً من الحرارة والمهارة وكأنه ينبىء بعكس ما تقول . ولم يكن فى الدنيا كلها ما يستطيع أن يبعد عن ذهنها فكرة الفراق إلى غير عودة . أما چوليان فصوّر له حذره أنها قد نسيته . ولم يكن ردّها على ما ظنه حبيبها بها إلا دموعاً كبيرة تتساقط على الخدين فى صمت ، وضغطاً شديداً على يدى چوليان . و إن آلمها ما يقول و برّح بها ما يزعم . ثم وجهت إليه لوماً، فجاء فاتراً خفيفاً فقال لها :

— ولكن ، يا إلهى ! كيف تريدين منى أن أصدقك ؟ وأنت تظهرين

لمدام درقيل من الصداقة أكثر مما تظهرينه لى مائة مرة ، وما هى إلا إحدى صويحباتك .

فانزعجت ، ولكنها لم تعرف كيف تجيب ، وقالت له :

— لقد بلغت تعاستى غايتها . . . وأرجو أن أموت . . . إنى لأشعر بأن قلبى لم تعد فيه حرارة الحياة . . .

وهذه أطول إجابة استطاعتها .

وبدأ ضوء النهار يغمر السكون ويفرق الشمل ، فجمدت دموع مدام دى رينال تماماً . ورأته يربط فى النافذة حبلا دون أن يتكلم أو يتزود منها بقبلة . وعبثاً حاول أن يعيد إليها بعض قوتها أو يبعث فى حركاتها شيئاً من النشاط حين قال لها :

— ها نحن أولاء قد وصلنا اليوم إلى ما كنت تؤملينه من زمن طويل . وفى وسعك الآن أن تعيشى فى غير لوم أو أسى ، وإذا أصاب أطفالك أقل سوء فلا تنزعجى فإنهم لن يموتوا .

فقالت فى فتور :

— يؤسفنى أنك لا تستطيع تقبيل ستانيسلاس .

لقد ذهل جوليان كثيراً من قبلاتها التى كانت لا حرارة فيها ، كأنها قبلات جثة هامدة ؛ وتسلطت على نفسه هذه الفكرة لعدة فراسخ . كان حزين النفس . وحينما كان يستطيع أن يرى ناقوس كنيسة ڤرير ، قبل أن يعبر الجبل ، فإنه لم يفتر عن أن يتلفت .

الفصل الرابع والعشرون

عاصمة

[يا له من صخب ! ويا لكثرة المشغولين بأعمالهم !
ويا لتلك الأفكار التي تملأ رأس شاب في العشرين
من عمره عن مستقبله ! ويا لكثرة ما يجد الحب من لهو
وعبث .]
بارناف

طالعته وهو على قمة جبل بعيد أسوار سوداء ، تبين منها قلعة بيزانسون ؛ فتنهد وقال : إنه بون شاسع ، ليتنى دخلت هذه المدينة الحربية المجيدة ، برتبة الملازم الثانى فى فرقة كلفت بالدفاع عن المدينة !

ليست بيزانسون من أجمل مدن فرنسا فحسب ، ولكنها كذلك مكتظة بقوم أذكياء شجعان ، وإن لم تتح لجوليان الفلاح الساذج وسيلة التقرب من رجالها الممتازين ، ولا فرصة مخالطتهم .

أخذ جوليان من فوكيه ثوباً من ثياب الطبقة البرجوازية ، كان يلبسه وهو يعبر الجسور القلابة . وكان يذكر تماماً تاريخ حصار سنة ١٦٧٤ فأراد أن يرى أسوار القلعة قبل أن تُغلق عليه أبواب المدرسة الإكليريكية ، وأوشك أن يقع فى أيدى الحرس مرتين أو ثلاثا ، لأنه دخل أماكن حرمت الأوامر الحربية على الناس أن يدخلوها ، حتى يباع منها فى كل عام حشائش باثنى عشر أو خمسة عشر فرنكا . وشغل ساعات برؤية الأسوار المرتفعة ، والحفر العميقة والمدافع الضخمة المزعجة . وكان لا يزال يفكر

فى هذا كله وهو يمر أمام المقهى الكبير فى الشارع الرئيسى ، وأعجب بما رأى ، ثم وقف حائراً دهشاً حين قرأ كلمة المقهى التى كتبت بحروف كبيرة فى أعلى البابين ولكنه لم يصدق عينه . وأخيراً تغلّب على حيائه ، ودخل إلى حيث رأى بهواً طويلا يبلغ ثلاثين خطوة أو أربعين ، عليه سقف يرتفع إلى عشرين قدماً على لأقل . وكان چوليان فى ذلك اليوم لا يرى شيئاً إلا أعجب به .

احتشد حول منضدتين « للبلياردو » جمع عظيم ، والندل يصيحون بالأعداد فى كل مرّة يفوز فيها أحد اللاعبين من الذين يهرولون حول المنضدتين ، وحولهم لفيف من المتفرجين . وتصاعدت حلقات متتابعة من الدخان من أفواه الحاضرين ، فعقدت حولهم سحابة زرقاء . وأثار انتباه چوليان قامات هؤلاء الرجال وأكتافهم المستديرة وخطواتهم الثقيلة وشعرهم الغزير المتدلى على وجوههم وثيابهم الطويلة التى تسبغ على الأجسام ، وكان كل شىء يثير انتباه چوليان ؛ هؤلاء الشرفاء أبناء بيزانسون القديمة العريقة الذين لا يتكلمون إلا صائحين ، يسبغون على أنفسهم هيئة المحار بين الأمجاد . وعجب چوليان بما رأى وهو فى مكانه لا يريم ، أخذ يفكر فى ضخامة العاصمة وروعتها المجيدة . ولم تواته الشجاعة ليطلب فنجاناً من القهوة من أحد السادة ذوى النظرات المتكبرة والذين يصيحون معلنين أعداد البلياردو .

ولكن الآنسة التى عهد إليها بالوقوف خلف « بنك » المقهى رأت وجه هذا الريفى الجميل البرجوازى المظهر ، وهو على بعد ثلاث خطوات

من المدفأة ، يحمل تحت ذراعه صرّة صغيرة ، مستغرقاً فى تأمل تمثال نصفىّ للملك ، صنع من الجص الأبيض الجميل . والآنسة من مقاطعة فرانس كونتى ، فارعة القامة متسقة الجسم ، أُحسن اختيارها لتحبب المقهى إلى الرواد . فنادت چوليان مرتين بصوت خفيض ؛ لـكيلا يسمعها سواه قائلة : سيدى ! سيدى !

والتفت إليها فصادفت عيناه عينين زرقاوين كبيرتين ، يشع منهما حنان ورقة ، وعلم أنه هو المقصود بالنداء . فسار نحوها مسرعاً واقترب من « البنك » مهرولا كأنه يسير للقاء عدو ، فسقطت لسرعته الصرّة التى يحملها .

ولو أن طلاب المدارس الثانوية الپاريسيين رأوا هذا الريفى لأشفقوا عليه لأنهم يحسنون دخول المقاهى بطريقة ممتازة وهم فى الخامسة عشرة من العمر ! لـكن هؤلاء الأطفال المتازين فى هذه السنّ لا يكادون يبلغون الثامنة عشرة حتى يصبحوا عاديّين . والحياء الشديد الذى تراه فى الريف يتغلب عليه أحياناً ويحمل على أن يُشتهى .

كان چوليان يقترب من تلك الفتاة الجميلة التى تفضلت عليه بالحديث ، وهو عازم على أن يخبرها بالحقيقة بعد أن خلع عذار الحياء .

فخاطبها قائلا :

— سيدتى ، جئت إلى بيزانسون اليوم لأول مرة فى حياتى وأريد خبزاً وفنجان قهوة ، وسأدفع الثمن .

فابتسمت الآنسة قليلا ، ثم اصطبغ وجهها بالحمرة ، لأنها خشيت

أن ينتبه لاعبو « البلياردو » إلى هذا الشاب الجميل فيعبثوا به ساخرين ، فينصرف ولا يعود . فأشارت إلى منضدة من الرخام يكاد يخفيها «البنك» الكبير الذى اتخذ من خشب الكابلى وشغل جزءاً من القاعة ، وقالت له :

— اجلس هنا .

ولما تمايلت الآنسة خارج البنك ، ظهر قوامها الفارع الرائع . ورآها جوليان فتغيرت آراؤه . ثم وضعت أمامه قدحاً وسكراً وخبزاً . وترددت طويلا فى مناداة الخادم ليصب له القهوة ، لأنها تعلم أن وجوده يحول بينها وبين أن تخلو به .

فكر موازناً بين جمالها الأشقر المرح ، وبين ذكريات كثيراً ماهزت مشاعره . وسيطرت عليه فكرة الحب الذى لقيه من قبل ، فنزعت من نفسه ما فطرت عليه من حياء وخجل . ولم يكن أمام الآنسة الجميلة إلا لحظة قصيرة ، فقرأت فى نظرات جوليان ما يدور بنفسه . ثم قالت :

— إن دخان «الشبكات» يجلب لك السعال ، فتعال غداً فى الصباح قبل الساعة الثامنة لتتناول الفطور ، وسأكون وحدى تقريباً فى هذا الميعاد . فابتسم جوليان ابتسامة لطيفة تفيض بالحياء السعيد ، وقال :

— ما اسمك ؟

— أماندا بينيه .

— أتسمحين أن أرسل إليك بعد ساعة صرة صغيرة كهذه التى أحملها ؟

ففكرت أماندا الجميلة قليلا قبل أن تقول :

— بعض العيون ساهرة عليّ : وما تطلبه الآن قد يعرضنى لقيل وقال ؛ ومع ذلك فسأكتب عنوانى على بطاقة تضعها فوق الصرّة التى تريد إرسالها ، ثم افعل ولا تبال بشىء .

— أنا چوليان سورل ؛ ولا أقارب لى ولا معارف فى بيزانسون .

— آه ! أدركت الآن ، أجئت لتلحق بمدرسة الحقوق ؟

— وا أسفاه ! بل أرسلونى لأدخل المدرسة الإكليريكية .

فارتسمت على وجه أماندا علامات يأس أليم ، ثم نادت الخادم .

ها قد عادت إليها شجاعتها الآن . وصب الخادم القهوة فى قدح چوليان دون أن يلقى عليه نظرة .

وشغلت أماندا خلف « البنك » بأخذ النقود ، وكان چوليان فخوراً بنفسه ، لأنه جرؤ على أن يتحدث إلى هذه الفتاة الجميلة : وفى هذه اللحظة نشب حول منضدة من مناضد البلياردو شجار . وكانت القاعة تدوّى بصيحات اللاعبين وتكذيب بعضهم بعضاً ، فذهل چوليان ذهولا شديداً . أما أماندا فكانت تفكر حالمة ، وقد غضت من بصرها .

فقال چوليان فجاءة فى ثقة وعزم :

— إن شئت يا آنستى زعمت أننى ابن عمك .

فأعجبت بما فى نبراته من معانى السيطرة ، وقالت فى نفسها : ليس هذا الشاب تافهاً كغيره من الشبان . ثم قالت فى عجلة دون أن تنظر إليه ، لأن عينيها تراقب ما إذا كان أحد يقترب من « البنك » :

— أنا من چنليس الواقعة على مقربة من ديچون ، فادع أنك من چنليس كذلك وأنك ابن عم أمى .

— لك ذلك .

— إن تلاميذ المدرسة الإكليريكية يمرّون أمام المقهى فى الساعة الخامسة من أيام الخميس أثناء الصيف .

— إذا كنت تفكرين فىّ فاحملى فى يدك باقة من البنفسج حين أمرّ من هنا .

فنظرت إليه أماندا فى دهشة ؛ وحولت هذه النظرة شجاعته إلى جرأة عظيمة ، ومع ذلك فإن وجهه احمر من الخجل وهو يقول :

— إننى أشعر بأننى أحببتك حباً عنيفاً .

فقالت وهى مرتاعة :

— تكلم بصوتٍ خافت .

ذكر چوليان أنه قرأ شيئاً من جزء فريد فى كتاب هيلويز الجديدة حين وجده فى ڤرجى . فاستعان بذاكرته على استعادة ما قرأ ، ولبث عشر دقائق يسمع أماندا الجميلة دون أن تخونه الذاكرة ، ولشدّ ما كانت مرتاحة إلى ما تسمع ، ولشدّ ما كان هو سعيداً بشجاعته وجرأته . ثم تبدل محيّا وجهها الجميل فجاءة وعلاه فتور شامل ، وذلك لأن أحد عشاقها ظهر عند الباب : ثم اقترب من « البنك » وهو يصفر ، هازّا كتفيه ونظر إلى چوليان فظن بطلنا أنه يسخر منه حتى بدا له أن يبارز الرجل ، لأنه ذو خيال من طبعه المغالاة والمبالغة فى كل مايعالج من أمر ، وعلاه شحوب ،

ثم نحّى القدح بعيداً عنه ، واتخذ هيئة الواثق بنفسه ، وهو ينظر إلى غريمه فى انتباه شديد . أحنى الغريم رأسه على البنك وصبّ فوقه كأساً بطريقة ودّية لا تكلف فيها ، فانتهزت أماندا هذه الفرصة ونظرت إلى جوليان تأمره أن يغضّ من بصره . فامتثل و بقى دقيقتين فى مكانه لا يتحرك لكنه شاحب ، تبدو عليه دلائل العزم ، لا يفكر إلا فيما سيحدث . وكم كان رائعاً فى هذه اللحظة ! عجب الغريم من نظرات جوليان إليه وجرع كأسه دفعة واحدة ثم قال لأماندا كلمة ، ووضع يديه فى الجيبين الجانبين « لردنجوته » السميك ، سائراً نحو إحدى مناضد البليياردو ، وهو يهمس بكلمات و ينظر إلى جوليان . فوقف هذا غاضباً ، لكنه لم يعرف كيف يكون وقحاً . ووضع صرته ثم سار إلى منضدة « البليياردو » متبختراً على قدر ما يستطيع .

وهنالك ثاب إليه رشده فقال : لو أنى بارزته عقب وصولى إلى بيزانسون فعلى مهنتى الكنسية السلام . ثم عاد فقال :

— ليكن ذلك ، ولا يقال : إننى تحمّلت إهانة رجل وقح .

رأت أماندا شجاعته التى تتعارض مع سذاجته ، فسرعان ما فضلته على ذلك الشاب الطويل الذى يلبس « الردنجوت » . فنهضت مسرعة حتى وقفت بين جوليان و بين المنضدة ، وهى تتصنع النظر إلى الخارج كأنها تتبع ببصرها إنساناً فى الشارع . ثم قالت له :

— احذر أن تنظر إلى هذا السيد نظرة تحدّ أو احتقار فإنه صهرنا

— وماذا يعنيني ؟ لقد نظر إلىّ هو .

— أتريد أن تكون سبباً في شقائي ؟ لا شكّ في أنه نظر إليك ، وربما عاد إليك ليحدثك ؛ لأنني أخبرته أنك قريب أمي وقد هبطت من جنليس . أما هو فمن مقاطعة فرانش كونتي ولم يذهب بعيداً عن « دول » التي هي في طريق بورجونيا ؛ وعلى هذا فقل ما تشاء ولا تخش شيئاً .

فتردد چوليان قليلا ، على حين استطردت هي في سرعة تحذقها مثيلاتها في المهنة ، لأن الخيال يسعفهن بأكاذيب لا حدّ لها :

— لا شكّ في أنه نظر إليك ، وكان ذلك في اللحظة التي سألني فيها عنك ؛ إنه رقيق الحاشية مع جميع الناس ، ولم يقصد إهانتك إطلاقاً .

كانت عينا چوليان لا تكفّان عن متابعة الصهر المزعوم ؛ فرآه يشتري رقماً في لعبة البولة وهي ضرب من ألعاب البليارد ، وسمعه يقول بصوته الأجش الغليظ مهدّدا : لك الويل ! فمرّ سريعاً خلف الآنسة أماندا وخطا نحو « البلياردو » خطوة ، فأمسكته هي من ذراعه قائلة :

— تعال ادفع أولا ثمن ما طلبت .

فقال في نفسه : إنها على صواب ؛ لعلها تخشى أن أغادر المقهى ، دون أن أدفع الحساب . وكانت أماندا بدورها ظاهرة الاضطراب . تكسو ووجهها حمرة ملتهبة ، وقد تمهّلت كثيراً وهي تعيد إليه باقي نقوده ، وتقول في صوت منخفض :

— أخرج حالا وإلا أعرضت عن حبك ؛ أخرج فأنا أحبك حباً جماً .

أطاع أمرها لكنه خرج فى بطء ثقيل وهو يحدث نفسه : أليس من واجبى أن أذهب لأنظر بدورى إلى هذا الوقح البذىء ثم أصفعه ؟

وحملته هذه الفكرة على البقاء ساعة فى الشارع أمام المقهى ينتظر خروج هذا الشاب ، فلم يره يغادر المقهى فابتعد سائراً فى طريقه . وهكذا أصاب چوليان شىء من الخزى قبل أن تمرّ عليه فى بيزانسون بضع ساعات . وكان الضابط الجراح العجوز قد علّمه دروساً فى المبارزة بالسيف — وإن كان مصاباً دائماً بمرض النقرس — فكانت هى كلّ عدته إذا غضب . لم يكن يعرف طريقة سواها وسوى الصفع ، ولو كان يعلم ثالثة ما وقع فيما وقع فيه من الارتباك ، ولو أنه لا كم غريمه لقهره الغريم ، وجعل منه سخرية للناس لأنه رجل ضخم .

ثم قال فى نفسه : لست أنا إلا شخصاً فقيراً لا عضد له فى المدينة ، فالمدرسة إذن والسجن عندى سواء . يجب أن أضع ملابسى البرجوازية هذه فى نزل وأرتدى الملابس السوداء وعلى أن ألبس الأولى إذا خرجت من المدرسة ساعة من زمن لأقابل بها الآنسة أماندا . وكان تفكيراً سليما جميلا ، لكنه مرّ بجميع فنادق المدينة ولم يجرؤ على دخول واحد منها .

ثم سار مرة أخرى أمام فندق السفراء فالتقت عيناه الحائرتان بعينى امرأة بدينة لا تزال شابة ، وضاحة اللون ، عليها علامات السعادة والمرح

فاقترب منها وقصّ عليها قصصه . فقالت صاحبة فندق السفراء :

— لا ريب أننى سأحتفظ بملابسك البرچوازية ، أيها الخورى الشاب الجميل . وسأنظفها كثيراً مما يعلق بها من غبـار ، لأنه لا يجوز فى هذا الوقت أن تترك ملابس الصوف مدة طويلة بدون تنظيف . ثم تناولت مفتاحا وقادته بنفسها إلى غرفة، وطلبت منه أن يكتب مذكرة بما سيتركه، ثم قادته إلى المطبخ وقالت له :

— يا إلهى ما أجملك فى هذه الملابس أيها السيد الخورى سورل ، سأذهب لأحمل لك بنفسى طعاما شهيا . واستطردت فى صوت منخفض : وهذا الطعام لن يكلفك أكثر من فرنك واحد على حين يدفع فيه غيرك فرنـكين ونصفاً وبضعا . يجب ألاّ نرهق مالك القليل . فأجابها فى كبر كثير :

— معى عشرة لويسات . فارتاعت وقالت :

— آه ! يا إلهى ، لا ترفع صوتك هكذا ففى بيزانسون كثير من السفلة . وهم على استعداد ليسرقوا منك مالك فى لمحة العين . لا تتردّد على المقاهى لأنها مليئة بالرعاع .

وأثارت كلماتها تفـكيره فسألها .

— أحقّا ما تقولين !

— تعال إلىّ دائما وسأقدم إليك القهوة . ولا تنس أبدا أن هنـا صديقة وطعاما شهيّا بفرنك واحد ، بهذا أعدك فأرجو أن تجيب رجائى .

هيّا اجلس إلى المائدة لأقدم لك الطعام بنفسى .

— أنا لا أشتهى الطعام لأننى جدّ مضطرب . سأدخل المدرسة توّا بعـد أن أفارقك .

ولم تتركه هذه المرأه الطيبة يغادر فندقها إلا وجيوبه مليئة بالطعام . ثم اتجه أخيرا إلى المـكان المخيف ، وصاحبة الفندق واقفة بالباب ترشده إلى طريق المدرسة .

الفصل الخامس والعشرون

المدرسة الاكليريكية

[ست وثلاثون وثلثمائة وجبة غداء ، ثمن كل منها ثلاثة وثمانون سنتيما . وست وثلاثون وثلثمائة وجبة عشاء، ثمن كل منها ثمانية وثلاثون سنتيما ، وشوكولاته لمن له الحق ، فما الربح فى هذه المناقصة ؟] .

فالنو البيزانسونى

رأى چوليان الصليب الحديدى المذهّب من بعد قائما على باب المدرسة ؛ فاقترب منه فى بطء ؛ وساقاه لا تقويان على حمله . ثم قال : ها أنذا أرى الجحيم أمامى ولن أستطيع منه فكاكا ! وأخيرا واتته الشجاعة فدقّ الجرس . فرنّ صداه كأنه يدقّ فى القفار . ومرت عشر دقائق قبل أن يأتى رجل شاحب ، عليه ثياب سود ليفتح له الباب . نظر إليه چوليان ثم سرعان ما غض من بصره . لقد كانت هيئة البواب عجيبة : عينان جاحظتان خضراوان مستديرتان كأنهما عينا قط ، وجفنان مستديران لا يكادان يطرفان ، منظر لا يدفع إلى الشعور بمودة أو حبّ ، أما الشفتان فرقيقتان ممتدتان فى نصف دائرة فوق الأسنان البارزة . وهيئة الرجل لا تدلّ على الإجرام ، وإن بعثت فى نفوس الشباب رعباً خلقته بلادة حسه المطلقة . والعاطفة الوحيدة التى أحسَّها چوليان حين ألقى نظرة سريعة على هذا الوجه الطويل الورع ، هى عاطفة الاحتقار الشديد لكل ما يتحدث

إليه فيه ما لم يتناول الحديث أمورا دينية عليا .

ثم رفع بصره بعد محاولة شاقة ، وأخبر الرجل فى صوت مضطرب ، لجلجلته دقات قلبه الشديدة ، بأنه يريد مقابلة السيد پيرار مدير المدرسة . ولم يجبه الرجل ، بل أشار إليه أن يتبعه . وصعدا طبقتين بسلم كبير ، حاجزه خشبى ، ودرجاته مهدمة كأنها تتداعى للسقوط من الناحية التى تقابل الحائط. وفتح باب صغير عليه صليب كبير كصلبان المقابر ، باب من الخشب الأبيض الذى دهن باللون الأسود ، فتح بصعوبة وأدخل البواب جوليان إلى غرفة مظلمة واطئة السقف ، مجصصة الجدران ، تزينها صورتان كبيرتان عليهما غبار الزمن . و بقى جوليان فيها وحده ، منقبض النفس ، سريع دقات القلب ، حتى ودّ لو استطاع البكاء ؛ ليخفف عن نفسه انقباضها بين صمت هذا المكان الرهيب .

مضى ربع ساعة يكاد يكون يوما ، قبل أن يظهر البواب بوجهه الكئيب على عتبة باب فى الناحية الأخرى من الغرفة ، وأشار إلى جوليان أن يتقدم ، ولم يتفضل عليه بكلمة . فدخل غرفة أكبر من الأولى ولكنها شبه مظلمة ، جدرانها مطلية بالجير أيضا ولكنها عارية من الأثاث . ورأى وهو يسير فيها سريرا من الخشب الأبيض وكرسيين من القش ومقعدا صغيرا من خشب الصنوبر ليس عليه حشية . وفى الطرف الآخر من الغرفة — على مقربة من نافذة صغيرة ، صفراء الزجاج ، عليها زهريات قذرة — رأى جوليان رجلا جالسا إلى منضدة ، وعليه ثوب ممزق من ثياب الكهنة ؛ يبدو عليه الغضب ، وأمامه مجموعة من الأوراق المربّعة ،

يتناول منها الواحدة بعد الأخرى ليكتب عليها كلمات ، ثم يرصها على المنضدة ، لم ينتبه الرجل إلى وجود چوليان الذى ظلّ واقفا وسط القاعة لايتحرك ، وقد تركه البواب وخرج ثم أغلق عليهما الباب.

وظلا كذلك عشر دقائق لأن ذا الملابس الممزقة مكبّ على الكتابة. وچوليان بادى الذعر والتأثر حتى خيّل إليه أنه سيسقط على الأرض . قال فيلسوف : إنه الأثر الشديد للقبح فى نفس فطرت على عشق الجمال . وربما كان محطئا فيما قال .

رفع الرجل رأسه ؛ فلم ينتبه چوليان إليه إلا بعد لحظات . و بعد أن تبيّن له أنه ينظر إليه ظلّ جامدا فى مكانه كأنه تمثال . وذعر من نظراته القاسية ؛ وتبيّنت عيناه الزائغتان وجها طو يلا تنتثر فيه بقع حمراء لاتصل إلى جبهته الشاحبة . و بين الخدود الحمراء والجبهة البيضاء عينان صغيرتان سوداوان خلقتا لتبعثا الرعب فى أشد القلوب ، وفوق جبهته العريضة شعر غزير ناعم ، لونه كلون حجر أسود لمّاع . ولما نفد صبر الرجل صاح به :

— أتريد أن تقترب منى أم لا تريد ؟

فتقدّم بخطوات مرتبكة ، والوجه شاحب ، والقوى خائرة والرعب شديد ، لم يستول عليه مثله طول حياته . ووقف على بعد ثلاث خطوات من المائدة الخشبية الصغيرة البيضاء التى تغطيها الأوراق المربعة . فقال له الرجل :

— اقترب أكثر .

فاقترب مادّا يده كأنه يتحسس شيئا يستند إليه .

— ما اسمك ؟

— جوليان سورل .

فنظر إليه نظرة مخيفة وقال :

— تأخرت كثيرا فى الحضور .

فلم يقو على تحمل النظرة ؛ ومدّ يده كمن يستند إلى شىء فسقط على الأرض . ودقّ الرجل الجرس ؛ فسمع جوليان خطوات تقترب ؛ لأنه لم يفقد فى غشيته إلاّ قدرته على الإبصار وقوته على الحركة .

وأُنهض ثم أُجلس فوق المقعد الخشبي الأبيض . وسمع ذلك الرجل القاسى يقول للبواب :

— لقد خرّ ساقطا بدون سبب ، لقد كلت السخرية !

ولما استطاع جوليان أن يفتح عينيه ، كان هذا الرجل ذو الوجه الأحمر مكبّا على الكتابة ، أما البواب فلم يكن موجودا . فأخذ بطلنا يقول فى نفسه : علىّ أن أتشجع وأن أحاول إخفاء ما أحسّه . كان يشعر بحاجة ملحة إلى القىء ، وإذا غلبت على أمرى فيعلم الله ما يقال عنى ، وسيظنون بى الظنون . وأخيرا توقف الرجل عن الكتابة ، ونظر إليه نظرة جانبية وسأله :

— هل تستطيع أن تجيبنى !

— نعم يا سيدى . وقالها بصوت ضعيف .

— آه ! حسنا إذاً .

وهمّ بالوقوف وأخذ يبحث بصبر نافد عن خطاب فى درج المنضدة المتخذة من خشب الصنوبر ، والتى إذا فتح درجها أحدث صريرا ، ولما

عثر عليه، جلس فى بطء شديد وهو ينظر إلى جوليان من جديد كأنه يريد أن ينتزع من بين جانبيه ما بقى من حياته وهو قدر ضئيل . ثم قال له :

— لقد أوصانى بك السيد شيلان خيراً ، والسيد شيلان كان أحسن خورىّ فى الأسقفية كلها ، رجل فاضل وصديق قديم منذ ثلاثين عاما .

فقال جوليان فى صوت ضعيف هامس :

— آه ! (أترانى اشرف الآن بالتحدث إلى السيد پيرار) ؟

فأجاب مدير المدرسة وهو ينظر إليه غاضباً :

— يظهر ذلك .

وازداد بريق عينى ذلك المدير ، وتحركت عضلات فمه من جانبيه حركة غير إرادية ، كأنه نمر يداعبه السرور، قبل أن ينشب أنيابه فى الفريسة. ثم قال بصوت خفيض كأنه يحدث نفسه :

— خطاب شيلان موجز ، والإيجاز خير من الإطناب عند الحكماء ، وقليل ما هم :

والناس فى عصرنا لا يعرفون أن يوجزوا . وقرأ بصوت مسموع :

« أقدم إليك جوليان سورل . وهو من هذه الرعيّة ؛ وقد عمدته أنا ؛ وعما قريب سيمضى على تعميده عشرون عاماً . إنه ابن نجار غنى ولكن أباه لا يعينه بشىء ، وسيكون جوليان من خير خدام الكنيسة ؛ قوىّ الذاكرة ، حاد الذكاء ، كثير التأمل الروحى . فهل يبقى له استعداده هذا ؟ وهل هو استعداد صادق ؟ »

— صادق !! وكرّر الأب پيرار هذه الكلمة فى عجب ودهشة وهو

ينظر إلى جوليان ؛ لكن نظراته هذه المرة كانت أقل وحشية وقسوة ، ثم خفض صوته ليقول ثانياً :

— صادق ! ثم تابع قراءة الخطاب :

« أطلب إليك أن ترتب معاشاً لجوليان رسول . وسترى أنه يستحقه حين يؤدى الامتحان اللازم . لقد علمته طرفاً من علم اللاهوت القديم الرفيع ، كما تناوله تلاميذ بوسويه وأرنولد وفلورى . وإن كنت لا ترضى عن علمه فى هذه الناحية فأعد جوليان إلىّ ؛ فإن مدير الصدقات الذى تعرفه حق المعرفة ، يعرض عليه أن يعلم أولاده بأجر قدره ثمانمائة فرنك . أحمد الله على أننى طاهر الضمير ، قد عوّدت نفسى على احتمال الشدائد . وداعاً ، وأتمنى لك العافية . »

ثم خفض الأب پيرار صوته وهو يقرأ توقيع الأب شيلان وتنهد وهو ينطق باسم « شيلان » ثم قال :

— إنه هادىء النفس ، وفضائله جديرة حقاً بهذه المكافأة ، لشدّ ما أود أن يمنّ الله علىّ بهذه النعمة الكبيرة !

ثم نظر إلى السماء ورسم الصليب . ورأى جوليان هذه العلاقة المقدسة ، فقلّ اشمئزاز نفسه من هذا المكان . وأخيراً قال الأب پيرار فى صوت شديد لكنه غير قاس :

— إن عندى هنا واحداً وعشرين وثلثمائة طالب يريدون جميعاً أن يهبوا أنفسهم للكنيسة ؛ وبين هذا العدد الكبير سبعة أو ثمانية ، أوصانى بهم بعض زملائى من أمثال الأب شيلان ، وستكون أنت التاسع .

ولكن حمايتى لك أو لغيرك ليست مجاملة أو ضعفاً ، وإنما هى مضاعفة العناية ومحاربة الرذائل فى النفوس . اذهب وأغلق الباب بالمفتاح .

فبذل جوليان مجهوداً كبيراً حتى لا يسقط وهو يسير ، وقد أفلح . ثم رأى بجوار الباب نافذة صغيرة تطلّ على الريف ، فأخذ ينظر منها إلى الأشجار . ولقد أفاده ما فعل ، كأنما التقى بأصدقائه القدماء .

ولما رجع سأله الأب پيرار :

— أتتكلم اللاتينية ؟

— نعم أيها الأب الكريم .

وعاوده اطمئنانه ، وإن رأى الأب پيررا قبل ذلك بنصف ساعة أقسى رجل على ظهر البسيطة .

واستمرّ الحديث بينهما باللغة اللاتينية . وأخذت نظرات الكاهن پيرار تهدأ قليلا قليلا ، وتذرع جوليان بالاطمئنان والهدوء وأخذ يقول فى نفسه : يالى من ضعيف ! لقد أثرت فىّ مظاهر التقوى ، ومن يدرينى لعل هذا الرجل لص كالسيد مالون تماما . وهنأ نفسه حين ذكر أنه خبّأ فى حذائه نقوده كلها على وجه التقريب .

أخذ الأب پيرار يوجّه إليه أسئلة فى علم اللاهوت . وقد عجب لما رأى من غزير علمه ؛ وزاد عجبه حين سأله عن الأسفار الآلهية . لكنه ما كاد يصل إلى نظرية آباء الكنيسة حتى رأى أن جوليان يجهل حتى أسماء القديسين جيروم وأوجستان دون اقنتير و بازيل ومن إليهم .

فتحدث الأب إلى نفسه قائلا : هذه هى الناحية التى كثيراً ما لمت

عليها الأب شيلان ، إنه ينزع فى ذلك إلى البروتستنتية . وتلميذه غزير العلم ذو دراية كبيرة بالأسفار المقدسة .

(أخذ جوليان يتحدث إليه من تلقاء نفسه عن هذا الموضوع ، ويشير إلى الزمن الحقيقى الذى كتب فيه سفر التكوين والأسفار الخمسة . . .)

ثم عاد الأب پيرار يسائل نفسه : لم كلّ هذه المعلومات المفصلة عن الأسفار المقدسة ؟ وما فائدة التفكير فى ذلك ؟ النتيجة الحتمية لهذا هى الاختبار الشخصىّ ، أعنى البروتستنتية المقوتة . وبجانب هذا العلم الشائك الذى تظهر فيه معرفته الواسعة أراه يجهل آباء الكنيسة جهلاً تاماً ، ولو أنه عرفهم لقلّل ذلك من خطورة ميله البروتستنتى .

وبلغ عجب مدير المدرسة حداً كبيراً حين ألقى على جوليان أسئلة حول نفوذ البابا ، فردّد على مسامعه ما قرأه فى كتاب السيد دى متر فى دقة وإطناب بدل أن يشير إلى المبادىء التى تنادى بها الكنيسة الفرنسية القديمة .

فقال پيرار فى نفسه : حقاً إن شيلان رجل عجيب ، هل أطلعه على هذا الكتاب ليعلمّه كيف يسخر منه ؟

وحاول عبثاً أن يتبيّن رأى جوليان فى نظرية دى متر ، فألقى عليه أسئلة عديدة لم يجب عنها الشاب إلا بما وعته ذاكرته . وفى هذه اللحظة شعر بأنّ قواه ثابت إليه جميعها حتى أصبح مسيطراً على نفسه . ثم تبيّن بعدّ هذا الامتحان الطويل أن قسوة الأب پيرار قسوة مصطنعة . وفى الحقّ

أن الأب پيرار ودّ لو قبل چوليان على سلامة منطقه وما رآه فى إجاباته من وضوح ودقة . ودّ هذا من كل قلبه ، لولا أنه فرض على نفسه مظهر القسوة والجدّ والخطورة أمام التلاميذ ، وظلّ كذلك خمسة عشر عاما. ثم قال الأب فى نفسه : نفس هذا الشاب قوية جريئة ، لكنّ جسمه ضعيف . ثم سأل چوليان بالفرنسية مشيراً بأصبعه إلى أرض الغرفة .

— هل حدث لك أن وقعت كثيراً على الأرض ؟

فاحمرّ وجهه خجلا كما تحمرّ وجوه الأطفال ، ثم أجابه :

— بل هى أول مرة فى حياتى ، لقد بعث وجه بواب المدرسة الرعب فى قلبي .

فكاد الأب يبتسم حين سمع ذلك ، وقال :

— هذا أثر المظاهر الخادعة التى رأيتها فى الحياة ؛ لقد اعتدت يابنىّ أن ترى وجوها ضاحكة لكنها تحجب كذبا ورياء . والفضيلة الشاقة عسيرة المنال يا سيدى . ولكن أليست مهمتنا فى هذه الحياة شاقة عسيرة كذلك ؟ علينا أن نحمى ضمائرنا من أن يصيبها الضعف ، فلا تتأثر نفوسنا بالمظاهر الخارجة الخادعة التافهة .

ثم تحدث إليه باللاتينية التى كان يجد فى التكلم بها لذّة ظاهرة وقال : لو لم تأتّ إلى من طرف الأب شيلان لتحدثت إليك باللغة التافهة ، لغة الحياة التى يخيّل إلىّ أنك اعتدتها تماما . وأنا أصارحك بأن الإعانة التى تطلبها بعيدة المنال ، كأصعب شىء فى هذا الوجود . ولكن الأب شيلان خدم الكنيسة ستة وخمسين عاما ، فلا أقلّ من أن يحصل على مكان لتلميذه بالمجّان .

ثم حذّر الأب پيرار چوليان من أن ينتمى إلى جمعية أو هيئة سرية دون أن يقرّه على ذلك .

فتفتح قلب چوليان عن أمانة الرجال وقال :

— أعدك بشرفى ألاّ أفعل ، وأن أنزل دائماً عند رأيك .

فابتسم المدير للمرة الأولى قائلا له :

— كلمة الشرف لا محلّ لها هنا ، إنها تذكرنا بالشرف المزيف ، الذى يتمسك به الناس فى الحياة الدنيا ويقودهم إلى الأخطار الكثيرة بل غالباً ما يدفعهم إلى ارتكاب الجرائم . إن القسم السابع عشر من منشور القديس بيوس الخامس ، يفرض عليك الطاعة المقدسة . وأنا رئيسك الدينى ، وتعاليم المدرسة يا بنى تقضى عليك أن تسمع وتطيع . والآن ، كم تحمل من النقود ؟

فقال چوليان فى نفسه . وصلت الآن إلى الغرض الحقيقى الذى دعانى من أجله بابنه العزيز ، وأجاب المديرَ :

— خمسة وثلاثين فرنكا يا أبى .

— قيدّ فى دقة ما تنفقه من هذا المال مبيّناً وجوه إنفاقه ، لأننى سأحاسبك .

ودامت هذه الجلسة الشاقة ثلاث ساعات ؛ واستدعى چوليان البواب ؛ فقال له ناظر المدرسة :

— اذهب بچوليان سورل إلى الغرفة رقم ١٠٣ .

وكان هذا تشريفاً كبيراً لجوليان أن يقيم وحده فى غرفة خاصة .

ثم استطرد المدير قائلا للبواب :

— واحمل حقيبته إلى الغرفة .

ونظر چوليان فرأى حقيبته أمامه بعد ن ظلّ ينظر إليها ثلاث ساعات دون أن يعرفها .

ثم وصل إلى الغرفة رقم ١٠٣ ، هى غرفة صغيرة مساحتها ثمانى أقدام مربعة ، فى الطبقة العليا ، مطلة على الأسوار ، يرى الناظر فيها السهل الجميل الذى يفصله عن المدينة نهر الدو . ورأى چوليان ذلك فصاح : إنه منظر بديع ! قال ذلك وهو لا يعى ما ترمى إليه كلماته ، لأن المشاعر القوية التى استولت على نفسه فى ذلك الزمن القصير الذى قضاه فى بيزانسون أضعفت قواه إلى حد كبير . ثم جلس إلى النافذة على الكرسى الخشبى المنفرد ونام نوماً عميقاً . حتى إنه لم يسمع دقات جرس العشاء ، ولا دقات جرس الصلاة ، وكان كل من فى المدرسة قد نسى وجوده .

وأيقظته شمس الصباح التالى بأشعتها الأولى ، فألفى نفسه ممتداً على أرض الغرفة .

الفصل السادس والعشرون

العالم أو ما يفتقر إليه الغنى

[أعيش وحدى فوق ظهر الأرض ، لا يهتم إنسان بأن يفكر فى . وكل الذين أراهم يجمعون المال ذوو قحة وقسوة لاتجد سبيلا إلى قلبى . إنهم يكرهوننى لطيبة فطرت عليها . آه ! سأموت عما قريب من الجوع أو من الحزن ، وذلك لما أراه من قسوة الرجال] .

يونغ

أسرع چوليان فنظّف ثيابه ثم نزل على عجل لأنه تأخر . فلامه معلم مساعد لوما عنيفا ؛ ولم يحاول چوليان أن يدلل على براءته بل وضع يديه على صدره قائلا باللاتينية فى تواضع وذلة :

— لقد أذنبت ، وإنى معترف بخطئ يا أبتاه !

فكان هذا بدءا حسنا . أما النابهون من طلبة المدرسة فقد رأوا أنهم أمام رجل ليس فى حاجة إلى معرفة المبادىء الأولى لهذه المهنة . وحل موعد الراحة فرأى چوليان نفسه موضع استطلاع من كل الزملاء ، لكنهم لاقوا منه حذرا وصمتا . وطبقا للمبادىء التى اختطها لنفسه عدّ من أعدائه جميع زملائه البالغين واحدا وعشرين وثلثمائة ؛ أما الكاهن پيرار فهو أخطرهم جميعا فى نظره .

ومرت أيام قليلة كان على چوليان بعدها أن يختار قسيسا يعترف أمامه ، وقرأ قائمة الأسماء . فقال فى نفسه : يا إلهى ! آه ! هل يظنون أننى

لا أعرف أن الكلام وخيم العواقب ؟ ثم اختار لنفسه الأب پيرار .

وهو لا يدرى أنه يقدم على عمل حاسم . ثم أخبره أحد التلاميذ وهو شاب من مواليد ڤريير ، أظهر له الودّ والصداقة من اليوم الأول — بأن الفطنة كانت تقضى عليه أن يختار السيد كاستانيد نائب المدير ، وهمس فى أذن چوليان قائلا له :

— والأب كاستانيد عدوّ الأب پيرار الذى يتهمونه باتباع تعاليم ينسينيوس .

دلت أعمال جوليان فى الأيام الأولى على حماقة وغفلة ، وذلك كاختياره قسًّا يعترف أمامه ، وإن آمن هو بأنه حذر ، فلم يكتب له التوفيق ، ألا إنما أضلّه زهو كل ذى خيال واسع ، فهو يأخذ نواياه على أنها أفعال ، ويعتقد أنه منافق بارع . وذهب به الجنون إلى حدّ أنه لام نفسه على نجاحه فى هذا الفن من الضعف .

ثم قال فى نفسه : واأسفاه ! هذا هو سلاحى الوحيد ! أما فى وقت آخر فإنى كنت أواجه عدوى بأعمال تعلن عن نفسها لأكسب قوتى .

كان جوليان راضيا عن مسلكه ؛ ونظر حوله فما رأى إلا قشور الفضيلة الكريمة .

وكان بين التلاميذ ثمانية أو عشرة يحيون حياة طهر وقداسة ، ويزعمون أنهم يرون الذات الإلهية كما رأتها القديسة تريزا والقديس فرنسوا ، وهو على جبل ڤرنا فى الأپنين . ولكن هذا كان سرا لايذاع ، فأخفاه أصدقاؤهم . وهؤلاء المساكين الذين يرون الذات الإلهية لا يكادون يبرحون المستشفى .

ثم هناك مائة طالب آخرون يجمعون بين العقيدة المتينة والعمل المتواصل . يعملون كثيرا إلى حدّ أنهم يمرضون ، فلا يكادون يحصّلون شيئا. ثم هناك تلميذان أو ثلاثة وهبوا ذكاء خارقا وعبقرية فذة ، ويدعى أحدهم شازل . ولكن جوليان أخذ على نفسه أن يبتعد عنهم فلم يتقربوا منه .

وأما بقية الواحد والعشرين والثلثمائة من التلاميذ فشبان غلاظ جفاة الطبع ، لا يكادون يدركون معانى الكلمات اللاتينية التى يردّدونها طول النهار . كانوا جميعا على التقريب أبناء الفلاحين ، فضلوا كسب القوت بترديد كلمات لاتينية ، على أن يفلحوا الأرض . ولما رأى جوليان زملاءه ، وكونّ عنهم فكرته هذه منذ أيامه الأولى ، أملّ فى التقدم السريع ، قائلا فى نفسه : كل مصلحة تستلزم الأذكياء ، لأن هناك عملا يؤدى . فلو أننى عاصرت نابليون لكنت جاويشا ، ولكنى سأكون بين هؤلاء الزملاء نائبا أول لأسقف حينما يصبحون هم خوارنة .

واستطرد : هؤلاء البائسون الأجراء منذ الطفولة عاشوا على اللبن الرائب والخبز الأسود إلى أن دخلوا هذه المدرسة ، لا يطعمون اللحوم فى أكواخهم إلا خمس مرات أو ستا فى كل عام . هؤلاء الفلاحون الغلاظ سعداء جدا بما يلقون فى المدرسة من نعيم ، كأنهم الجنود الرومانيون الذين رأوا الحرب راحة ونعيما .

وكان جوليان لا يرى فى عيونهم البليدة النظرات إلاّ رغبة جسمية بعد الغداء ، ولذّة بدنية متوقعة قبل كلّ وجبة . وهؤلاء هم الأشخاص الذين كان يريد هو أن يتفوق عليهم ، وما أرشده قلبه ولا أرشده أحد إلى أنّ السبق فى كل الدروس التى يتلقاها . من عقيدة وتاريخ كنسى

وما إليهما يعدّ فى نظرهم إثما عظيما . فمنذ زمن ڤولتير ومنذ سيطرت على فرنسا حكومة ذات مجلسين ، لا تعدو فى الواقع إلا أن تسير بحذر وتتبع قاعدة الاختبار الشخصى ، وتعلّم الناس منها تلك العادة السيئة وهى الحذر . ويخيل إلينا أنه منذ ذلك الوقت أدركت كنيسة فرنسا أن الكتب هى عدوّها الأصيل . وأصبح خضوع القلوب هو كل ما يعنى الكنيسة . فالنجاح فى الدراسة إذاً أمر يدعو حقا إلى الريبة ، حتى ولو كانت دراسات مقدسة . فمن ذا الذى يحول بين الرجل الممتاز و بين الخروج على الكنيسة كما فعل سيس أو جريجوار(١) ؟ والكنيسة فى فرقها وخشيتها تتمسك بالبابا تمسكا شديدا ، وتعدّه الوسيلة الوحيدة لنجاتها . فالبابا وحده هو الذى يستطيع القضاء على الاختبار الشخصى ، وهو الذى يتمكن من التأثير فى نفوس الناس التى أصابها السأم والمرض ، بما يقيمه فى بلاطه من حفلات دينية رائعة .

علم جوليان عن هذه الحقائق بعض العلم ، وإن كان ما يسمعه فى المدرسة يرمى إلى تكذيب ما أشيع ، فشعر بحزن عميق . اشتغل كثيرا وتعلّم كثيرا فى سرعة كبيرة تفيد القس فائدة جمة ، وإن كان يراها كذبا وبهتانا ولا يعنى بها أقل عناية . ثم اعتقد أن مهمته فى المدرسة لا تتطلب منه شيئا آخر وتنحصر فيما يقوم به .

فقال فى نفسه : هل نسينى أهل الأرض جميعاً ؟ ألم يعد يذكرنى أحد ؟ وذلك لأنه لم يعلم أن الأب بيرار تلقى خطابات عليها خاتم بريد ديجون

(١) انتخب الكاهن جريجوار نائبا عن جرينوبل سنة ١٨١٩ . وكان بيل يقيم بمسقط رأسه وقتذاك حيث توفى والده فى ٢١ يونيو من نفس السنة ، فاشترك فى الانتخابات وانتخب القس جريجوار .   المعرب

فألقاها فى النار ، وكانت هذه الخطابات على الرغم من أسلوبها الرصين البارع ، تفيض منها عواطف حب قوية ، وكان هذا الحب القوى الثائر مشبوبا على ما يظهر بوخزات الضمير . فسرّ الأب پيرار وأخذ يقول : أحمد الله على أن المرأة التى أحبها هذا الشاب ليست كافرة على الأقل .

وفى يوم ، فتح الكاهن پيرار خطابا محت الدموع نصف عباراته ، لأنها دموع وداع أخير ، وكان فيه : وأخيرا منّت علىّ السماء فبعثت فى قلبى الكراهية ، لا كراهية الذى دفعنى إلى ارتكاب الوزر ، لأنه سيظلّ عندى أغلى مخلوق ، بل كراهية الخطيئة نفسها . لقدقمت بالتضحية أيها الصديق العزيز ، لكنها لم تكن سهلة فقد سكبت دموعا غزيرة على ماترى ، مطالبة بسلامة من معى ممن عرفتهم وأحببتهم حبا كثيرا ، وهذا ما حملنى على التضحية العظيمة . وإن الإله العادل المنتقم الجبار ، لن ينتقم منهم بعد ذلك على آثام جنتها أمهم . وداعا ياجوليان ، ولتكن عادلا مع الناس .

كانت خاتمة الخطاب قد محتها الدموع حتى لا تكاد تقرأ . وجعل العنوان فى ديچون ، وإن كان الأمل ضعيفا فى أن يردّ جوليان على الخطاب ، وإذا رد فإنه سيعمد إلى عبارات لاتخجل منها ، حين تراها ، امرأة أعرضت عن الرذيلة وتابت إلى ربها .

كان فريسة للحزن ، وكان الطعام الذى يُقدّم فى المدرسة بطريق المتعهد رديئاً ؛ ثمن وجبة الغذاء منه ثلاثة وثمانون سنتيما فأثّر هذا فى صحته .

صعد ذات صباح إلى غرفته صديقه فوكيه وقال له :

— وأخيراً استطعت الدخول . لقد زرت بيزانسون خمس مرات

لأراك فيها فما كنت أرى فى كل مرة إلا الوجه الخشبى ، و إنساناً رابضاً على الباب ، فياللشيطان ! لماذا تلازم المدرسة هكذا ؟

— هو امتحان فرضته على نفسى .

— لشدّ ما تغيرت ، وهأنذا قد استطعت أن أراك . لقد علمتنى قطعتان جميلتان من ذات خمسة الفرنكات ، أننى لم أكن فى المرات السابقة إلا غراً أحمق ، وكان ينبغى لى أن أقدمهما منذ الرحلة الأولى .

وظلّ الحديث بين الصديقين زمنا طويلا . وتغيّر وجه چوليان حين قال فوكيه :

— ولهذه المناسبة ، أتعرف أن أم تلاميذك قد أصبحت تقية ورعة ؟ وتحدث بهذه اللهجة الطليقة ، وهو لا يعلم أنه يمسّ قلب صديقه مسًّا شديداً ، لأنه تناول أعز الذكريات وأغلاها .

— نعم يا صديقى ، لقد أصبحت ورعة تقية إلى حدّ بعيد ، وسمعت أنها تحجّ كثيراً ، لكنها قد سددت نحو الأب مالون ضربة شديدة وأظهرت له الاحتقار لتجسّسه زمناً طويلا على الأب المسكين شيلان ، فلم ترد أن تعترف أمامه ، وهى تفضل الاعتراف فى بيزانسون أو ديجون .

فالتهب وجه چوليان بالحمرة وسأله :

— أهى تتردّد على بيزانسون ؟ . . . . فأجابه دهشاً كأنه يستفهم :

— تتردد كثيراً .

— أمعك من جريدة الدستور بعض أعدادها ؟

— ماذا تقول ؟ فقال چوليان فى صوت هادىء :

— أسألك عما إذا كان معك بعض أعداد جريدة الدستور ، إنها تباع هنا بفرنك ونصف فرنك .

— ماذا ! وحتى فى هذه المدرسة أحرار ! مسكينة يافرنسا !

قال ذلك بصوت منافق وبلهجة رقيقة عذبة ، كتلك التى يصطنعها الأب مالون حين يتكلم .

وتركت هذه الزيارة فى نفس چوليان أثراً كبيراً ، حتى أنه فى اليوم التالى سمع من مواطنه هذا التلميذ الصغير الذى عدّه چوليان طفلا ، كلمة كشفت له عن شىء خطير : هو أن سلوكه منذ دخل المدرسة كان سلسلة من أعمال زائفة ، فسخر چوليان من نفسه سخرية مرة .

والواقع أنه كان فى حياته المدرسية لايعنى إلا بالأعمال الكبيرة ، فيقوم بها خير قيام ويدبرها فى مهارة ودكاء ، غير عابىء بعد ذلك بالتفاصيل ، على حين كان الماهرون من التلاميذ لا يعنون إلاّ بالتفاصيل . فأصبح لهذا معروفاً بين أصدقائه بالزندقة ، التى دلّوا عليها بكثير من التوافه التى صدرت عنه دون أن ينتبه إليها .

اعتبروه زنديقاً لأنه يفكّر ويحكم على الأشياء بنفسه ، بدلا من أن يتّبع الآثار الدينية اتباعاً أعمى ، ويقتدى بالمثل الصالح ، وذلك إثم عظيم . ولم يمدّ إليه الأب پيرار يد المساعدة فى شىء ، ولم يتحدث إليه مرة واحدة خارج كرسى الاعتراف ، وحتى فى هذا المكان كان يسمع منه أكثر مما يتكلم إليه . ولو أن چوليان اختار الأب كاستانيد لتغير موقفه تماماً .

وأدرك أخيراً ماجرّه عليه حمقه فلم ييأس ، بل حاول أن يعرف مدى

الأذى الذى سيصيبه ، ولكى يحقق خطته ، خرج قليلا من صمته الذى التزمه، والذى صدّ عنه زملاءه فى كبر وعناد . ولما خرج من صمته بدءوا هم ينتقمون منه ، فأعرضوا عنه فى احتقار لمّا تقرب منهم ، وتبيّن أنه كان حديث إخوانه منذ دخل المدرسة ، كان حديثهم طول النهار و بخاصة فى أوقات الراحة ، يذكرونه بالخير ويذكرونه بالشرّ فيزداد أعداؤه أو يدافع عنه بعض الصالحين، أو بعض من هم أقل غلظة وفظاظة . وهنا واجه مهمة شاقة عسيرة ، فقد كان عليه أن يصلح ما أفسده فى الأيام الخوالى ، فزاد انتباهه لكل شىء ، وترقبه كلّ صغيرة وكبيرة ، وأخذ على نفسه أن ينحو نحواً جديداً فى معامله الإخوان ، وأن يتخلّق بخلق جديد .

فكانت نظراته فيما مضى تسبب له المتاعب الكثيرة ، فأدرك الحكمة فى غضّ الطرف فى هذه الأماكن الدينية . وقال فى نفسه : لشدّ ما كنت مخدوعاً وأنا فى ڤرييرا ! كنت أعتقد أننى عرفت الحياة ، ولكنى كنت لا أزال أعدّ لها العدة ؛ فهأنذا أعيش فى الدنيا يحيط بى الأعداء الحقيقيون. كم كانت حياةً شاقة تلك التى ما مرّت على لحظة فيها إلاّ وأنا منافق ! إنه جهد شاق ينوء به هرقل . إن سكست الخامس هو هرقل العصر الحديث ، ظلّ خمسة عشر عاماً متوالية يخدع ببساطته وخضوعه أربعين كردينا لا عرفوه فى شبابه مفطوراً على الدأب والتعالى والنشاط .

ثم قال فى مرارة : لا قيمة هنا للعلم ! وتقدم المرء فى العقيدة والتاريخ المقدّس وما إليهما ، ليس له إلا قيمة ظاهرية تافهة . وكلّ ما يقال فى هذا الصدد شباك ينصبونها لأمثالى من الحمقى .. وا أسفاه ! لقد كانت ميزتى

الوحيدة فى تقدمى السريع ، وفى حفظ ما نتعلمه من هذيان . ولكن هل يأخذون هذا الهذر مأخذ الجد أو يحكمون عليه كما أراه ؟ كنت غراً حين افتخرت بهذه الميزة ! ولم يجلب علىّ تقدمى إلا أعداء ألدّاء . فشازل وإن كان أكثر منى علماً يكتب فى أوراق الامتحان ما يدلّ على البلادة والبلاهة ، فيحتلّ المكان الخامس : وإذا وقع له أن يحتلّ المكان الأول فى الترتيب فذلك سهو منه وشىء لا يقصد إليه . . . آه ! كلمة واحدة ؛ نعم كلمة واحدة من الأب پيرار ، تنفعنى كثيراً .

ومنذ أن تفتحت عينا جوليان أضحت فروض الزهد والتقوى خير ساعاته وأحبها إلى قلبه ، بعد أن كانت ثقيلة الوطأة على نفسه من قبل ، يستولى عليه السأم سريعاً من المسبحة التى يتناولها خمس مرات فى الأسبوع ، والترتيل فى القلب المقدس وما إلى ذلك . كان يفكر فى مسلكه تفكيراً صارماً ، ويحاول ألاّ يغالى فى الطرق التى يتبعها ، لكنه لم يكن يطمع أول الأمر فى أن يكون كزملائه الذين يُتخذون مثلا يحتذى ، لم يكن يطمع أن يقوم بأعمال مجيـدة ، بأن يتقن نوعاً من التعاليم الدينية النصرانية . فيأكل بيضة مسلوقة غير كاملة النضج ، على العادة المتبعة فى المدرسة مع من يظهر تقدماً فى مجال الورع .

قد يبتسم القارىء ولكن ليذكر كل الأخطاء التى وقع فيها الأب ديلميل وهو يأكل بيضة ، حين دعى للغداء على مائدة سيدة كبيرة من بلاط لويس السادس عشر .

حاول جوليان أول الأمر ألاّ يقع فى الإثم ، وهذه حالة طالب المدرسة

الأكليريكية الذى ينبغى له أن يكون مسلكه وحركات ذراعيه وعينيه لا تمت إلى الحياة الدنيوية بسبب ، وهذا لا يعنى أنه قد أقبل على الآخرة تماماً وآمن بأن الدنيا فناء وزوال .

وكان يرى على جدران ممرات المدرسة عبارات كُتبت بالفحم جاء فيها : ما قيمة ستين عاماً يقضيها المرء فى محنة ، إذا قيست بالنعيم الأبدىّ فى الجنة، أو المهل المغلى فى الجحيم ! فأصبح لا يشمئز من مثل هذه العبارات وأدرك أنّ عليه أن يذكرها أبداً . وساءل نفسه : ماذا أعمل طول حياتى ؟ سأبيع للمؤمنين دائماً أماكن فى الجنة . ولكن كيف السبيل إلى أن أريهم المكان مع اختلاف ما بينى و بينهم فى المظهر الخارجى ؟

وقضى شهوراً وهو مثابر ، يبدو عليه أنه ما زال « يفكّر » . وطريقته فى تحريك عينيه وفمه لا تدلّ على الإيمان الذى تنطوى عليه أعماله الدينية ، ولا تحمل على أنه يؤمن بكل شىء و يسلم بكل شىء ، حتى لو لقى فى ذلك العذاب . وكان يغضب غضباً كبيراً حين يرى الفلاحين الغلاظ يفوقونه فى ذلك، مع أن هناك أسباباً كثيرة تحملهم على ألاّ يكونوا مفكرين .

لقد بذل جهداً جبّاراً فى أن يظهر بالمظهر الذى يدلّ على عقيدة ملتهبة وطاعة عمياء ، ويدعو إلى الإيمان بكل شىء ، وتحمل العذاب فى سبيل الدين ، مظهر نراه كثيراً فى أديرة إيطاليا، وصوّره لنا جرشان تصويراً بديعاً فى نماذجه الكنسية .

وفى الأعياد الكبيرة يعطى تلاميذ المدرسة النقانق والكرنب . وقد

لحظ جيران چوليان على المائدة أنه لا يهتم بهذا النعيم ! فأخذوا عليه ذلك وعدّوه من أكبر ذنوبه. أما أصدقاؤه فعدّوه لوناً كريهاً من ألوان النفاق، وكان إعراضه عن الطعام الشهىّ سبباً فى زيادة أعدائه ، فقد أخذوا يقولون : أنظروا إلى هذا البرجوازى ، أنظروا إلى هذا المتكبر الذى يزدرى خير زاد يقدّم إلينا ! إنه يعرض عن النقانق والكرنب ! فياله من لعين! و ياله من متكبر ! و ياله من هالك أثيم !

و بلغ به الأمر أنه كان يصيح فى ساعات قنوطه : وا أسفاه ! إن جهل أصدقائى من أولئك الريفيين ميزة كبيرة لهم . فالمعلم غير محتاج إلى أن يخلصهم ساعة وصولهم إلى المدرسة ، من الآراء الدنيوية الكثيرة ، التى تملأ رأس مثلى ، والتى تظهر فى وضوح على وجهى مهما حاولت أن أخفيها .

وأنعم النظر فى الفلاحين الأجلاف ، الذين يفدون على المدرسة ، وأعارهم انتباهاً يقرب من الحسد . وهم أولئك الذين كان كلّ تعليمهم، بعد أن يدخلوا المدرسة و يخلعوا ستر الجوخ ليلبسوا الثياب السوداء ، لا يتجاوز احترام « النقود » و إجلالها العظيم سواء فى ذلك سائلها وصلبها كما يقولون فى مقاطعة فرانش كونتيه .

وهذه هى الطريقة التى تحمل البطولة والأسرار الدينية فى نظرهم ، حين يعبرون عن الفكرة الرائعة فكرة النقد المعجّل .

كانت سعادة هؤلاء الطلبة تنحصر فى أن يملئوا بطونهم عند الغداء ، مثلهم فى هذا مثل أبطال قصص ڤولتير . واكتشف چوليان أنهم يكادون

جميعاً يحترمون من يلبس الملابس الغالية . إن هذه العاطفة لتقدر « العدالة الوازعة » حق قدرها أو أقل من قدرها كما تريها لنا المحاكم . وكثيراً ما كان يسائل بعضهم بعضاً حين ينفردون : ماذا نكسب من مخاصمتنا لرجل بدين ؟

ويستعمل أهل أودية الجورا كلمة (بدين) مريدين بها معنى الغنيّ ، وإذا كان هذا هو رأيهم فى الرجل الغنى ، فما بالك برأيهم فى الحكومة ، وهى أغنى من أى رجل يجلّونه كل هذا الإجلال !

وإذا لم يبتسم السامع فى تجلة واحترام ، حين يذكر اسم السيد المدير ، فإن هذا يعد فى نظر فلاحى فرانش كونتيه حماقة ! والحماقة إذا إرتكبها فقير عوقب حالا بحرمانه من القوت .

تبدلت عاطفة جوليان نحو أولئك الفلاحين البائسين ، فبعد أن كان يحتقرهم أخذ يحنو عليهم : فكثيراً ما كان يعود آباء زملائه إلى أكواخهم فى الشتاء ، فلا يجدون فيها خبزاً ولا بطاطس ولا كستناء . قال جوليان فى نفسه : ليس عجيباً إذاً أن يرى هؤلاء الزملاء أن السعيد هو من يحظى بطعام جيد ، ثم يرتدى ملابس حسنة ! إن زملائى أصحاب عقيدة ثابتة ، يؤمنون بأن الحياة الدينية تضمن لهم هذه السعادة : يأكلون حتى يشبعوا ويلبسون دفئاً يقيهم قرّ الشتاء .

وسمع جوليان طالباً صغير السن واسع الخيال يقول لزميل له :

— أمن البعيد أن أكون « بابا » مثل سكست الخامس الذى كان من قبل يحرس الخنازير ؟ فأجاب الصديق :

— لا يختار البابا إلاّ من الإيطاليين ؛ ولكن مما لا ريب فيه أن سيكون منّا نواب الأساقفة والكهنة القانونيون ، وربما كان منا مطارنة أيضاً ، فمطران شالون السيد ب . . . أصله ابن صانع براميل ، وأنا شخصياً أبى من صنّاع البراميل .

أرسل الأب پيرار يوماً فى طلب چوليان وهو فى أحد دروس العقائد . فسُرّ الشاب المسكين بمغادرة هذا الجو الذى أرهق نفسه وجسمه . واستقبله المدير بنفس الاستقبال الذى بعث الرعب فى قلبه يوم دخل المدرسة . نظر إليه نظرات مخيفة وقال له :

— خبّرنى بما كتب على هذه الورقة من أوراق اللعب ، وفسره لى .

فقرأ چوليان : « أماندا بنيه بمقهى الزرافة قبل الساعة الثامنة . وقل إنك من جنليس وابن عم أمى . »

فأدرك چوليان فى الحال جسامة الخطر ، إن شرطة الأب كاستانيد سرقوا منه هذا العنوان . فنظر إلى جبهة المدير فراراً من عينيه المخيفتين وقال:

— كنت شديد الاضطراب فى اليوم الذى أتيت فيه إلى المدرسة ، لأن الأب شيلان أخبرنى بأنها للشرور والوشايات مرتع خصيب ، وبأن التجسس والوشاية يكثران بين الزملاء ويجدان تشجيعاً . والسماء تريد أن تكون الحياة هنا على هذا المنوال ؛ ليراها على حقيقتها الذين سيكونون قساوسة المستقبل ، حتى تشرب نفوسهم كراهة الدنيا وزخرفها .

فغضب الأب پيرار وقال له :

— تريد أن تضللنى بما تقول ؟ يا لك من خبيث !

فاستطرد چوليان فى هدوء :

— كثيراً ما ضربنى إخوتى وأنا فى ڤرير، حين كانت تدبّ فى صدورهم عقارب الغيرة منى . . فقاطعه الأب فى غضب شديد :

— حقيقة ! حقيقة !

لكنه لم يخف ولم يجبن بل استطرد قصته :

— ويوم وصلت إلى بيزانسون شعرت بالجوع قبيل الظهر ، فدخلت مقهى وإن كنت لا أحب مثل هذه الأماكن الدنسة . لكنى اعتقدت أن وجبة الغذاء فيه تكلفنى أقل مما تكلفنى فى نُزُل . وأشفقت على سذاجتى سيدة خيل إلىّ أنها صاحبة المقهى وقالت لى: إن بيزانسون كثيرة الأشرار وأنا أخاف عليك . فإذا أصابك مكروه فالجأ إلىّ ، وارسل رسولا قبل الساعة الثامنة. وإن رفض بوّابو المدرسة أن يبلغونى رسالتك فقل لهم: إنك ابن عمى وإنك من جنليس . . .

فصاح الكاهن بيرار قائلا، وهو يسير فى الغرفة لأنه لا يستطيع البقاء فى مكان واحد :

— سأتحقق صحة هذه الثرثرة . والآن إلى غرفتك !

ثم تبعه إلى الغرفة ليغلق بابها عليه وأخذ جوليان يفتش الحقيبة التى كان مخفياً الورقة فى قاعها بمهارة كبيرة . لم يضع شىء مما فى الحقيبة ، وإن كان نظامها قد تبدّل كثيراً ، مما يدل على أن يداً عبثت بها وإن لم يهمل مفتاحها لحظة من اللحظات . ثم أخذ الشاب يحدّث نفسه : إننى اليوم

ورقة أدركت الآن معناها . أما قبل ذلك فكنت غرًّا أتخبط ! ومن يدرى ؟ لعلى لو خرجت يوم ذلك ، لسولت لى نفسى أن أغير ثيابى لألقى أماندا الجميلة . وكان فى ذلك ضياعى إلى الأبد . لقد أخفقوا فى إغرائى من هذه السبيل . ولما لم يصلوا إلى معلومات من هذه الناحية ، أرادوا أن ينتفعوا بما ظفروا به فوشوا بى !

ثم استدعاه المدير بعد ساعتين . وقال له وهو ينظر إليه فى شىء من الإشفاق :

— لم تكذب فيما حدثتنى به ، ولكن احتفاظك بهذا العنوان حماقة لا تدرك الآن خطورتها . فيالك من طفل أخرق ! مثل هذا العنوان قد يجرّ عليك الشقاء ولو بعد عشرة أعوام .

الفصل السابع والعشرون

التجربة الأولى فى الحياة

[يا للوقت الحاضر يا إلهى العظيم ! إنه حرم مقدس . والويل لمن يمسه .] ديدرو

ليلتمس لنا القارىء عذراً فى أننا لم نتناول سرد أمور جلية واضحة فى هذه الفترة من حياة چوليان . وما ذلك لأن علمنا بها ناقص بل لأنها مظلمة على كثرتها ، قاتمة تلائم الحياة وراء جدران المدرسة ، ولا تلائم هذه الصفحات التى تحرص على أن تكون مضاءة قدر المستطاع . وإن معاصرينا الذين يتألمون من أمور معينة لا يذكرونها إلا وضاقت نفوسهم بها ، وحال السأم بينهم و بين أن يستمتعوا بأى شىء حتى ولو كان قراءة قصة .

أصاب چوليان بعض نجاح فى إشاراته التى تحمل النفاق ؛ لكنه كثيراً ما أصابه اشمئزاز وقنوط كبير . لم يحالفه التوفيق فى هذه المهنة المرذولة ، وكان أقلُّ معونةٍ من الحياة فى الخارج ، يشغل قلبه و يذكره بها و يتسلل إلى نفسه بسهولة و يسر .

كان فى عزلة عن الناس جميعاً ، كأنه زورق تُرك فى مجاهل المحيط . وكان يحدث نفسه قائلا : إن نجحت كُتب علىّ أن أقضى حياتى بين أولئك الرفاق الأشرار ! إنهم شرهون لا يفكرون إلا فى بطونهم ، أو هم كأمثال كستانيد ؛ يرتكبون الجرائم ولا يراعون فى ذلك عهداً ولا ذمة ! سيصلون إلى الحكم ؛ ولكن بأى ثمن يا إلهى !

إن إرادة الرجل قوية كما تقول الكتب التى أقرؤها ؛ ولكن أتبلغ بها القوة حدّ أن تتغلب على هذا الاشمئزاز ؟ إن مهمة العظماء سهلة لأن الخطر مهما يكن جسيما فإنهم يجدون فيه جمالا ، ومن ذا الذى يستطيع غيرى أن يرى قبح ما يحيط بى ؟

كانت هذه الفترة أسوأ فترة فى حياته . وقد كان من السهل عليه أن يلحق بأحدى الفرق الجميلة فى ثكنات بيزانسون ! أو أن يكون معلما للاتينية ، ويكفيه القليل ليعيش ! ولكنه بذلك يضحى بالمهنة التى يسعى وراءها ، وبالمستقبل الذى رسمه خياله ؛ إنه يحكم على نفسه بالموت .

وهذه هى خطوات تفكيره فى يوم من أيامه الحزينة .

قال فى نفسه ذات صباح :

لقد صوّر لى الوهم أنى خير من زملائى الريفيين ! ولكننى عشت حتى أدركت أن « التفاوت يولدّ الكراهية » . وعرف هذه الحقيقة الهامة من فشل كبير منى به . لقد حاول أن يتقرب من تلميذ يحيا حياة قدسية وبذل فى ذلك جهداً كبيراً ثمانية أيام كاملة ثم سار جوليان يتنزه مع القديس فى فناء المدرسة ، ويستمع فى خضوع إلى حماقاته المملة التى تبعث فى نفسه السأم ، فباغتتهم زوبعة وأرعدت السماء وأبرقت . فما كان إلا أن دفع القديس الورع جوليان دفعة وحشية وهو يصيح به قائلا :

— أصغ إلىّ ، كل إنسان فى الوجود يعمل لنفسه وحدها ، وأنا لا أريد أن تحرقنى الصاعقة . والله قادر على أن يصعقك لأنك كافر ، لأنك ڤولتير .

فاصطكت أسنان جوليان غيظاً ، ونظر إلى السماء التى شققتها الصاعقة وصاح قائلا : لو أننى كنت ممن يناموون وقت العاصفة لحق على الغرق ! فلأحاول التقرب من مغرور آخر .

ودق الجرس مؤذناً ببدء محاضرة الأب كاستانيد فى التاريخ المقدس . وفى هذا اليوم كان الأب كاستانيد يعلّم التلاميذ ، الذين يخشون العمل الشاق ويرتعدون من فقر آبائهم ، أن هذا الشبح المخيف الذى يسمى الحكومة ليس له سلطان حقيقى شرعى إلا ذلك الذى يوافق عليه البابا ويُستمد منه ، لأنه نائب الله فى أرضه . ثم قال لهم :

— اعملوا كى يرضى عنكم البابا ، وتمسكوا بالحياة الطاهرة المقدسة ، وبالطاعة ولتكونوا كالعصا بين يديه . فأنتم إن فعلتم هذا ، تقلدتم مناصب خطيرة ترأسونها بلا محاسب ولا رقيب ؛ وتدفع الحكومة لكم ثلث الأجور ويدفع ثلثيها الباقيين المؤمنون الذين تستميلون قلوبهم بالمواعظ .

وانتهت محاضرته ، فوقف فى الفناء حيث التف حوله التلاميذ فقال :

— الناس ينظرون إلى الخورى معجبين قائلين : هكذا يكون الرجال ، وهكذا تكون المناصب ، لقد عرفت قرى جبلية يبلغ الدخل العارض للخورى فيها أكثر من الدخل الأصلى لخورى المدائن . وهذه القرى تدر على الخورى أموالا طائلة ، وديكة سمينة وبيضاً وزبداً طازجاً وغير ذلك من ملذات لا حصر لها . والخورى هناك صاحب الكلمة العليا غير مدافع : لا تقام وليمة ولا مأدبة إلا دُعى إليها واحتُفى به . وقيسوا على ذلك .

ثم صعد الأب إلى مسكنه فانقسم التلاميذ أقساماً ووقفوا جماعات.
وظلّ چوليان بمعزل وحده كأنه عنز جرباء، وجعل كل تلميذ فى جماعة يقذف بقطعة نقود فى الهواء، فإذا أصاب تخمينه الوجه الذى ستقع عليه آمن أصدقاؤك بأنه سيكون خورىّ قرية من القرى الغنية.

وجاء دور القصص والحكايات. فهذا القسيس الشاب الذى لم يكن يمضى على ترقيته عام، قد قدّم لخادم الخورى العجوز أرنبا فعين نائباً للخورى، وبعد بضعة شهور مات الخورى فعينّ نائبه فى مكانه فكسب مالاً كثيراً. وتمكّن آخر أن يعيّن خلفاً لخورىّ فى بلدة كثيرة الخيرات، على أن يشهد جميع الواجبات التى يتناولها الخورى الكسيح، و يقطع له أجزاء الدجاج فى أناقة.

هؤلاء التلاميذ ككل الشبان فى كل المهن، يبالغون فى قيمة هذه التوافه التى يرونها خارقة للعادة، فتطغى على خيالهم حتى تملكه.

قال چوليان فى نفسه: يجب أن أشترك فى نقاشهم. فهم حين لا يتحدثون عن النقانق والخوريات الغنية، يتناولون الناحية الدنيوية للنظريات الدينية، والخلافات التى تقع بين حكام الولايات والعمدة من ناحية، والخوارنة من ناحية أخرى. ثم رأى أن فكرة بدأت تتسلط عليهم وهى أنهم يتخذون البابا إلهاً آخر، يخلعون عليه من القوة والجبروت أكثر مما يخلعون على الله. وحينما يعلمون أن الأب پيرار لا يسمعهم، يقولون بصوت منخفض: إنّ البابا حين لا يُعنى بتعيين كل حكام الولايات، وكل عمد فرنسا، فهو إنما يترك هذه المهمة لملك فرنسا، الذى اختاره ابناً أكبر للكنيسة.

ولما وصل الحديث إلى هذا الحد ، اعتقد جوليان أنه يستطيع أن يظهر لهم بعض ماجبلت عليه نفسه من إجلال لكتاب « البابا » من تأليف دى متر . وفى الحق أنه أذهلهم بما تحدّث ، فكان هذا عليه نحسا جديدا . لقد كرهوه لأنه شرح آراءهم خيرا منهم . وذلك أن الأب شيلان لم يكن فطنا حين علم جوليان ، كما لم يكن لبقا إزاء نفسه . عوّد تلميذه التفكير السليم وأخذ عليه ألاّ يتأثر بقول تافه ، ولكنه أهمل أن يعلمه أن هذه العادة جريمة فى نظر الحمقى الذين لا يؤبه لهم ، لأنّ التفكير السليم يؤذى المشاعر .

كان الحديث الحسن المرتب الذى حدثهم به إثماً جديداً ، لأنهم كثيرو التفكير، فيه ، وكلمة واحدة قالوها بكل قلوبهم تدّل على مقدار بغضهم الشديد له فقد أطلقوا عليه اسم : مارتن لوثر . وحجتهم فى ذلك كما يزعمون، المنطق الجهنمى الذى كان يبعث الغرور فى نفس زميلهم . وكان بينهم من يفوقون جوليان جمالا بنضرة اللون ، ولكنه امتاز عنهم ببياض اليدين . ولم يكن يستطيع أن يخفى بعض عادات تدّل على نظافة طريفة . على أن هذه الميزة لا تعدّ فضيلة فى هذا المنزل الموحش ، الذى كتبت عليه المقادير الإقامة فيه . أما الفلاحون القذرون الذين هم معه ، فكانوا يقولون إنه مفطور على عادات ناعمة مسترخية .

إنا لنخشى أن نتعب القارىء إذا استعرضنا المآسى التى تعرّض لها بطلنا ؛ فقد أراد بعض زملائه الأقوياء أن يضربوه ، فاضطر إلى أن يتسلح بفرجار حديدى ، وأشار إليهم أنه سيضرب به إن هم اعتدوا عليه . والإشارات فى تقرير الجواسيس ليست لها قيمة الكلمات .

الفصل الثامن والعشرون

موكب ديني

[كانت القلوب جميعا شديدة التأثر، حتى لكأن روحا من الله قد هبطت إلى هذه الشوارع القوطية الضيقة المتشعبة، التي فرشها المؤمنون بالرمال.]

يونغ

ولما حاول جوليان عبثا أن يظهر بمظهر الخضوع والغفلة، لم يعجبهم ما فعل؛ لأنه لم يكن مثلهم. قال في نفسه: ولماذا لا يحب المدرسون استكانتي وخشوعي وهم دقاق الحس، مختارون من بين آلاف الأساتذة؟ لم يكن فيهم إلا رجل واحد يظهر لجوليان الود، ويحمله على الاعتقاد بأنه يصدق كل ما يقول، وهذا هو الأب شاس برنارد مدير الحفلات في الكتدرائية، الذي يعمل هناك منذ خمسة عشر عاما، على أمل أن يسند إليه منصب كاهن قانوني. وهو يدرس البلاغة المقدسة في المدرسة حتى يتحقق له هذا الأمل. وقبل أن تنكشف لجوليان الحقائق المرة، كان يسارع إلى محاضرات الأب شاس حريصا على أن يكون أول الداخلين؛ لذلك ولدت بينهما صداقة. وكثيرا ما اصطحب الأب شاس جوليان بعد المحاضرات سائرين معاً في الحديقة..

وساءل جوليان نفسه: ما أمد هذه الصلة؟ وكان يعجب حين يحدثه الأب شاس ساعات طويلة عن الزينات التي تملكها الكتدرائية. أخبره بأن

فيها للكاهن سبع عشرة حلة تزينها الضفائر ، وذلك غير زينات الحداد .

ونحن نرجو خيراً كثيراً من الرئيسة العجوز دى روبمبرى[1] ، فهذه السيدة البالغة من العمر تسعين سنة ، تحتفظ منذ سبعين عاما على الأقل ، بثياب زفافها التى صنعت من نسيج ليون الفاخر الموشى بالذهب . ثم وقف الأب شاس فجأة ، وقال فى عجب شديد : تصور يا صديقى أن هذا النسيج لا يتكسر لكثرة ما به من ذهب ، وقد أذيع فى بيزانسون أن وصية هذه السيدة ستزيد كنز الكتدرائية أكثر من عشرة أثواب من حلل الكهنة ، غير أربعة أو خمسة من أغطية الرأس التى تستعمل فى الحفلات الكبيرة . ثم خفض الأب شاس صوته وقال : وأعتقد أنها ستترك لنا ثمانية مشاعل بديعة من الفضة المحلاة بالذهب ، ويقال إن شارل الجسور دوق برجونيا اشتراها من إيطاليا ، وكان أحد أحفاده وزيرا مقرّبا .

فأخذ جوليان يسائل نفسه : ولكن ماذا يقصد هذا الرجل من ذكر هذه الثياب البالية ؟ إن هذا الاستعداد الماهر قد بدأ منذ قرن وإن لم يكن هناك ما يدل على ذلك .

إنه ولا شك يحذرنى حذرا شديدا ! والأب شاس أمهر من أولئك المدرسين جميعاً الذين تنكشف نواياهم بعد خمسة عشر يوما . وأنا أدرك السبب ، فطموحه فى كف القدر منذ خمسة عشر عاما !

---

(١) هو اسم إحدى قريبات الرسام الكبير أوجين ديلاكروا . وكانت سيدة غريبة الأطوار ، عاشرها الكاتب بضعة شهور من عامى ١٨٢٨ — ١٨٢٩ . ولم يطلق اسمها فحسب على الرئيسة العجوز ؛ بل استوحى من خلقها وعاداتها وصفاتها الكثير حين رسم بطلة قصته فى الجزء الثانى « ماتيلد دى لامول » . المعرب

وفى إحدى الأمسيات والتلاميذ فى درس من دروس الأسلحة ، نودى جوليان ليقابل الأب پيرار . ولما مثل بين يدى المدير قال له :

— سيحتفل غدا بعيد الله . والسيد الأب شاس برنارد فى حاجة إليك لتعاونه فى تزيين الكنيسة ، فاذهب وأطع .

ثم ناداه الأب پيرار مرة أخرى بعد ما سار وقال له فى حنان :

— سنرى ما إذا كنت ستنتهز هذه الفرصة لترتاد بعض أحياء المدينة.

فأجابه جوليان باللاتينية :

— إن لى أعداء مقنعين يظهرون الودّ ويضمرون البغضاء .

ذهب جوليان إلى الكتدرائية فى الصباح الباكر منكّس البصر . وقد استفاد كثيرا من منظر الشوارع التى فرشت احتفاء بالموكب ، ومن النشاط الذى دبّ فى المدينة . وخيل إليه وهو يسير أنه لم يمض عليه فى المدرسة إلا زمن يسير . كانت أفكاره متجهة نحو فرجى ، ونحو الفتاة الجميلة أما ندابنيه، التى قد يلقاها وهو يسير على مقربة من مشربها . ورأى من بعيد الأب شاس برنارد على باب الكتدرائية ، والأب رجل بدين يشرق وجهه بالبشر وتملك عليه الصراحة كلّ نفسه . وكان عليه فى هذا اليوم دلائل العظمة والسرور . ولما رأى جوليان من بعيد صاح به .

— أنا فى إنتظارك يا بنى العزيز ، فرحبا ... إنّ عملنا اليوم طويل شاق ، فلنستعن عليه بالفطور الأول ، أما الفطور الثانى فسيكون فى الساعة العاشرة أثناء القداس الأكبر .

فأجاب جوليان فى وقار :

— أحب يا سيدّى ألاْ أكون وحدى لحظة واحدة ، فهل لك أن تتفضل بملاحظة أننى حضرت فى الساعة الخامسة إلا دقيقة واحدة ؟ قال ذلك وهو يرفع رأسه نحو الساعة المعلقة على الحائط .

— آه ! إنّ هؤلاء الأشقياء الذين معك فى المدرسة بثوا فى نفسك الرعب ! إنك لطيب حقا حين تفكر فيهم . وهل يعيب الطريق الحسن أن فى السور الذى يحفه أشواكا ؟ إن المسافرين يأخذون طريقهم ولا يعبئون بالأشواك التى تبقى حيث هى ، حتى يبليها الزمن . دعنا من هذا وإلى العمل يا صديقى العزيز ، نعم إلى العمل !

كان الأب شاس على صواب حين قال : إن العمل سيكون شاقا . كان فى الكتدرائية أمس مأتم كبير ، عوّق الحفل الدينى عن أن يعدّ له شىء . وكان عليهم فى هذا الصباح أن يغطوا الأعمدة القوطية كلها بنسيج دمشقىّ أحمر ، إلى إرتفاع ثلاثين قدما . وهذه الأعمدة تكوّن فى الكتدرائية ثلاثة مواضع كل موضع منها كأنه وسط الكنيسة . وكان رئيس الأساتذة قد أحضر من باريس أربعة نجارين فى عربات البريد ، وهؤلاء السادة لا يستطيعون أن يعملوا وحدهم ، فدعوا زملاءهم من أهل بيزانسون . وبدل أن يغضوا عن عيوبهم وعدم مهارتهم ، سخروا منهم فزادوهم فشلا وارتباكا .

رأى چوليان أن عليه أن يصعد السلم بنفسه ، وساعده نشاطه على أن يصعد . ثم تولى أمر توجيه نجارى بيزانسون . فسرّ الأب شاس سرورا كبيرا ، وهو يراه يتنقل من سلم إلى سلم فى خفة ورشاقة . ثم تمت تغطية

الأعمدة كلها بالنسيج الدمشقى ، وأصبح عليهم أن يضعوا خمس باقات كبيره من الريش فوق الظلة الكبيرة التى تعلو الهيكل الرئيسى . وكان هناك تاج مذهب من الخشب، يقوم على ثمانية أعمدة كبيرة عليها تماثيل من رخام إيطاليا . وليصل الإنسان إلى منتصف المظلة فوق بيت القربان المقدس ، كان عليه أن يسير على حافة خشبية، ربما كانت آهلة بالسوس ، على ارتفاع أربعين قدما .

بعث منظر هذا الطريق الشاق فى نفوس النجارين الباريسيين رعبا قضى على مرحهم ، فنظروا كثيرا وتناقشوا طويلا . ولم يجرؤ أحدهم على الصعود . أما چوليان فإنه أمسك بباقات من الريش، وصعد السلم مسرعا حتى وضعها فى دقة على هيئة تاج فى منتصف المظلة ، ثم نزل فاحتضنه الأب شاس برنارد بين ذراعيه ، وصاح به القس الطيب :

— لقد قمت بعمل رائع ، وسأقص ذلك على مونسنيور .

كانت وجبة الساعة العاشرة يسودها المرح ، لأن الأب شاس لم ير كنيسته من قبل مزينة بمثل هذه الزينة ، وأخذ يحدث چوليان قائلا :

— كانت أمى أيها التلميذ العزيز، تؤجر مقاعد هذه الكنيسة الفخمة، فكان لهذا البناء الكبير الفضل فى تربيتى . إن الرعب الذى بثه روبسپيير فى نفوس الناس قضى علينا ، وكنت إذ ذاك فى الثامنة من عمرى ، أقيم القداس فى الغرف ؛ فكنت أطعم فى الأيام التى يقام فيها القداس . وكنت أتقن طى ثياب القداس فلا تتلف أشرطتها . ولما أعاد ناپليون إقامة الشعائر الدينية من جديد ، سعدت بالإشراف على كل شىء

فى هذه الكنيسة المقدسة ، ومتعت نظرى بزينتها البديعة خمس مرات فى كل عام . لكننى لم أرها فى مثل هذه الزينة كما أراها اليوم ، فالثقوب التي فى النسيج الدمشقى لم ترفأ فى الماضى كما رفئت اليوم ، ولم يلف النسيج على الأعمدة كما لف الآن .

فقال جوليان فى نفسه :

— لقد آن للأب أن يفضى بسره ؛ لأنه يتحدث إلىّ الآن عن نفسه مدفوعاً بميله نحوى ، فلابدّ أن يكاشفنى بما ينطوى عليه قلبه . وهذا الرجل المتحمس لم يقل شيئاً يدل على الحماقة . ثم استطرد يقول :

— لقد عمل كثيراً ، ومع ذلك فهو سعيد . وشرب كثيراً من النبيذ الطيب ، فيا له من رجل ! ويا له من مثل ينبغى أن أحتذيه ! إنه يستحق كل تقدير .

ودقت أجراس القداس الأكبر ، فأراد جوليان أن يرتدى قميصاً فوق ثيابه كما يفعل الأكليروس ليسير مع رئيس الأساقفة فى الموكب . فصاح به الأب شاس :

— اللصوص يا صديقى ! أنت لا تفكر فى اللصوص ! سيخرج الموكب الآن فتبقى الكنيسة خالية ، فعلينا أن نظل هنا لنحرسها . إننا نكون جدّ سعداء إذا لم يسرقمنا إلاّ بعض الأشرطة التى فى أسفل الأعمدة . هذا الشريط هدية من مدام دى روبمبرى ، جاءها من والد جدها الكونت المشهور . ثم اقترب الأب شاس من أذن جوليان وهمس متحمساً :

— إنه من الذهب الخالص يا صديقى ، ليس فيه زيف ! وحراسة الجناح الشمالى موكولة إليك فلا تغادره . وعلىّ أنا حراسة الجناح الجنوبى

وصحن الكنيسة الكبير . انتبه جداً إلى كراسى الاعتراف ، فجواسيس اللصوص ينتهزون هناك فرصة تغفل فيها فيسرقون الكنيسة .

كانت الساعة الثانية عشرة إلا ربعاً حين دقّ الناقوس الكبير دقات عنيفة ، دوّت فى كل الأرجاء مؤذنة بالعيد الدينى . فتأثرت بها نفس چوليان حتى هام فى آفاق بعيدة من الخيال .

وزادت فى حماسته رائحة البخور وأوراق الورد التى يلقيها الأطفال وهم متنكرون فى زى القديس يوحنا ، أمام السر المقدس . ما كان ينبغى أن يوقظ رنين الأجراس فى نفس چوليان إلا فكرة العمل الذى يقوم به عشرون رجلا ، أجر كل منهم خمسون سنتيما ، يساعدهم فيه خمسة عشر أو عشرون آخرون من الأتقياء . كان ينبغى أن يفكر فى تقطع الحبال أو تكسّر الخشب أو فى الخطر الذى ينجم عن سقوط الناقوس ، وهو يسقط مرة كل قرنين . وكان ينبغى أن يفكر فى كيفية خفض أجور الذين يقرعون الناقوس ، أو أن يجعله صفحاً ومغفرة عن آثامهم ، أو يفكر فى فضل تمنحه الكنيسة دون أن يؤثر فى كنوزها . ولكنه ما كان يفكر فى شىء من هذا الذى تفرضه عليه الحكمة والكياسة ، بل تأثرت نفسه بتلك الأصوات القوية الجبارة ، فسبحت فى عالم بعيد الآفاق . إنه لن يكون قساً صالحاً أبداً ، ولا إدارياً حازماً ؛ لأن النفوس التى تتأثر على تلك الصورة لا تصلح إلا لأن تكون نفوس فنانين فحسب . وهنا يظهر اعتداد چوليان بنفسه فى أقوى مظاهره . فخمسون غيره من زملائه فى المدرسة يسمعون رنين هذا الناقوس الضخم فلا يفكرون إلا فى أجور

قارعيه ، لأنهم أكثر منه علماً بالحياة المادية . تعلموها من كراهية الناس لهم ، من العصيان الذى يظهر لهم فى كلّ كمين وخلف كل حاجز . إنهم لينظرون فى فراسة شديدة؛ ليتبينوا ما إذا كان تأثر الجمهور برنين الأجراس يعادل ما دفع للقارعين من أجر . ولو أن چوليان أراد أن يفكر فى الفوائد المادية للكتدرائية لجمح به خياله ؛ ولفكر فى كيف يقتصد أربعين فرنكا فى مصنع ، فيضيع بذلك فرصة اقتصاد خمسة وعشرين سنتيما .

كان الموكب يسير متهادياً فى بيزانسون ، واليوم رائع جميل ، ويقف عند المذابح المزينة لزبّاح القربان التى أقيمت فى جميع أرجاء بيزانسون، وإن لم تصادف ارتياحاً من أولى الأمر وذوى الشأن فى المدينة . كان كلّ هذا يجرى فى المدينة ، والكنيسة يخيم عليها سكون عميق، ويسودها ظلام خفيف، ويتردد فى أرجائها هواء بارد لطيف لا يزال عبقاً برائحة البخور والأزهار . وحمل كل هذا چوليان على أن يسترسل فى الأحلام الجميلة . ولم يعد يخشى أن يزعجه الأب شاس ؛ لأنه مشغول بجزء آخر من البناء . كانت روحه كأنها فارقت جسده ؛ لأنها سبحت فى آفاق بعيدة حين مشى الهوينى فى الجناح الشمالى الذى وُكلت حراسته إليه ؛ وزاد اطمئنانه حين لم ير فى أماكن الاعتراف إلاّ سيدات تقيات عددهن قليل ، وقد كان ينظر ولكنه لا يرى . ثم ذهب عنه بعض ذهوله حين رأى سيدتين أنيقتين تركع إحداهما فى كرسىّ الاعتراف ، وتجلس الثانية على مقعد بالقرب منها ، ولحظ — وإن كان ينظر ولا يرى — أن ليس فى مكان الاعتراف

قسيس ، ولعلّ ذلك راجع إلى إحساسه بالواجب إحساساً غامضاً ، أو إلى إعجابه بملابس السيدتين التى كانت لا تخلو من بساطة ونبل . فقال حين رآهما :

عجباً ! كيف لا تركع الجميلتان أمام المذبح إن كانتا تقيتين، أو تجلسان فى المقاعد الأمامية بإحدى الشرفات إن كانتا من الطبقة الراقية . إنّ هذا الثوب جميل حقاً ! فياللأناقة ! ثم سار ببطء محاولا أن يراهما .

وسمعت الراكعة خطواته فى هذا الصمت الشامل فأدارت رأسها ملتفتة، ثم صاحت صيحة مخنوقة أغمى عليها على أثرها ، ثم خارت قواها فسقطت إلى الخلف ، وعندئذ أسرعت صديقتها القريبة منها إلى نجدتها .

ورأى چوليان فى هذه اللحظة كتفى المرأة التى أغمى عليها ثم رأى عقدها الماسىّ الثمين ، الكبير الماسات فذهل لأنه يعرفه . وكانت المفاجأة شديدة حين عرف كذلك شعر مدام دى رينال! إنها هى بعينها ما فى ذلك شك .

أمّا التى خفت إلى نجدتها وحالت بينها و بين السقوط، وأمسكت رأسها فلم تكن إلا مدام درڤيل . فقد چوليان شعوره وأسرع نحوها وحال بينها و بين السقوط لأن مدام دى رينال كادت تهوى بصديقتها إلى الأرض . ثم طالع وجه صديقته فألفاه مائلا على كتفيها ، وهو شاحب لا أثر فيه للعواطف . فساعد مدام درڤيل على إسناد هذا الرأس الجميل إلى حافة كرسى من القش ؛ ثم ركع . والتفتت إليه مدام درڤيل فلما عرفته قالت له فى غضب شديد :

— ابتعد يا سيدى ، اختف فى الحال ! واحذر أن يقع بصرها عليك مرة أخرى ، لأن رؤيتك قد آذت نفسها . وكم كانت سعيدة قبل أن تعرفك ! إنك فظيع فى كل ما تعمل . اختف حالا ، إن كان لا يزال فيك من الحياء بقية .

قالت هذا فى سيطرة كثيرة ، وكان چوليان ضعيفاً إلى أبعد حد فى ذلك الوقت فأطاع وابتعد . وأخذ يقول فى نفسه وهو يفكر فى مدام درفيل : لقد كانت تكرهني دائماً .

كانت الكنيسة فى هذا الوقت تدوّى أرجاؤها بترتيل جميل يردده القسس الذين هم فى طليعة الموكب ، حين عودته إلى الكتدرائية . ونادى الأب شاس چوليان عدة مرات ، فلم يصل صوته إلى مسامعه أول الأمر . فذهب إليه فإذا هو خلف أحد الأعمدة متضعضعاً خائر القوى . فأخذ بذراعه ليقدمه إلى رئيس الأساقفة . ولكنه رآه شاحب اللون لا يستطيع السير ولا يقوى على الحركة ، فمدّ ذراعه له قائلا :

— إنك تشعر بالإعياء يابنى العزيز ، فقد عملت كثيراً . تعال واجلس على هذا المقعد الصغير الذى يجلس عليه خلفى قسّ يوزع الماء المقدس ، وسأحول بينك و بين نظرات الناس . وكانا إذ ذاك بجوار الباب الكبير ، فقال الأب شاس :

— هوّن عليك فلن يحضر الرئيس قبل عشرين دقيقة على الأقلّ ، فاجتهد أن تستردّ قواك . وحين يمرّ مونسنيور فسأنهضك من مكانك؛ لأنى قوى فتى و إن كنت متقدم السن . ولكنه عندما أتى رئيس الأساقفة

كان چوليان لا يزال بادى الاضطراب ، فأعرض الأب عن فكرة تقديمه لمونسيور قائلا له :

— خفف عليك ولا تحزن فلن أعدم فرصة أخرى .

وفى المساء حمل الأب شاس إلى كنيسة المدرسة عشر ليبرات من الشمع اقتصدوها من حفلة الكتدرائية . وزعم الأب أن چوليان كان فى ذلك صاحب الفضل لأنه كان سريعاً فى إطفاء الشموع . وما كان هذا صحيحاً . فقد فقد المسكين كل قواه منذ وقع نظره على مدام دى رينال .

الفصل التاسع والعشرون

أول نجاح

[لقد عرف عصره ، وعرف الإقليم الذى يعيش فيه ، وكان غنيا] .

لى بريكوورسير

كان چوليان لا يزال متأثرا بحلمه العميق وتفكيره فى حادث الكتدرائية ، حين استدعاه الأب القاس پيرار ذات صباح وقال له :

— إن السيد الأب شاس برنارد كتب إلىّ يوصينى بك ،وسلوكك على وجه الإجمال يعجبنى . و إن كان فيك غفلة كبيرة ، وحماقة فطرت عليها لا يظهر أثرها عليك فى سهولة و يسر . ومع كل ذلك ، فقلبك حتى الآن طيب كريم ، وذكاؤك قوى جبار ، وعلى الجملة فإنى أرى فيك قبسا لا يجب إهماله ، أنا على وشك مغادرة هذه المدرسة بعد أن خدمتها خمسة عشر عاما ، والجريمة التى يتهموننى بها هى أننى تركت لتلاميذ المدرسة حرية التصرف ولم أشجع أو أحارب هذه الهيئة السرية التى حدثتنى عنها ، وأنت على كرسى الاعتراف . وأريد قبل رحيلى أن أعمل لك شيئا ، وكان علىّ أن أفعل هذا قبل الآن بشهرين ، لأنك تستحق ذلك ، لولا الوشاية التى تستند إلى أصل صحيح عن أما نداببنية، التى وجدنا عنوانها فى حقيبتك . وعلى هذا فسأعينك معيدا للعهدين الجديد والقديم .

فخفق قلب جوليان خفقة الفرح، وهمّ أن يسجد لله شكرا على نعمته .

ولكنه عمد إلى حركة أخرى أكثر صدقا ، فاقترب من الأب بيرار وقبّل يده . فغضب المدير وصاح :

— ما هذا ؟

ولكن نظرات جوليان نمت عن أكثر مما فعل ، معبّرة عن أصدق الشكر والاعتراف بالجميل . فنظر إليه الأب فى ذهول كأنه رجل فقد العواطف الرقيقة منذ سنوات طوال، فكشفت عاطفة جوليان عن حقيقة نفس المدير واضطرب صوته وهو يقول :

— حسنا ! إنى يابنىّ عطوف عليك حقا ، ويعلم الله أن هذا على الرغم منى. كان ينبغى لى أن أكون عادلا لا أحب أحدا ولا أبغض أحدا. ستكون حياتك شاقة عسيرة لأنى أرى فيك شيئا يغيظ العوامّ ، وسيلاحقك طول الحياة حقد وغيرة . ستلقى الكراهية من رفاقك أينما ذهبت ، والذين يدّعون أنهم يحبونك خادعون يريدون الوقيعة بك . وليس لهذا إلا دواء واحد : هو أن تعتمد على الله وحده فى كل ما ينزل بك ، والله وحده هو الذى أراد أن يعاقبك على اعتدادك بنفسك، فبث كراهتك فى نفوس الناس ؛ ليكن سلوكك نقيا ، فهذا هو الطريق القويم الذى يجدر بك أن تسلكه . وإذا تمسكت بالحقيقة تمسكا قويا ، فسيلغب أعداؤك على أمرهم عاجلا أو آجلا .

لم يسمع جوليان منذ وقت طويل صوتا صادقا عطوفا ، لذلك يجب أن نغفر له ضعفه لأنه بكى ، ففتح المدير ذراعيه وعانقه . وكانت هذه اللحظة من أسعد لحظات حياتهما .

فرح جوليان كثيرا ؛ وكان هـذا التقدم أول نجاح أصابه ، ومزاياه كثيرة لا حصر لها . ولـكى نقدر هـذه المزايا يجب أن نضع أنفسنا فى مكان أولئك الذين حكم عليهم أن يقضوا شهوراً طويلة ، لا يستطيعون أن يخلوا بأنفسهم ساعة من نهار ، وهم يعيشون دائما مع رفاق خـير صفاتهم الوقاحة ، وهم غالبا لا يطاقون ، فصيحاتهم وحدها كفيلة بأن تهـدّ كيان الرقيق العواطف الدقيق المزاج : فسرور أولئك الفلاحين الذين يطعمون شهىّ الطعام و يلبسون جيدّ الملابس ، سرور صاخب ، وعلامة المرح عندهم هى أن يصيحوا بكل ما فيهم من قوة .

يتناول جوليان طعامه الآن وحده ، بعد موعد تلاميذ المدرسة بساعة واحدة ، و يحمل مفتاحا للحديقة التى يتنزه فيهـا حين تـكون خالية من التلاميذ .

لقد ذهل كثيرا حين رأى زملاءه لم يعودوا يظهرون له الـكراهية الشديدة التى كانوا لا يخفونها من قبل ، وكان يتوقع أن تزداد . وكانت هذه الرغبة السرية التى تحملهم على ألاّ يوجهوا إليه حديثا لم يعد سببها أنه ينظر إليهم بكبرياء وغرور ، خلقا له من قبل أعداء كثيرين ، و إنما أصبح هؤلاء الأفظاظ الذين يعيشون معه ، يفسرونها بأنها عاطفة صادقة تدلّ على احتفاظه بكرامته . وقلت كراهيتهم له كثيرا وخاصة بين حديثى السن من زملائه الذين أصبحوا تلاميذه ، فـكان يعاملهم معاملة تنطوى على الأدب الجم . والتفّ حوله بعض الأنصار شيئا فشيئا ولم يعد أحد يستسيغ الآن يلقبه بمارتن لوثر .

ولكن ما فائدة تسمية أصدقائه وأعدائه ؟ كل هذا قبيح ، ويزيده قبحا أن وصفه صادق ! ومع ذلك فعلمو الأخلاق وحدهم هم الذين يسيطرون على الناس ، ولست أدرى ماذا يكون مصير الناس إن فقدنا هؤلاء المعلمين ؟ وهل تغنى الصحيفة عن الخورى وتحلّ محله ؟

ومنذ أسند المنصب الجديد إلى جوليان ، حاول المدير ألاّ يتحدث إليه على انفراد ، فكان هذا منه مسلكا حذرا حكيما ، يفيد تلاميذه وإن كان امتحانا له على كل حال . والمبدأ الذى سار عليه هذا المدير القاسى ، ولم يغيره إطلاقا هو : إذا رأيت رجلا له ميزات فضع العقبات فى سبيل ما يريد وما يفعل ، فإذا ما كانت صفاته حقيقية ، فإنه سيعلم كيف يتغلب على العقبات أو يتجنبها .

كان موسم الصيد قد حلّ ، فبدا لفوكيه أن يرسل وَعلاً وخنزيرا بريا إلى المدرسة باسم والدىْ جوليان . ووضع الحيوانان فى الممرّ بين المطبخ وغرفة الطعام ، ورآهما الطلبة وهم ذاهبون إلى الغذاء فكانا موضع غرابة واستطلاع منهم جميعاً . فالخنزير البرى وإن كان ميتا تماما يبعث الرعب فى قلوب صغار التلاميذ ، وكانوا يقتربون منه ويلمسون أنيابه . وظلّ هذا الصيد موضع حديث المدرسة أسبوعا كاملا .

وقد جعلت هذه الميزة أسرة جوليان فى صفّ الطبقة الاجتماعية التى يجب أن تحترم ، فكان هذا سبباً جديدا لحسد الزملاء ، إذ ظنوا أن جوليان أكثر منهم ثروة ، وللمال عندهم قوة وسلطان . فأخذ شازل وزملاؤه الممتازون من التلاميذ يتقربون منه ويكادون

يشكون من أنه لم يخبرهم بثراء أسرته ليظهروا الاحترام اللازم لسلطان المال.

ثم طلب چوليان للتجنيد لكنه أعفى لأنه طالب فى المدرسة الأكليريكية ، فحزن لذلك كثيرا وأخذ يقول: لو طلبت للتجنيد قبل ذلك بعشرين عاما لعشت عيشة الأبطال ! لقد مضى ذلك الزمن المجيد .

وسار يتنزه فى حديقة المدرسة وحده ، فسمع بنائين يتحدثون وهم يعملون فى جدار السياج ، ودار بينهم الحديث التالى :

— حسبنا ! يجب أن نرحل فهذا تجنيد جديد .

— مرحى بالتجنيد فى زمن ولى ! لقد كان البناء يعمل ضابطا ثم يرقى إلى درجة قائد ، أجل لقد رأينا ذلك .

— انظر ماذا يحدث الآن ! إن البائسين هم الذين يلحقون بالجيش ، وأما الذين يستطيعون أن يعيشوا فهم لا يبرحون ديارهم .

— من ولد فقيرا مات وهو فقير .

— آه ! أحقيقة ما يقولون إنه مات ؟ قال هذا بناء ثالث .

— الأغنياء وحدهم هم الذين يذيعون هذا لأنه يدخل فى قلوبهم رعبا !

— يا للفارق العظيم ! كان كل شىء سيتم فى أوانه ! لقد خانه القواد الذين معه ! وهل ينبغى للإنسان أن يكون خائنا ؟

سرى فى نفس چوليان شىء من الراحة بهذا الحديث ، وابتعد عنهم وهو يقول متنهدا :

إن الملك الحقيقى هو الذى تظلّ ذكراه أبدا فى نفوس الرعية !

وحلّ موعد الامتحان ، فأجاب عن الأسئلة بطريقة بديعة ، ولحظ أن شازل نفسه يحاول أن يظهر ما عنده من علم . ورأى الممتحنون فى أول يوم ، أنّ اسم جوليان سورل يرد فى قوائمهم الأول أو الثانى لخنقوا ، لأن الذى عينهم جميعاً هو الرجل الشهير فريلير نائب الأسقف . وقد أحيطوا علماً بأن جوليان هو الابن العزيز للأب بيرار . وقامت فى المدرسة مراهنات على أنه سيكون الأول فى امتحان هذا العام ، فينال بذلك شرف تناول الطعام على مائدة مونسنيور رئيس الأساقفة . ثم حدث فى نهاية جلسة من جلسات الامتحان أن تنووِل آباء الكنيسة ، فوجّه إليه ممتحن لبق بعض أسئلة عن القديس جيروم ، وذكر شغف القديس بشيشرون ؛ ثم تحدث عن هوارس وفرجيل وغيرهما من زنادقة المؤلفين . وكان جوليان قد حفظ مقطوعات كثيرة لهؤلاء المؤلفين على غير علم من زملائه . وفتنه نجاحه فنسى المكان الذى هو فيه حتى أجاب الممتحن إلى ما طلبه وأنشد فى حماسة بعض أشعار هوارس وعلّق عليها . وظل كذلك عشرين دقيقة يتورط فيما خدعته به نفسه . وأخيراً تغيّر وجه الممتحن بغتة وأخذ يؤنبه تأنيباً شديداً على الوقت الذى أضاعه فى دراسة هذا الكفر وعلى الآراء التافهة بل الإجرامية التى حشا بها رأسه . أنبه بعد أن ألح عليه من قبل أن يتحدث إليه عن هذه الأشعار . فقال له جوليان فى تواضع بعد ما تبين المناورة الماهرة التى ذهب ضحيتها :

— حقاً يا سيدى ما أنا إلاّ غر أحمق .

هذا التغرير الذى عمد إليه الممتحن تغرير حقير ، و بخاصة فى أوساط المدرسة و بين التلاميذ . لكنّ هذا لم يحل بين الأب فريلير و بين أن يكتب بيده القوية الباطشة رقم ١٩٨ بجوار اسم چوليان . ووجد فى ذلك لذة لأنه قد وجه بما فعل ضربة إلى عدوه پيرار . والأب فريلير رجل حاذق ، نظّم الهيئات الأجتماعية فى بيزانسون بمهارة فائقة ، ورسائله إلى باريس يضطرب لها القضاة والمديرون ، وكذلك الضّباط العظام فى ثكناتهم .

وكان مهتما منذ عشر سنوات بأن يعزل الأب پيرار من إدارة المدرسة ، لأن الأب پيرار كان يطبق على نفسه المنهج الذى رسمه لچوليان تطبيقاً صارماً ، وهو مخلص تقىّ لا يعرف الدسائس ، و يؤدى واجبه فى دقة شديدة . لكن السماء غضبت عليه فأعطته مزاجاً سوداويا جعله يحس إحساساً عميقاً كلّ ما يوجه إليه من سباب أو كراهة ، فكان يتأثر بها ولا ينساها لفرط حسّه وثورة نفسه : وكم ودّ أن يستقيل من منصبه هذا ، وحال بينه و بين ذلك اعتقاده أنه قد كتب عليه هذا المنصب ليؤدى واجبه ، وليحول دون تقدم اليسوعية وعبادة الأوثان .

وقبيل الامتحانات كان قد مضى عليه مايقرب من شهرين لم يتحدث خلالهما إلى چوليان . ومع ذلك فإنه مرض ثمانية أيام حين وصل إليه الخطاب الرسمى الذى يحمل النتيجة ، ورأى فيه أن ترتيب چوليان الثامن والتسعون بعد المائة ، وهو التلميذ الذى غدّه فخراً لمدرسته . وكان عزاؤه الوحيد أن يوجه إلى تلميذه كل عناية ورعاية على الرغم مما نطر عليه ذلك المدير من خلق شديد . وكم كان سعيداً حين رأى أن چوليان ليس غاضباً ولا ناقماً ولا يائساً .

ومضت أسابيع ، تسلّم بعدها جوليان خطاباً دلّ طابعـه على أنه من پاريس ، فذهل وقال فى نفسه : وأخيراً برّت مدام دى رينال بما وعدت به !

ولـكنه وجد الخطاب من شخص يدعى پول سورل يزعم فيه أنه أحد أقاربه . وقد أرسل إليه حوالة بمبلغ خمسمائة فرنك وأخبره أنه إذا ثابر بنجاح على دراسة المؤلفات اللاتينية القيمة ، فإنه سيتسلم فى كل عام مبلغاً كالمبلغ الذى أرسل إليه اليوم .

فقال فى نفسه فى حنان شديد : إنها هى ولا شك ، وهذه الطيبة لا تصدر إلا عن قلبها ! لقد أرادت أن تعزّى نفسى ، ولـكن لماذا لم تقل كلمة تعبر عن الصداقة أو الحب ؟

لـكنه قد أخطأ التقـدير ، فمدام دى رينال قد أسلمت زمامها إلى مدام درڤيل ، وكانت فريسة لندم شديد على ما فرط منها . لـكنها كانت تفـكر فى هذا المخلوق العجيب الذى ساقته إليها الأقدار فقلب حياتها رأساً على عقب ؛ كانت تفـكر فيـــه و إن حرّمت على نفسها أن تـكتب إليه .

ولو استعرنا لغة المدرسة لقلنا: إن إرسال هذا المبلغ إلى جوليان معجزة سماوية ، و إن الأب فريلير نفسه هو سبب المنحة . وقبل ذلك باثنى عشر عاما ، وصل الأب إلى بيزانسون ، رقيق الحال ، وقد أصبح الآن من أغنى ملاك المقاطعة ، واشترى ضمن أملاكه أرضاً أصبح نصفها له ، وآل نصفها الآخر إلى السيد دى لامول ، فقامت بين هذين الشخصين قضية كبيرة .

وعلى الرغم من مكانة المركيز دى لامول فى باريس ومن الأعمال الكثيرة التى كان يقوم بها فى البلاط فإنه تبينّ مقدار الخطر الذى يحيق به إن حارب الأب فريلير فى بيزانسون ، لأن نائب الأسقف هذا بيده عزل حكام الأقليم وتوليتهم . وكان فى استطاعة المركيز أن يلتمس الإنعام عليه بخمسين ألفاً من الفرنكات تدخل فى أى باب من أبواب الميزانية ثم يترك للأب فريلير هذه القضية التافهة التى يتنازعان فيها خمسين ألفاً من الفرنكات ؛ كان فى استطاعة المركيز أن يفعل ذلك لكنه كان مغيظاً حانقاً على الأب ، معتقداً أنه على صواب : فياله من سبب وجيه ! ثم لتسمح لنا بأن نقول : أىّ قاض ليس له ابن أو ابن عم على الأقل يجب أن يرقى به إلى أعلى المناصب ؟

وبعد أن صدر أول حكم فى صالح الأب فريلير بثمانية أيام ، ركب عربة الأسقف ؛ وذهب بنفسه يحمل رسالة الشرف إلى محاميه ليظهر سلطانه للذين يتعامون عن تقديره حقّ قدره . أما المركيز دى لامول فكان يجهل مكانة الأب فريلير ؛ ولما شعر بضعف من يتولون الدفاع عن قضيته، شاور الأب شيلان فى الأمر فأرشده إلى الأب پيرار .

وظلت العلاقات قائمة بين المركيز والأب پيرار بضعة أعوام فى زمن هذه القصة . وأظهر پيرار حماسة شديدة فى هذا الأمر ؛ كان يرى محامى المركيز فى أغلب الأحيان فدرس القضية ، وعرف أن المركيز على حق فناصره فى غير ما مواربة ، على ذلك الرجل القوى نائب الأسقف . فغضب الأب فريلير غضباً شديداً من قحة رجل ، لا يقام له وزن ، معدود من أنصار

بنسينيوس وهـذا ما هو أمرّ وأدهى !

قال الأب فريلير لبعض خاصته : أنظروا إلى هؤلاء الأشراف المتصلين بالبلاط كم يزعمون أنهم أقوياء ! فالسيد دى لامول لم يرسل وساماً تافهاً لوكيله فى بيزانسوان ، وسيعزل هذا الوكيل من منصبه من غير أن يهتم به . ومع ذلك فقد كتبوا إلىّ من باريس قائلين : إنه لا يمضى أسبوع لا يذهب فيه المركيز إلى صالون حارس الأختام ليفاخر بوسامه الأزرق .

ومع نشاط الأب پيرار وعلاقة المركيز دى لامول الوطيدة مع وزير العدل وموظفى الوزارة جميعاً ، فإن المركيز بعد كفاح ستة أعوام لم ينل شيئاً أكثر من أنه لم يفقد قضيته نهائياً .

وكان المركيز يراسل الأب پيرار دائماً بشأن هذه القضية التى كانا يتتبعانها فى قوة وحماسة . وقد أدىّ هذا التراسل إلى أن المركيز قدّر ذكاء الكاهن حق قدره ؛ و بدأت الرسائل المتبادلة تحمل معانى الصداقة ، وإن كان بينهما فارق اجتماعى كبير . وكتب الأب پيرار إليه يخبره بأنهم يعملون على أن يضطروه إلى الاستقالة من منصبه ، ووجهوا إليه عبارات تحمل الذلة والمهانة . وقد حملته السياسة الدينية التى رسمها أعداؤه على أن يقصّ على المركيز ما فعلوه مع جوليان .

كان هذا السيد الكبير غنياً جداً ولم يكن بخيلا . وقد حاول أن يقنع الأب بأن يقبل بعض ما ينفقه من مال فى سبيل التنقلات التى توجبها القضية ، لكنه رفض . فانتهز المركيز فرصة سنحت وأرسل إلى جوليان مبلغ خمسمائة الفرنك لعلمه بأنه تلميذ عزيز على مدير المدرسة . وكتب

الخطاب الذى أرسله إلى جوليان بنفسه ، وقد حمله هذا على التفكير فى الأب پيرار .

ثم حدث أن تسلّم المدير رقعة يُطلب منه فيها أن يذهب فى الحال إلى نزل فى ضاحية من ضواحى بيزانسون لأمر هام . ولما وصل إلى هناك وجد وكيل المركيز دى لامول الذى قال له :

— لقد أمرنى المركيز بأن أضع عربته تحت تصرفك . وهو يأمل أن تقتنع بالذهاب إلى باريس إذا ما قرأت هذا الخطاب ، على أن يكون سفرك بعد أربعة أيام أو خمسة . وسأنفق الوقت الذى تقضيه هنا قبل رحيلك فى ممتلكات المركيز فى فرانش كونتيه ؛ ثم نرحل معاً إلى باريس فى اليوم الذى ترتضيه .

كان الخطاب موجزاً يقول له المركيز فيه :

« تخلص يا سيدى العزيز من مضايقات الريف ، وتعال إلى باريس لتستنشق هواء نقيا . وهذه عربتى ، وستظل أربعة أيام فى انتظار قرارك . سأنتظرك بنفسى فى باريس حتى يوم الثلاثاء ، ولا أنتظر منك إلا الموافقة ، وحينذاك سأقبل باسمك خورية من أغنى خوريات ضواحى باريس . وإن أغنى سكان خوريتك المنتظرة لم يرك إطلاقا ، ولكنه مخلص لك أكثر مما تظن ، إنه المركيز دى لامول » .

كان الأب پيرار يحب المدرسة على الرغم من قسوته وكثرة أعدائه فيها ، وقد وقف عليها جهوده وأفكاره منذ خمسة عشر عاما . ولما وصل إليه خطاب المركيز، كان ظهوره بمثابة جرّاح كلف أن يقوم بعملية خطيرة. لكنها

ضرورية . وكان عزله من نظارة المدرسة أمرا محتوما ، فواعد الوكيل ثلاثة أيام . وظل ثمانيا وأربعين ساعة وهو فريسة لتردّد شديد . ثم كتب خطابا إلى المركيز ، وآخر إلى مونسنيور رئيس الأساقفة ، جاء آية من آيات البيان الكنسي وإن كان طويلا . لقد كان من العسير أن يجد المرء عبارات لا يلام عليها ، وتحمل فى ثناياها احتراما حقيقيا . ومع ذلك فقد قصد إلى أن يحرج مركز الأب فريلير أمام رئيسه . ثم تناول الأسباب الخطيرة التى حملته على الاستقالة ، وذكر بعد ذلك الأمور التافهة الخسيسة التى احتملها بصبر ستة أعوام كوامل ، حتى اضطرته الآن إلى مغادرة الأبرشية فقد سرق خشبه ، ودس السم لكلبه وهكذا ...

ولما انتهى من كتابة هذا الخطاب ، أرسل من يوقظ چوليان من نومه فى الساعة الثامنة مساء ، لأنه هو وجميع تلاميذ المدرسة ينامون قبل هذا الموعد . ثم قال له حينما رآه فى أسلوب لاتينى جميل :

— أتعرف أين الأسقفية ؟ اذهب بهذا الخطاب إلى مونسنيور . ولا أخفى عنك أننى أرمى بك وسط الذئاب . ولتكن كل جوارحك عيوناً وآذانا . واحذر أن تكذب إذا ماسئلت ؛ ولكن اذكر دائما أن سائلك ربما يجد لذة كبيرة فى أن يوقع بك ويؤذى سمعتك . إنى لأشعر براحة يابنى حين أمكنك من القيام بهذه التجربة ، قبل أن أفارقك لأن الخطاب الذى تحمله ، ولا أخفى عليك ، ينطوى على استقالتى .

ظل چوليان جامداً فى مكانه ، لأنه يحب الأب پيرار وكانت فطنته تقول له :

سيعمد حزب القلب المقدس إلى التنكيل بى بعد رحيل هذا الرجل الأمين ، بل ربما طردونى .

ولم يستطع فى هذه اللحظة أن يفكر فى نفسه . وكان كل ما يشغله هو تكوين عبارة رقيقة مهذبة ، وإن لم يسعفه الذكاء ولم تواته البديهة .

— حسنا يا صديقى ! ألا ترحل ؟

فأجاب چوليان فى استحياء شديد :

— علمت يا سيدى أنك لم تقتصد شيئا فى الفترة الطويلة التى قضيتها فى إدارة المدرسة ، ولدى ستمائة من الفرنكات .

فقال الأب فى فتور :

— لن أنسى لك ذلك أيضا . اذهب الآن إلى الأسقفية فالوقت متأخر . وشاءت المصادفات أن يكون الأب دى فريلير فى تلك الليلة قائما بالعمل فى صالون رئيس الأساقفة ، أما مونسنيور فكان يتناول العشاء فى دار المديرية . فسلم چوليان الخطاب إلى السيد دى فريلير على غير معرفة به . وقد عجب من جرأة هذا الرجل الذى فضّ خطابا ليس له ، وإنما هو لرئيس الأساتذة . وسرعان ما رأى هذا الوجه الجميل ، وجه نائب الأسقف ، تبدو عليه الدهشة التى يخالطها سرور شديد ، ثم زاد عليه الوقار وتأمل چوليان جماله الباهر وهو يقرأ الخطاب ، فذهل لشد ما يكون وجهه وقورا ، لولا هذه الكياسة الشديدة التى تظهر فى بعض تقاطيعه ، والتى تدل على الزيف لولا أن صاحبها يتعهدها فى كل لحظة ، كان أنفه ممتدا إلى الأمام على شكل خط مستقيم ، والمنظر الجانبى لوجهه — لسوء الحظ — يشبه

هيئة الثعلب شبهاً تاماً و إن فاض رقة وظرفا . وعلى الجملة فقد كان هذا القسيس ، الذى شغل تماماً باستقالة السيد پيرار ، يلبس ملابس أنيقة ، أعجبت چوليان لأنه لم ير من قبل قساً فى أناقته . ولم يعرف إلاّ أخيراً نوع عبقرية الأب فريلير : فهو رجل يتقن كيف يدخل السرور إلى قلب رئيس الأساقفة العجوز الطيب . وقد خلق ليعيش فى باريس ، ويعدّ الإقامة فى بيزانسون كأنها منفى . ورئيس الأساقفة ضعيف البصر ، ويحبّ أكل السمك حبّا بالغاً ، فكان على الأب فريلير أن ينزع عن السمك الذى يقدم لرئيسه كل شوك يضايقه .

نظر چوليان إلى القسيس فى صمت وهو يقرأ استقالة پيرار مرة ثانية . وفتح الباب على مصراعيه بغتة فى ضجة وجلبة . ومرّ خادم عليه ملابس أنيقة فى سرعة كبيرة ، والتفت چوليان نحو الباب فرأى عجوزاً قصير القامة على صدره صليب رئيس الأساقفة . فسجد وحيّاه الرئيس بابتسامة رقيقة : واستمرّ فى مسيره . ثم تبعه القسيس الجميل ، فظلّ چوليان وحده ، وأتيحت له فرصة أن يرى ما يحتويه الصالون من روعة تقيّة أخّاذة .

ورئيس أساقفة بيزانسون رجل يشهد له بالذكاء ، لم يؤثر فيه شقاء الهجرة كما أثّر فى غيره كثيراً . فى الخامسة والسبعين من عمره ، لا يعبأ إطلاقاً بما يصيبه بعد عشرة أعوام . وسأل رئيس الأساقفة الأب فريلير :

— من ذلك التلميذ ذو النظرات الذكية الذى يخيل إلىّ أنى رأيته وأنا فى طريقى ؟ ألم أصدر من قبل أمراً بأن يكونوا فى فراشهم فى مثل هذه الساعة ؟

— أقسم أنه تلميذ يقظ جداً ، وهو يحمل إلينا مونسنيور نبأ عظيما ؛ لقد أتى باستقالة آخر واحد من أنصار ينسينيوس فى أسقفيتك . وكان الأب بيرار المتعنت فهم أخيراً سوء عاقبة الـكلام .

فضحك مونسنيور قائلا له :

— حسناً ! عيّن مكانه رجلا له مثل قيمة بيرار وكفايته . وسأدعوه لتناول العشاء غداً على مائدتى لتستطيع أن تعلم مقدار قيمته وكفايته .

وأراد نائب الأسقف أن يقول ما يوحى باختيار خلف للأب بيرار ، وما فيه توجيه لمونسنيور ، لـكنّ الرئيس لم يكن مستعدًّا لسماع شىء ، ولا متهيئاً للـكلام عن الأعمال فقال :

— قبل أن يعود التلميذ إلى مدرسته ادخلوه لأسمع منه سبب استقالة ناظره ، فالحقيقة دائماً فى فم الأطفال .

واستدعى جوليان للمثول بين يديه فقال فى نفسه :

سأقف بين يدى مفتشين ناقدين فاحصين . ولـكنه أحس شجاعة كبيرة ، ورأى وهو يدخل الغرفة خادمين ، أكثر أناقة من السيد ڤالنو نفسه ، يخلعان عن مونسنيور ثيابه . وقبل أن يطرق الرئيس موضوع الأب بيرار رأى لزاماً عليه أن يسأل جوليان عن دراسته فتـكلم فى العقائد قليلا فأذهلته غزارة علم التلميذ . وانتقل الحديث بعد ذلك إلى ڤرجيل وهوراس وشيشيرون ، فقال جوليان فى نفسه :

هذه الأسماء هى التى ألصقت بى رقم ١٩٨ ، فماذا يضيرنى الآن ؟ إذن فلأجب فى ذكاء . وقد نجح نجاحاً باهراً سرّ رئيس الأساقفة سروراً كبيراً ،

لأنه خبير بالآداب القديمة . وفى حفلة العشاء التى أقيمت فى دار المديرية ، ألقت فتاة معروفة قصيدة مادلين[١] . فأخذ الرئيس يتحدث عن الأدب حتى نسى الأب پيرار وكل ما يتعلق به . وأخذ يناقش التلميذ فيما إذا كان هوراس غنياً أو فقيراً . ثم ألقى الأسقف الأول بعض قطع من الشعر خانته فيها ذاكرته كثيراً ، فتطوع جوليان بإلقائها كاملة فى تواضع شديد . وقد عجب مونسنيور عجباً شديداً من أنه كان يلقى الشعر كما لو كان يتحدث ؛ يلقى عشرين بيتاً أو ثلاثين بيتاً من الشعر اللاتينى ، كأنه يتحدث عن شىء وقع فى مدرسته . ثم تحدث بعد ذلك طويلا عن ڤرجيل وشيشرون . وأخيراً أثنى عليه رئيس الأساقفة ثناء مستطاباً وقال :

— من العسير أن يدرس المرء خيراً مما درست .

— إن مدرستك ، مونسنيور ، تستطيع أن تقدم إليك سبعة وتسعين ومائة تلميذ هم جميعاً خير منى ، ويستحقون تقديرك أكثر مما أستحق .

— وكيف ذلك ؟ . . . سؤال ألقاه رئيس الأساقفة وهو فى عجب من هذا الرقم .

— إنى أعتمد على دليل رسمى فيما تشرفت بقوله لكم . فقد أجبت فى الامتحان السنوى للمدرسة عن أسئلة تناولت المواد التى شرّفتنى الآن بثنائكم علىّ ، وكان ترتيبى فى الامتحان ١٩٨ .

فضحك مونسنيور ونظر إلى دى فريلير وصاح قائلا :

— آه ! إنه التلميذ الذى يعتزّ به القس پيرار . كان علينا أن نتوقع

(١) لامادلين: قصيدة للشاعر دلفين جيى، كان ينشدها فى عدة صالونات . المعرب

هذا ، ولكنها حرب طريفة . ثم التفت إلى چوليان قائلا :

— ألم يوقظوك من النوم ليرسلوك إلينا ؟

— نعم ، مونسنيور ، لم أغادر المدرسة قبل الليلة إلاّ مرة واحدة فى حياتى ، يوم غادرتها ذاهباً إلى الكتدرائية ، لمساعدة الأب شاسى برنار فى تزيينها ليوم عيد الإله .

— حسناً ، أهو أنت الذى أظهرت شجاعة نادرة حين حملت باقات الريش لتزين بها المظلة ؟ هذا العمل يدخل الرعب فى نفسى كل عام ، لأننى أخشى أن يكلفنا وضعها فى هذا المكان حياة رجل . أنت يا صديقى تبنى لنفسك مستقبلا سعيداً . وأنا لا أريد أن أهدم هذا المستقبل الرائع بأن أميتك جوعاً . ثم أصدر أمراً بإحضار « بسكويت » ونبيذ ملقا فأكل وشرب ، وكذلك فعل الأب فريلير الذى يعرف عن رئيسه أنه يحب أن يرى الناس يطعمون وهم فرحون مسرورن .

كان رئيس الأساقفة سعيداً ببهرته الممتعة ، فتحدث عن تاريخ الكنيسة فرأى أن چوليان لا يعرف شيئاً عن هذه المادة . ثم تحدّث عن الحالة الخلقية فى الامبراطورية الرومانية تحت حكم أباطرة عصر كونستنتين . كانت نهاية الوثنية مصحوبة بحالة من القلق والشك كتلك التى تضطرب لها النفوس الحزينة الملول فى القرن التاسع عشر . وقد لحظ رئيس الأساقفة أن چوليان يجهل حتى اسم تاسيت .

فأجاب چوليان فى وداعة على دهشة مونسنيور بأن كتب هذا المؤلف ليست فى مكتبة المدرسة . فقال الرئيس فى مرح :

— إنّى مسرور كل السرور فقد أنقذتنى من الحرج ، لأنى منذ عشر دقائق جادّ فى البحث عن طريقة أعبّر لك بها عن شكرى لهذه السهرة الممتعة التى جعلتنى أسعد بها على غير انتظار . ولم أكن أتوقع أن أجد فى مدرستى تلميذاً عالماً لا يقلّ عن المتخصصين فى ثقافتهم . أريد أن أعطيك مؤلفات تاسيت ، وإن كانت هدية غير كنسيّة .

وأمر فأحضرت ثمانية مجلدات حسنة التجليد ، وأراد أن يكتب بنفسه عند عنوان المجلد الأول منها الإهداء لجوليان سورل باللغة اللاتينية التى يحبها، لكنه عاد فقال لجوليان بلهجة جادة رزينة ، تخالف لهجته فى الحديث الذى دار بينهما :

— أصغ إليها أيها الشاب ، إن كنت عاقلا فستحصل يوماً على أحسن خورية فى أبرشيتى ، وليست بعيدة كثيراً عن قصر الأسقفية ، ولكن يجب أن تكون عاقلا :

ثم غادر جوليان دار الأسقفية فى منتصف الليل حاملا كتبه ، مذهولا كل الذهول ، ولم يقل له مونسنيور كلمة عن الأب بيرار . وقد أعجب كثيراً بأدب الأساقفة لأنه لم يكن يتوقع أن يعامل بمثل هذا التمدن الذى تحليه تقوى طبيعية . وأحس الفرق بين الرجلين واضحاً ، حين وقع بصره على الأب بيرار ، الرجل العنيف الذى ينتظره فى قلق وصبر نافد ، والذى صاح حين رآه من بعيد قائلا باللاتينية :

— ماذا وراءك ؟ فاضطرب قليلا وهو يترجم حديث رئيس الأساقفة

إلى اللغة اللاتينية . فقال له المدير السابق بلهجته القاسية وطرائفه الخالية من لوداعة .

— تـكلم بالفرنسية وقل ما قاله مونسنيور دون تحريف ولا تبديل ولا زيادة ولا نقصان .

ثم أخذ يقلب بين يديه المجلدات الفخمة التى أهديت إلى چوليان ، حتى لـكأن الخط الذهبى قد بعث فى نفسه اشمئزازاً كبيراً ، ثم قال :

— يا لها من هدية غريبة يقدمها رئيس الأساقفة إلى تلميـذ شاب فى المدرسة الأكليريكية ! ودقت الساعة الثانيـة صباحاً فأذن لجوليان بالذهاب إلى غرفته ، بعد أن شرح له هذا التلميذ العزيز كل ما دار فى إطناب كبير ، وقال له :

— اترك لى الجزء الأول من تاسيت الذى كتب لك مونسنيور عليه ما مدحك به ، فإن هذا السطر الذى كتب باللاتينية سيكون لك فى هذا المـكان ، كأنه مانعة الصواعق بعد أن أرحل ، لأن خلفى يا بنى أسداً يحاول افتراسك .

وأصبح الصباح فأحس چوليان أن أصدقاءه يتحدثون إليه بطريقة غريبة ، فأخذ حذره ، وقال فى نفسه : هذه نتيجة استقالة الأب پيرار . وصل نبأ تخليه عن العمل إلى كل من فى المدرسة وهم جميعاً يعلمون أنى الأثير عنده . وكانت طرقهم ولا ريب تنطوى على الاحتقار ، ولـكنه لم يكن سافراً . كان لا يجد فى النظرات الموجهة إليه بغضاً حين قابل زملاءه فى غرف النوم ، فساءل نفسه : علام يدل هذا؟ إنه لشرك منصوب ،

فلأجذر . وأخيراً تحدث إليه هذا الطالب الصغير الذى جاء من فر يير قائلا : جميع مؤلفات تاسيت .

وسمع أصدقاؤه هذه العبارة فهنئوه لا على تلك الهدية الفخمة التى قدّمها مونسينور فقط ، بل على ذلك الشرف الذى حظى به كذلك حين تحدّث مع الرئيس ساعتين . كانوا يعرفون كل ما دار حتى أدقّ التفاصيل . ومنذ هذه اللحظة ، زهد فى كل ما يحيط به ، لأنهم تملقوه جميعاً فى حقارة: فالقسيس كاستانيد الذى أظهر له بالأمس سفاهة لا حدّ لها ، أتى وأمسك بذراعه ، ثم دعاه لتناول الغداء معه .

وخلق چوليان لا يقبل إطلاقاً سفالة هؤلاء القوم ، الذين فطروا على الضعة حتى آذاه مديحهم . أما ضعتهم فهى تؤلمه ولا تسرّه .

غادر الأب بيرار تلاميذه عند الظهر ، ولم يشأ أن يتركهم دون أن يلقى عليهم خطاباً قاسياً ، قال :

« هل تريدون ملاذّ الدنيا وزينتها ؟ وتطمعون فى المزايا الاجتماعية وفى لذة الحكم ، والعبث بالقوانين والرغبة فى أن تكونوا سفهاء مع الناس ؟ أم تريدون الراحة الأبدية الدائمة ؟ إن أقلكم علماً وذكاء وهداية ، ليس لهم إلا أن يفتحوا عيونهم ليروا أى الطريقين خيراً وأهدى سبيلا » .

ثم غادرهم ، فذهب الأتقياء من أتباع قلب المسيح المقدس إلى كنيسة المدرسة ، يقدمون الشكر إلى الله . على أن الجميع لم يأخذوا خطاب مديرهم السابق مأخذ الجد . وكان چوليان يسمع فى كل جانب فى جوانب المدرسة أن المدير السابق مغيظ لعزله ، ولم يرزق أى وحداً منهم لونا من ألوان

البساطة يملى عليه أن الأب بيرار قد استقال من تلقاء نفسه . فهم لا يؤمنون بأن الإنسان يترك بمحض إرادته مثل هذا المنصب ، الذى يجعله على صلة دائمة بكبار المتعهدين .

أقام الأب پيرار فى أحسن فنادق بيزانسون ، محتجاً بأن لديه أعمالا تتطلب منه أن يقيم به يومين ، وإن لم يكن له عمل فى بيزانسون .

وكان رئيس الأساقفة قد دعاه ليتناول معه العشاء ، وأراد أن يغيظ نائبه الأب فريلير ، فأتاح لپيرار فرصة يظهر فيها ذكاءه وعلمه . ثم جعلوا يتناولون الحلوى ، فجاءهم من باريس نبأ غريب ، هو أنّ الأب پيرار عين فى الخورية الجميلة ، خورية . . . . التى لا تبعد عن العاصمة إلا بأربعة فراسخ . هنأه رئيس الأساقفة فى إخلاص ، لأنه رأى حسن التدبير فى هذا الأمر ، فسرّ سروراً عظيما ، وقدر مواهب الأب پيرار حق قدرها. ثم كتب الرئيس له باللاتينية شهادة قيمة ، وأسكت الأب فريلير حين سمح لنفسه بأن يثنى الرئيس عن عزمه .

ثم أظهر رئيس الأساقفة فى المساء إعجابه الشديد بالأب پيرار عند المركيزة دى رو بمبرى ، وكانت استقالة ناظر المدرسة وتعيينه فى تلك الخورية الجميلة ، حديث الطبقة الراقية فى بيزانسون كلها . وكانوا يتوقعون أن يعين الأب پيرار رئيساً للأساقفة بعد قليل . وأكثر الناس فطنة يعتقدون أن المركيز دى لامول سيعيّن وزيراً عما قريب . وسمحوا لنفسهم فى ذلك اليوم أن يسخروا من الطريقة التى تنطوى على السيطرة والعظمة ، طريقة الأب فريلير التى يظهر بها أمام الناس .

وفى صباح اليوم التالى ، سار خلف الأب ييرار فى الشوارع جمع غفير ، وخرج التجار إلى أبواب حوانيتهم وهو يمرّ بهم فى طريقه إلى قضاة المركيز، يسعى لديهم فى شأن القضية . ولأول مرة استقبل استقبالا حسنا . غضب هذا الرجل الصارم غضباً شديداً لما رأى ، وأخذ يعمل فى نشاط وجدّ مع المحامين الذين اختارهم بنفسه للدفاع عن المركيز دى لامول ، ثم غادر بيزانسون إلى باريس . وقد أفضى إلى اثنين أو ثلاثة من أصدقائه الذين جاءوا ليودعوه قبل رحيله : بأنه ظل ناظراً للمدرسة خمسة عشر عاماً ، ومع هذا لم يقتصد إلا عشرين وخمسمائة من الفرنكات . وبهت الأصدقاء من روعة العربة التى يسافر فيها وزينتها وبهجتها، ثم قبّلوه والدموع تتساقط من عيونهم ، لكنهم تحدثوا فيما بينهم قائلين : ما كان أغنى هذا القسّ الطيب عن أن يكذب ، لقد كان مدعاة للسخرية .

هؤلاء الأدنياء الذين أعماهم حب المال ، لم يكن فى مقدورهم أن يفهموا أن إخلاص الأب ييرار هو الذى أمدّه بقوة يقف بها ستة أعوام فى وجه مارى ألاكوك ، وقلب المسيح المقدس ، واليسوعيين ورئيس الأساقفة .

الفصل الثلاثون

طموح

[لم يعد فى طبقة الأشراف إلا لقب الدوق ، أما لقب المركيز فإنه يدعوا إلى السخرية ، ولكن الناس يتلفتون دائماً إذا ما سمعوا لقب الدوق .]
أدينبورج ريفيو

استقبل المركيز دى لا مول الأب پيرار استقبالا ليس فيه شىء من تلك الطرائق التى التافهة التى يتقنها كبار الأشراف ؛ وهى وإن كانت مؤدبة جداً ، لكن فيها سفاهة شديدة يحسها من يدركها .

كان المركيز لا يحب إطلاقاً أن يضيع وقته هباء ، لأنه فى ذلك الوقت كان مشغولا بأعمال كبيرة . وهو يبذل جهداً جباراً منذ ستة أشهر ليقنع الملك بتشكيل حكومة يقبلها هو وترضى عنها الأمة ، وستمنحه هذه الحكومة لقب دوق اعترافاً بفضله .

وكان المركيز يطلب عبثاً من محاميه فى بيزانسون من زمن طويل أن يوافيه بعمل واضح عن سير قضاياه المتعلقة بفرانش كونتيه . ولكن كيف السبيل إلى ذلك ؟ إنه طلب شاق ما دام هذا المحامى الكبير لا يفهم شيئاً من هذه القضايا ، وليس له دراية بها ، ولكن الورقة المربعة التى أعطاها الأب بيرار للمركيز أوضحت له كل شىء . قال له المركيز بعد أن انتهى من عبارات المجاملة والمسائل الشخصية فى أقل من خمس دقائق :

— أيها القس العزيز ، إننى بين هذا الرخاء والسعادة ينقصنى الوقت لأعنى بشيئين صغيرين لكنهما هامان مع ذلك . وهذان الشيئان هما أسرتى وأعمالى . أنا معنىّ بثروة أسرتى جملة ، وفى مقدورى أن أزيد هذه الثروة كثيراً ولكنى مقبل على ملذاتى ، ويخيل إلىّ أن هذا أهم شىء فى نظرى !

قال هذا وهو ينظر فى عينى القس بيرار فرأى الدهشة تبدو فيهما ، والقس رجل عاقل يدرك الأشياء على حقيقتها ، ومع هذا فقد عجب من أن يرى شيخاً يتحدّث عن لذاته فى مثل هذه الصراحة .

واستطرد المركيز يقول : مما لا ريب فيه أن العمل يوجد فى باريس ولكن لا يقوم به إلا ساكنو الأدوار العليا ؛ ولكنى لا أكاد أقرب رجلا حتى يستأجر مسكناً فى الدور الثانى ويعيّن زوجته يوماً للاستقبال ؛ ثم لا يلبث أن يعرض عن العمل ، ولا يبذل فيه من الجهد إلا بمقدار ما يجعله رجلا عصرياً أو يظهره كذلك . وهذا هو أهم ما يشغلهم بعد أن يحصلوا على خبز يعيشون به

وإذا ذكرت لك قضاياى فإن لكل قضية محامين يموتون ، قد مات أمس الأول أحدهم بمرض صدرى . أتتصور أننى يا سيدى يئست منذ ثلاثة أعوام من أن أجد رجلا يفكر جيداً إذا ما كتب إلىّ ! وعلى كلّ فكلامى هذا مقدمة لما أعرضه عليك .

أنا أجلك ! وأستطيع أن أقول إنى أحبك ، وإن كانت هذه أول مرة أراك فيها . فهل تقبل أن تكون سكرتيرى بثمانية آلاف فرنك أو بضعفها إذا شئت ؟ وسأكسب كثيراً من وراء ذلك وأقسم لك على ذلك ؛

وسأعمل جهدى على أن أحتفظ لك بخوريتك الجميلة التى تعمل فيها يوم ألاّ نتفق معاً فى العمل .

ولكن الأب بيرار رفض ما عرضه المركيز ووجد نفسه محرجاً فى نهاية الحديث فاهتدى إلى رأى أفضى به إلى محدثه :

— لقد تركت فى مدرستى شاباً فقيراً يخيل إلىّ أنه سيضطهد كثيراً ، ولولا أنه لا يزال طالباً دينياً بسيطاً لألقى به فى سجون الرهبان . هذا الشاب لا يعرف حتى الآن إلاّ اللاتينية والكتابة المقدسة ؛ و إن كنت لا أستبعد أن تظهر مواهبه بعد ذلك ، فيكون واعظاً ماهراً أو ذا أثر بالغ فى نفوس الناس . وأنا أجهل ما يريد أن يعمله ، ولكنه خلق ليكون من رجال الدين ، وسيكون له بينهم شأن . وكنت أريد أن أوصى به رئيس أساقفتنا ، لو أننا رزقنا رئيساً وهب بعض ما وهبت أنت من معرفة الرجال والحكم على الأشياء .

— ومن أين هذا الشاب ؟

— يقال إنه ابن نجار من سكان جبالنا ، ولكنى أعتقد أنه ابن طبيعى لرجل غنى . رأيته يتسلم خطاباً مجهولا أو كالمجهول فيه حوالة بمبلغ خمسمائة فرنك .

— آه ! أنت تتحدث إذن عن چوليان سورل .

فذهل الأب بيرار وسأل المركيز :

— ومن أنبأك باسمه ؟ ثم خجل من سؤاله ، فقال المركيز :

— لا أريد أن أجيبك عن هذا السؤال .

— حسناً ! فى استطاعتك أن تسند إليه عمل سكرتيرك ، فهو نشيط ، عاقل ، وعلى الجملة فهى تجربة يحسن ألاّ نغفلها .

— ولم لا ؟ ولكن أهو شخص قد يغريه حاكم المقاطعة بشىء أو يغريه شخص آخر فيكون جاسوساً فى منزلى ؟ هذا هو كلّ ما قد أعترض به .

فأكد الأب للمركيز أن چوليان أمين ، وأثنى عليه كثيراً . فأخرج المركيز ورقة بألف فرنك وقال :

أرسل هذا إلى چوليان سورل لنفقات الرحلة وأت به إلىّ .

— أرى أنك تعيش حقاً فى باريس . فأنت لا تعلم مقدار الظلم الذى يقع علينا معاشر الريفيين المساكين ، وبخاصة على القسس الذين ليسوا أصدقاء لليسوعيين ، فإنه قد لا يسمح لچوليان سول بالرحيل ؛ وقد يتذرعون بأمهر الحيل فى ذلك ، فيزعمون أنه مريض أو أنّ الخطاب فُقد فى البريد أو بغير ذلك من الأسباب .

— سأطلب من الوزير أن يكتب إلى رئيس الأساقفة .

— نسيت أن أخبرك باتخاذ احتياط جديد : هذا الشاب كبير النفس وإن كان غير عريق النسب ، فليس من المصلحة أن نجرح كبرياءه ؛ وإلاّ انقلب أحمق .

— هذا خلق يعجبنى ، سأجعله صديقاً لابنى ، فهل يكفى هذا ؟

ومضت أيام تسلّم بعدها چوليان خطاباً لا يعرف خط كاتبه ، وعليه طابع شالون ، وفضّه فإذا بداخله حوالة على تاجر فى بيزانسون وأمر بالسفر

فوراً إلى باريس . وهو موقع عليه باسم مستعار ، واستولت على چوليان قشعريرة شديدة وهو يفض الخطاب ؛ لأن ورقة من أوراق الشجر سقطت منه عند قدميه ؛ وهى العلامة المتفق عليها بينه وبين الأب پيرار .

وبعد ساعة واحدة ، استُدعى چوليان إلى دار الأسقفية حيث استقبل فى طيبة كبيرة ، وأخذ مونسنيور يتلو شعر هوراس ويهنىء چوليان بالمستقبل الباهر الذى ينتظره فى باريس ويثنى عليه ثناء عظيما ؛ وكان يتوقع أن يشكره چوليان ويخبره بما سيقوم به من عمل فى باريس . لكنه لم يقل شيئاً ؛ لأنه لم يكن يعرف شيئاً عما سيعمل ، فزاد احترام مونسنيور له . وكتب أحد صغار قساوسة الأسقفية للعمدة الذى أسرع فأحضر جوازاً بنفسه ، موقعاً عليه ، وترك اسم المسافر على بياض .

وقبل منتصف الليل من اليوم نفسه ، كان چوليان فى منزل صديقه فوكيه الذى عجب أكثر مما سرّ من مستقبل ينتظر صديقه ؛ وقال له هذا الناخب الحر :

— سيؤدّى هذا بك إلى منصب حكومى ، يضطرك إلى ارتكاب أمور تكون مجالا لسخرية الصحف . وسأعرف أخبارك من الفضائح التى ستذاع عنك . وإذا واجهنا المسألة من الناحية المادية ، فتذكر أنه خير لك أن تربح مائة لويس من تجارة الأخشاب ، وأنت سيد نفسك ، من أن تربح أربعة آلاف فرنك من حكومة ، حتى لو كانت حكومة سليمان .

ولم ير چوليان فى كل ما سمعه من صديقه إلاّ قصر نظر برچوازى ريفى ؛ فقد أتيحت لبطلنا الفرصة فى أن يظهر على مسرح الحوادث

الجسيمة . وكانت سعادته بالذهاب إلى باريس قد حجبت كل شيء عن ناظره ، باريس التي تصورها آهلة بالأذكياء الماكرين المنافقين المؤدبين في وقت واحد ، كمثل رئيس أساقفة بيزانسون أو رئيس أساقفة آجد . وقد رأى صديقه أن خطاب الكاهن پيرار قد أفقده حرية التصرف .

وحلّ ظهر اليوم التالى فهبط ڤرير كأسعد رجل فى الوجود لأنه أمّل أن يرى مدام دى رينال . وذهب أولا إلى حاميه الأول الأب شيلان . فاستقبله فى قسوة حتى لم يردّ عليه التحية وقال :

— أتعتقد أنك مدين لى بشىء ؟ ستتناول طعام الغداء معى ، وفى أثناء ذلك سنؤجر لك حصاناً آخر فتغادر ڤرير دون أن ترى أحداً .

فأجابه چوليان فى تواضع التلاميذ :

— سمعاً وطاعة . ولم يتناول الحديث سوى اللاهوت واللاتينية الجميلة .

ثم ركب جواداً وسار فرسخاً حتى رأى غابة فدخلها دون أن يراه أحد ، وأوغل فى السير خلالها . وغربت الشمس ، فترك الحصان ، ودخل منزل فلاح ، واتفق معه على أن يبيعه سلماً ويحمله له حتى تلك الغابة الصغيرة ، المطلة على متنزه الإخلاص فى ڤرير . وقال الفلاح وهو يغادره :

— إننى أتبع فاراً مسكيناً من الجندية . . . أو مهرباً ، ولكن ماذا يعنينى ما دمت أخذت ثمناً حسناً لسلمى ؟ على أننى قد ارتكبت فى حياتى مثل هذه الأعمال .

كان الليل حالك الظلمة . وحين دقت الساعة الأولى بعد منتصف الليل ، حمل چوليان سلمه داخلا ڤرير . وأسرع فنزل فى مجرى السيل الذى

يعبر حدائق السيد دى رينال الغنّاء ، والذى يبلغ عمقه عشر أقدام مارًا بين جدارين . . ثم تسلّق السلّم صاعداً بكل سهولة ، وهو يسائل نفسه : أى لقاء ستلقانى به كلاب الحراسة ؟ وهذا هو كل ما يشغله . ونبحته الكلاب مسرعة إليه ، فصفّر لها برفق وخفوت فأقبلت تداعبه . واجتاز الحديقة متنقلا من رصيف إلى آخر ، على الرغم من أن الأسوار كلها كانت مغلقة حتى وصل فى سهولة تحت نافذة الغرفة التى تنام فيها مدام دى رينال ، والتى لا يزيد ارتفاعها عن الأرض من ناحية الحديقة عن عشرة أقدام .

كانت فى مصاريع النوافذ فتحة على شكل قلب ، يعرفها جوليان حق المعرفة . وكم حزن حين رأى هذه الفتحة لا ينبعث منها ضوء ، لأن فى الحجرة مصباحاً صغيراً يظل عادة يضيؤها طول الليل .

فقال فى نفسه : يا إلهى ! إن هذه الغرفة لا تشغلها الليلة مدام دى رينال ! فأين إذاً تنام ؟ الأسرة فى ڤرييرما فى ذلك شك ما دامت الكلاب هنا . أىّ فضيحة تكون إن لقيت فى هذه الغرفة المظلمة السيد دى رينال نفسه أو شخصاً غريباً آخر ؟

وأشار عليه الحرص بأن يرجع لكنه أنف واستكبر . وقال محدثاً نفسه . إن وجدت فيها غريباً فررت مسرعاً وتركت السلم ؛ وإن وجدتها هى فيها فأى لقاء ينتظرنى ؟ وأنا أعلم أنها الآن تابت توبة صادقة ، وأصبحت تقية صالحة . لكنها ما زالت تذكرنى وإلاّ ما أرسلت إلىّ خطاباً .

وأقنعته هذه الحجة فمضى فيما عزم . كان خائفاً وعازماً على أن يلقاها أو يموت ، فشرع يقذف خشب النافذة بحصا صغير ، ولكن ما من مجيب !

فأسند سلمه إلى جانب النافذة وطرقها خفيفاً أول الأمر ، ثم طرقها بعنف بعد ذلك . وأخذ يقول : قد يصيبنى مقذوف نارى و إن كان الظلام حالكا وما لبثت هذه الفكرة أن حوّلت المشروع الجنونى إلى مسألة شجاعة فقال : إما أن تكون هذه الغرفة خالية الليلة ، و إما أن يكون من فيها قد استيقظ الآن . إذن فلا ينبغى أن أبالى ، ولكنى ينبغى أن أتخذ الحيطة حتى لا يسمعنى النيام فى الغرف الأخرى .

ونزل فأسند سلمه إلى مصراع وصعد مرة ثانية ، وأدخل يده فى الفتحة التى على هيئة القلب ، فمّر سريعاً على السلك الحديدى المعلق بالمزلاج فجذبه ؛ ولشدّ ما فرح حين شعر أن المصراع قد انفتح حين دفعه بيده . فكان عليه إذن أن يفتحه قليلا قليلا وأن يتحدث فى هدوء ليعرف صوته ، ففتحه بمقدار ما يدخل رأسه وأخذ يقول بصوت هامس : إنه صديق !

وأنصت فى انتباه شديد فرأى السكون لا يزال مطبقاً . وتبيّن أخيراً أنّ المصباح الصغير لا وجود له على المدفأة ولا كان نصف مضىء ؛ وهذه علامة لا تطمئن كثيراً .

حذار من المقذوف النارى ! وفكّر قليلا ثم جرؤ على أن يدقّ زجاج النافذة بأصبعه : ليس هناك من مجيب ؛ فدقّ دقّاً أقلّ ليناً وهوادة ، وقال : يجب أن أنتهى من هذا الموقف الشائك ولو كلّفنى كسر الزجاج . ثم خيّل إليه وهو يدقّ دقّاً عنيفاً أنه يرى شبحاً فى الغرفة و إن كان الظلام حالكا وتأكد بعد قليل ، أن شبحاً يتقدم إلى النافذة فى بطء شديد . ثم رأى خدّاً يوضع فوق الزجاج الذى يحدّق بطلنا من ورائه .

فارتعد وابتعد قليلا لأن الظلمة الحالكة لم تمكنه من أن يميز من يرى وإن كانت المسافة قريبة : أهى مدام دى رينال ؟ وخشى أول صيحة من صيحات الاستغاثة ؛ وسمع الكلاب تمر بجوار السلم مزمجرة فقال فى صوت يكاد يكون مسموعاً : إنه أنا ، إنه صديق . لكنه لم يسمع جواباً واختفى الشبح الأبيض . فاستطرد يقول : تكرمى وافتحى لى ، لا بدّ من أن أتحدث إليك لأننى بائس جداً ! ودقّ من جديد فى عنف حتى كاد الزجاج ينكسر .

فسمع صرّة خافتة خشنة فتحت بعدها حديدة النافذة ، فدفع الزجاج وقفز فى الغرفة بخفة وسرعة .

ابتعد عنه الشبح الأبيض فأمسك چوليان بذراعه فإذا به ذراع امرأة . وفى هذه اللحظة زايلته آراؤه فى الشجاعة ؛ وأخذ يساءل نفسه : إذا كانت هى فماذا تقول لى يا ترى ؟ ولا تسل عنه حين سمع صيحة خافتة عرف منها أنها هى بعينها ، إنها مدام دى رينال !

فاحتضنها بقوة ، فارتعشت بين ذراعيه ، محاولة التخلص وإن كانت قوتها لا تسعفها .

— لك الويل ! ماذا تفعل ؟

كان صوتها مضطرب النبرات ، فخرجت الكلمات بعسر شديد ، وأحس چوليان أن فيها سخطاً حقيقياً شديداً .

— أتيت لأراك بعد الفراق الأليم الذى ظلّ أربعة عشر شهراً . .

— أخرج ، انصرف عنى حالا . آه ! لم لم تتركنى أكتب إليه أيها

الأب شيلان ؟ لقد كنت أتوقع أن تحدث هذه القبائح . ثم دفعته بقوة كانت حقاً خارقة للعادة ، صائحة فى صوت متهدج : لقد استغفرت الله من آثامى : وقد قبل الله توبتى . فاخرج ! ودعنى !

— بعد أربعة عشر شهراً قضيتها فى شقاء ، لن أنصرف قطعاً قبل أن أتحدث إليك . أريد أن أعرف كل ما فعلته . آه ! لقد أحببتك حباً يجعلنى جديراً بثقتك . . . أريد أن أعرف كل شىء .

وأثرت فى قلب مدام دى رينال هذه اللهجة المسيطرة دون أن تحس . وكان چوليان لا يزال يحتضنها فى شغف وقد لف ذراعيه حولها حتى لا تفلت منه ، وإن كانت هى تحاول ذلك . ثم خفف من ضمه إياها ، فاطمأنت قليلا ، وعاد هو يقول :

— سأرفع السلم حتى لا تحوم حولنا الشبهات ؛ إذا كان هناك خادم قد استيقظ على الضوضاء فقام بجولة . فقالت فى غضب حقيقى :

— آه ! اخرج ، اخرج بدلا من أن ترفع السلم . وماذا يعنينى من الرجال ؟ إن الله هو الذى يطلع على هذا العمل الأثيم الذى تتخذه إزائى ، وسيعاقبنى عليه . أنت تستغل العواطف التى ملكت على نفسى فيما مضى استغلالا دنيئاً ، ولكنها قد انقضت الآن . فهل تسمع ما أقول يا سيد چوليان ؟

رفع السلم فى هدوء حتى لا تحدث جلبة وسألها لا ليشجعها ، ولكنها عادته من قبل :

— هل زوجك فى المدينة ؟

— أرجو ألا تتحدّث إلىّ هكذا وإلاّ استدعيت زوجى . لقد اقترفت إثماً كبيراً بأنى لم أطردك فى الحال مهما تكن العواقب . ثم حاولت أن تجرح كبرياءه التى تعلم حق العلم أنها حساسة ، فاستطردت تقول:

— لقد أشفقت عليك .

ولم تشأ أن تخاطبه بضمير المفرد ، فأثر هذا فى نفسه كما أثرت فيه الطريقة الخشنة فى قطع علاقة محببة إلى قلبه يودّ هو أن تظل قائمة ، فزاد حبه زيادة عنيفة حتى كانت أشبه شىء بالهذيان . فقال فى حب محتدم ، صادق ، من العسير ألاّ يتأثر به من يسمعه :

— ماذا ! أيمكن أن يكون حبك قد انتهى تماماً !

ولما لم ترد عليه استرسل يبكى بكاء حزيناً . وكانت قواه قد وهنت حقاً فلم يعد يستطيع الكلام .

— وهكذا نسينى تماماً الشخص الوحيد الذى أحبنى فى هذا الوجود ! فلم أعيش بعد ذلك ؟

وزايلته شجاعته بعد أن اطمأن إلى أنه لن يلقى فى الغرفة رجلا ، واستبعد من ذهنه هذا الخطر ، وتولّى عن قلبه كلّ شىء إلاّ الحب .

وظلّ صامتاً طويلا وهو يبكى ، ثم أخذ يدها فأرادت أن تستردّها منه ، ثم تركتها بين يديه بعد أن صدرت منها حركات مضطربة . وكان الظلام حالكا ، وهما جالسان معاً على سريرها .

وتذكر جوليان ما كان بينهما فقال فى نفسه : ما أعظم الفرق بين حالينا منذ أربعة عشر شهراً ، وبين ما ألقاه الآن منها ! وسالت دموعه

غزيرة وقال : إن البعد يميت حقاً كلّ عواطف الرجل ! ثم قال لها وهو مضطرب من طول صمته ، والعبارات تقطعها العبرات :

— اسمحي واذكرى لى ماحدث لك . فأجابته فى صوت قاس ولهجة تنمّ عن جفاء وعتاب :

— لاشكّ أن آثامى عُرفت فى المدينة كلّها منذ رحيلك . فقد كنت أحمق غير محتاط فى كل ما فعلت ! و بعد ذلك بزمن أتى هذا القسّ المبجل الأب شيلان ليرانى ، وأنا إذ ذاك فريسة ليأس شديد . وحاول عبثاً أن ينال منّى اعترافا . ثم بدا له مرة أن يقتادنى إلى كنيسة ديجون حيث أعطيت المقاولة الأولى . وجرؤ هناك على أن يبدأ هو الحديث ... ثم سالت عبراتها ، واستطردت بعد قليل تقول : أىّ خزى أصابنى فى تلك اللحظة ! لقد اعترفت له بكل شىء . ولم يشأ هذا الرجل الطيب أن يزيدنى ألمًا على ألم ، فلم يحتقرنى ، بل شاركنى الأحزان والآلام . وكنت فى ذلك الوقت أكتب إليك كل يوم خطابات ، لم أجرؤ على إرسالها وأخفيتها بعناية تامة . وحينما كنت أشعر بأنى فريسة لآلام شديدة ، أدخل غرفتى وأغلق بابها وأعيد قراءة ما كتبت من خطابات .

وأخيراً استطاع الأب شيلان أن يأخذها منى . . . وقد أرسلت إليك منها ما كان ينطوى على الحذر ؛ إلا أنى لم أتلق منك ردًّا .

— مطلقاً ، وأقسم لك أننى لم أتسلم أية رسالة وأنا فى المدرسة الإكليريكية .

— يا إلهى ! فمن ذا الذى حجزها عنك ؟

— تصوّرى مقدار ألمى قبل ذلك اليوم الذى رأيتك فيه فى الكتدرائية ، إذ لم أكن أعرف أنك لا زلت على قيد الحياة .

— لقد أنار الله بصيرتى ؛ فعرفت جسامة الأوزار التى ارتكبتها فى حقه ، وفى حق أبنائى وزوجى . إنه لم يحببنى بمقدار ما أحببتنى أنت كما كنت أعتقد فى ذلك الحين . . .

فارتمى چوليان بين أحضانها على غير وعى ، فدفعته واستطردت تقول فى حزم :

— قال لى الأب شيلان إننى إذ تزوجت بالسيد دى رينال فقد وهبته عواطفى كلها ، حتى تلك التى لم أكن أعرفها إلاّ بعد هذه العلاقة التى قُدّر أن تقوم بينى و بينك ... ومنذ أن ضحيت بالخطابات التى كانت جدّ عزيزة علىّ ، أصبحت حياتى مطمئنة إن لم تكن سعيدة . فلا تدخل عليها الاضطراب من جديد ، كن صديقى . . . كن خير صديق . فأخذ چوليان يقبل يديها بحرارة ، وأحست أنه مازال يبكى . فقالت :

— لا تبك أكثر مما بكيت ، لأنك تؤلمنى كثيرا .. أخبرنى بدورك عما فعلته .

فلم يستطع الكلام . فقالت :

أريد أن أعرف كيف كنت تحيا فى المدرسة ، ثم تنصرف بعد هذا .

فتكلم دون أن يفكر فيما يقول ، وقصّ عليها الدسائس الكثيرة والغيرة والحسد ، وجميع ما كان يلقاه أول الأمر من متاعب . ثم حدثها عن الحياة الهادئة المطمئنة منذ أن عين معيدا . واستطرد يقول :

— و بعد أن طال صمتك ، هذا الذى كنت ترمين من ورائه إلى أن تفهمينى ما أراه الآن منك فى وضوح وجلاء ، وهو أنك قد نسيت حبى !! فضغطت على يده ... نعم و بعد أن طال صمتك ، أرسلت إلى مبلغ خمسمائة فرنك !

— لم أرسل إليك شيئاً !

— إنه خطاب عليه طابع باريس ووقع عليه من سمى نفسه پول سورل لينفى الشبهات .

ثم دارت مناقشة صغيرة على أصل هذا الخطاب ، ومن ذا يكون مرسله . وتغير الوضع بينهما . وعلى غير وعى منهما ، لم يعودا يتحدثان باللهجة المتكلفة ، وأخذ حديثهما يصطبغ بصبغة الصداقة الرقيقة . وكان كل منهما لايرى الآخر لأن الظلام حالك . ولكن نبرات الصوت كانت تعبر عن كل شىء . ومد جوليان ذراعه حول خصر صديقته ، وهى حركة لها خطرها . فحاولت أن تبعد ذراعه ، لكنه استطاع بمهارته أن يلفت انتباهها فى هذه اللحظة إلى حادثة هامة فى قصته ، فأنسيت ذراعه حتى ظلت تطوق خصرها .

وتناول موضوع الخطاب ذى خمسمائة الفرنك وتناقشا فى مصدره ، ثم عاد جوليان يقص قصصه من جديد . وكان قد أصبح مسيطرا على نفسه أكثر من قبل حين تحدث عن حياته الماضية التى شغل عنها بما هو فيه الآن ، ولم يعد يهتم بها كثيرا . وانحصر انتباهه فى معرفة ما تنتهى إليه زيارته لصديقته . وكانت تقول له بين آن وآخر بلهجة موجزة :

— ألا تغادرنى ؟ ألا تخرج من هنا ؟

فقال فى نفسه : لو تخلصت منى الآن فسيكون ذلك خزيا كبيرا ، يقلق حياتى دائما و يقضى على راحتى ، ولن تكتب إلىّ أبدا لو تخلصت منى على هذه الصورة . و يعلم الله متى أعود ثانيا إلى هذا الأقليم !

ومنذ هذه اللحظة ، اختفت من قلب چوليان صفات الفضل وهو فى موقفه هذا . كان يجلس إلى جوار امرأة يعبدها ، وهو يضمها بين ذراعيه فى غرفة طالما سعد فيها ، فى مثل هذا الظلام الحالك . وكان قد شعر منذ لحظة أنها تبكى وأحس بكاءها من حركات صدرها ، فعمد إلى سياسة فاترة ، كتلك التى يتبعها مع الطلاب حين يتعرض لسخرية أحد الأصدقاء وهو فى فناء المدرسة . فأطنب فى الحديث عن حياته ، وعمّا لقيه من شدة و بؤس منذ غادر ڤريير . فقالت فى نفسها : لقد رحل عنى منذ عام ولم يصله منى ما يذكره بى ، لكنه لا يزال يذكر تلك الأيام السعيدة التى قضيناها فى ڤرجى معا ، أمّا أنا فقد نسيته .

واشتدّ بكاؤها ، ورأى چوليان أثر قصته فى نفسها ونجاحه فى سياسته ، وأدرك أنّ عليه محاولة أخرى تكون فصل الختام ، فذكر بغتة الذى أرسل إليه من باريس أخيرا وقال :

— لقد استأذنت مونسنيور رئيس الأساقفة .

— ماذا تقول ! ألا تعود إلى بيزانسون ؟ أهو فراق إلى الأبد ؟

فأجاب فى حزم وثبات :

— نعم ، سأرحل عن بلد نسينى أهله ، ونسيتنى تلك التى أحببتها

حباً لم أعرف مثله طول حياتى ، سأرحل عنه إلى غير رجعة . سأذهب إلى باريس .

فصاحت بصوت مرتفع :

أذاهب أنت إلى باريس !

وخنقتها العبرات ، ودلت نبراتها على ما تلقاه من عذاب أليم .

وقد كان چوليان فى حاجة إلى التشجيع منها ، وكان عليه أن يقدم على عمل قد لايكون فى مصلحته إطلاقا ، على أنه قبل أن تبدر منها هذه الصيحة ، لم يكن يعرف مقدار أثر قصته فى نفسها . عزم على ألا يتردد بعد ذلك ؛ وكان خوفه من لوم نفسه قد جعله مسيطرا عليها سيطرة تامة فنهض من مكانه وقال لها فى فتور :

— نعم ياسيدتى ، سأتركك إلى الأبد ، فكونى سعيدة ، وداعا ! !

وسار نحو النافذة ثم فتحها ، فأسرعت إليه وارتمت بين أحضانه .

وبهذا نال ما كان يتمناه فى شغف عظيم خلال الساعتين الأوليين من حديثهما الذى استمر ثلاث ساعات . وسرعان ما عادا إلى حديثهما القديم ، حديث العواطف الرقيقة ؛ واختفت وساوس مدام دى رينال بما أبداه من مهارة وفن ، فاستمتعا بالوصال فى لذة وسرور . وصمم چوليان على أن يوقد المصباح ، على الرغم من إلحاح صديقته فى ألا يفعل . فقال :

— أتريدين ألا يبقى فى ذاكرتى أثر من لقائك ؟ أتحبين ألا أرى ما ينبعث من عينيك الجميلتين من حب ومودة على أن أرى بياض هذه اليد الجميلة ؟ تذكرى أنى سأفارقك لأظل بعيدا عنك زمنا غير قصير !

وكانت مدام دى رينال لا ترفض له طلبا منذ ذكر لها هـذا الأمر الذى جعلها تضج بالبكاء . ولـكن الفجر قد بدأ يرسل أنواره على ذوائب أشجار الصنوبر القائمة على الجبل فى شرق فريير . وكان چوليان ثملا باللذة ، فلم يشأ أن يرحل بل طلب منها أن يقيم فى غرفتها مختفيا طول النهار فلا يتركها إلا فى الليلة القادمة .

— ولم لا ؟ هذه السقطة الجديدة التى كتبت على ، قد أفقدتنى كل احترام لنفسى وستكون سببا فى شقاء دائم لى ما حييت . وضمته إلى قلبها قائلة : لقد تغير زوجى حتى أصبحت نفسه تحيط بهـا الشكوك ، وهو يعتقد أننى جررت عليه كل هذا ، فهو لذلك مغيظ منى . ولو أنه سمع أقل جلبة لـكان فى هذا ضياعى ولطردنى كامرأة شريدة ، وأنا تلك الشريدة .

— آه ! هذه إحدى عبارات الأب شيلان ، لم تـكن طريقتك معى فى الـكلام هكذا ، قبل أن تفرق بيننا المدرسة هذا الفراق الأليم! كم كنت تحبيننى فى ذلك الحين !

قال هذا فى فتور شديد ، فـكوفىء على فتوره : فقد أنست صديقته الخطر الذى يتهددها من زوجها ، وجعلها تفـكر فى خطر آخر أشد وأمر وهو أن يشك جوليان فى حبها إياه .

وطلع النهار وملأ نوره نواحى الغرفة ؛ فملأ الـكبر نفسه حين رأى هذه الغادة الجميلة بين ذراعيه ورهن مايشير به ، هذه التى لم يحبب غيرها فى حياته ، والتى كانت قبل ذلك بساعات تخشى الله المنتقم ، فوقفت

جهودها على واجبها وظلت عاما فسلح نفسها وتقوى إرادتها ؛ لئلا تسقط مرة أخرى ، لـكن محاولاتها لم تجد أمام شجاعة صديقها فتيلا :

ثم سمعت بعد قليل فى المنزل وقع أقدام ، فطرأت عليها فـكرة لم تواتها من قبل ، وقالت لصديقها :

— ستدخل الغرفة هذه الفتاة اللعينة إليزا ، فأين أضع هذا السلم الضخم ؟ وأين أخفيه ؟ وصاحت بغتة كمن وجدت حلا سعيدا : سأحمله إلى السطح .

فأجابها وهو ذاهل .

— إن فعلت هذا كان عليك أن تمرى بحجرة الخدم .

— سأترك السلم فى الردهة وأنادى الخادم وآمره بما أريد .

— فـكرى فى كلمة تقولينها إذا مامر الخادم بالسلم فى الردهةورآه .

فقبلته قائلة :

— نعم يا ملاكى الـكريم ، وعليك أن تختفى سريعاً تحت السرير طول غيابى ، لأن إليزا تدخل الحجرة .

وأذهله فرحها الفجائى فقال فى نفسه : إن هناك خطرا ماديا يتهددها لـكنها لا تضطرب له ، بل يعود إليها مرحها لأنها نسيت الوساوس ! فيالها من امرأة رائعة ! آه ! إنه قلب يفخر به من يملـكه ! وقدكان جوليان سعيدا .

حملت مدام دى رينال السلم فألفته ثقيلا ، فأسرع إليها يعاونهاعلى حمله معجبا بقوامها المشوق الذى لا يدل ظاهره على القوة ، ولـكنه عجب حين رآها ترفعه وحدها بغتة ، كما لو كانت ترفع مقعدا . ثم أسرعت به إلى ردهة

الطبقة الثالثة ووضعته ممدداً بجوار الجدار . ونادت الخادم وصعدت إلى أبراج الحمام لتتيح له أن يرتدى ملابسه . و بعد خمس دقائق عادت إلى الردهة فلم تجد السلم . فماذا حدث ؟ لو أن جوليان لم يكن بالمنزل ما عبأت بهذا الخطر . ولكن لو رأى زوجها السلم الآن لوقعت الواقعة ! وأخذت مدام دى رينال تجرى فى كل مكان حتى وجدته أخيراً تحت السقف حيث وضعه الخادم مخفيا إياه . ورأت فى هذا التصرف غرابة فحسب ، ولو أنه حدث لها قبل ذلك لراعها .

قالت فى نفسها : ماذا يهمنى مما سيحدث بعد أربع وعشرين ساعة حين يرحل جوليان ؟ ألن يكون كل شيء فى نظرى فحشا وندما ؟ وكانت تطرأ عليها فكرة غامضة بأنها ينبغى لها أن تموت ، ولكن ماذا يعنيها ؟ فبعد فراق ظنته أبديا عاد إليها ورأته من جديد ، وقد خاطر مخاطرة شديدة فى سبيل الوصول إليها ، وهذا حب عظيم !

وقصت على جوليان قصة السلم ثم قالت له :

— بم أجيب زوجى لو أخبره الخادم بأنه عثر على سلم ؟ وغرقت فى أحلامها لحظة واستطردت تقول : لن يكتشفوا الفلاح الذى باعك السلم قبل أربع وعشرين ساعة ثم ارتمت بين أحضانه وضمته إليها ضما قويا وهى تقول : آه! ما أحلى الموت بين ذراعيك ! وقبلته قبلة حارة وهى تقول ضاحكة : على أنه ينبغى ألا تموت جوعا . تعال فاختف أولا فى غرفة مدام درفيل ، التى هى دائما مغلقة .

وذهبت إلى آخر الردهة لتتأكد من أن أحداً لا يراقبهما ، أما هو

فقد جرى إلى الغرفة ، ثم عادت لتغلق بابها بالمفتاح وقالت له . حذار من أن تفتح الباب إن طرقه طارق ، لأن الأطفال يفعلون ذلك وهم يلعبون فقال :

— أحضريهم إلى الحديقة تحت النافذة لأسعد برؤياهم وتحدثى إليهم .

فقالت وهى تنصرف :

— نعم ، نعم ، سأفعل .

ثم عادت اليه بعد قليل ، تحمل برتقالا و بسكوتا وزجاجة من نبيذ ملقا .

وكان من العسير عليها أن تسرق خبزا ، فسألها چوليان :

ماذا يفعل زوجك ؟

إنه يكتب مشروع صفقات سيعقدها مع الفلاحين ..

وفى الساعه الثامنة صباحاً ، عجّ المنزل بسكانه ، ولو لم تخرج مدام دى رينال إليهم فى هذا الوقت ، لبحثوا عنها فى كل مكان ؛ فاضطرت إلى مغادرة حبيبها ، ولكنها عادت إليه بعد قليل غير هيابة ولا وجلة ، تحمل إليه قدحا من القهوة ، وكانت مضطربة لأنها تخشى عليه أن يكون جائعا . وأفطر الأطفال فذهبت بهم إلى الحديقة تحت نافذة مدام درڤيل . فوجد چوليان أنهم شبوا وكبروا ، لكنهم قد طبعوا بالطابع العادىّ ، أو هكذا خيّل إليه ؛ فقد تكون آراؤه هى التى تغيرت .

وتحدثت إليهم أمهم عن چوليان ، فأبدى ابنها الأكبر صداقة لمعلمه السابق ، وأسفاً شديدا على فراقه ، أما الآخران فكانا قد أنسياه .

لم يغادر السيد دى رينال منزله فى هذا الصباح ، وكان دائم الصعود

والنزول مشغولا بعقد صفقاته مع الفلاحين الذين يشترون منه محصول البطاطس، ولم تجد مدام دى رينال إلى ما بعد الغداء لحظة فراغ ترى فيها سجينها . وانتهى الغداء ففكرت أن تسرق له شيئا من الحساء الساخن .

واقتربت من باب الغرفة حذرة ، وهى تحمل فى يدها إناء الحساء، فلقيت الخادم الذى أخفى السلم فى الصباح ، وهو يسير فى الردهة من غير جلبة كأنه يتسمّع على الباب . ربما كان چوليان يسير فى الغرفة على غير حذر !! ابتعد الخادم وقد اضطرب قليلا ، فدخلت مدام دى رينال على چوليان فى جرأة ، وقد أزعجه هذا اللقاء ، فقالت له صديقته :

أنت خائف أما أنا فأستطيع أن أواجه الأخطار دون أن تطرف لى عين ، أنا لا أخشى إلاّ شيئا وحدا وهو اللحظة التى أبقى فيها وحدى بعد رحيلك . ثم غادرته مسرعة .

فحدث چوليان نفسه قائلا فى لذة :

— آه إن الندم وحده هو الذى يخيف هذه النفس السامية الرفيعة !

وأخيراً أتى المساء ، وذهب السيد دى رينال إلى الكازينو ، وادعت زوجته أنها مصابة بصداع شديد ، وذهبت إلى غرفتها وأسرعت فى صرف إليزا ، ونهضت لتطلق چوليان من سجنه .

كان جائعاً حقاً إلى أقصى غاية الجوع ، فذهبت إلى المطبخ لتبحث عن خبز ، فسمع چوليان صيحة عالية ، وعادت إليه فأخبرته أنها كانت تقترب من خزانة الطعام فى الظلام ، ومدّت يدها فلمست ذراع امرأة ، وإذا بها إليزا التى سمع چوليان صيحتها .

— وماذا كانت تفعل هناك ! قالت في غير اكتراث :

ربما كانت تسرق بعض الحلوى أو كانت تتجسس علينا .
ولكنى من حسن الحظ وجد إداما ورغيفا كبيرا .

فأشار إلى جيوب ميثرتها وهو يسأل :

ولكن ما هذا إذن ؟

وقد نسيت مدام دى رينال أن جيوبها مليئة بالخبز منذ العشاء . فاحتضنها چوليان بين ذراعيه في قوة وحب ، وبدت له جميلة رائعة ! فقال فى نفسه : لن ألقى فى باريس نفسها امرأة على هذا الخلق ، لم تكن لها دراية المرأة التى اعتادت أن تعمل ما تعمله هى الآن ، لكنها كانت تتصف فى نفس الوقت بشجاعة كاملة ، شجاعة شخص لا يخاف إلاّ الله .

كان چوليان يتناول عشاءه فى شهية ، وصديقته تسخر من بساطة ما قدّم إليه من طعام لأنها لم تشأ أن تتحدث إليه حديثا جدّيا ، و بينما هما كذلك طرق الباب فجأة و بقوة . وكان الطارق هو السيد دى رينال .

— لماذا أغلقت عليك الباب ؟

واختفى چوليان فى الحال تحت الأريكة .

— ما هذا ! ألا تزالين بملابسك وتأكلين ، وقد أغلقت الباب عليك بالمفتاح ؟ كان مثل هذا السؤال فى الأيام العادية ، و بهذه اللهجة يثير الاضطراب فى نفس مدام دى رينال ، ولكنها تعلم الآن أن زوجها إذا نظر قليلا إلى أسفل رأى چوليان ، لأن السيد دى رينال جالس على المقعد المقابل للأريكة ، والذى كان چوليان جالسا عليه منذ لحظة قصيرة

إنّ الصداع يتخذ عذرا لكلّ شيء ، وجلس الزوج يقص عليها في اطناب تفاصيل لعبة البولة ، التي درّت عليه ربحا قدره تسعة عشر فرنكا ، فرأت مدام دى دى رينال قبعة چوليان على مقعد يبعد عنهما ثلاث خطوات . فازداد ذباتها ، وأخذت تخلع ملابسها ، ثم مرت بسرعة من خلف زوجها وألقت بثوبها على المقعد فأخفت القبعة .

وأخيرا غادر السيد دى رينال الغرفة ، ورجت چوليان أن يبدأ من جديد قصة حياته فى المدرسة قائلة له : لم أكن مصغية إليك بالأمس ، وكنت أفكرّ وأنت تتحدث كيف أتغلب على نفسى لأدعك تغادرنى .

لم تكن مبالية بشيء فقد كانا يتحدثان بصوت مرتفع ، وفى الساعة الثانية صباحا دقّ باب الغرفة فى عنف شديد . وكان الطارق مرة أخرى هو السيد دى رينال .

— افتحى بسرعة ، إن بالمنزل لصوصا ! فقد وجد سان جان سلمهم هذا الصباح .

فارتمت بين أحضان چوليان وقالت له :

— هذه هى الخاتمة . إنه سيقتلنا معاً ، فهو لا يؤمن بوجود لصوص فى المنزل . سأموت بين ذراعيك ، فألقى فى موتى سعادة لم أنلها فى حياتى ، ولم تجب زوجها الذى أخذ منه الغضب كل مأخذ ، وانهالت على چوليان تقبيلا فى حرارة وثورة . فنظر إليها نظرات آمرة وقال لها :

— أنقذى أم ستانيلاس . وسأقفز إلى الفناء من نافذة دورة المياه وأفرّ من الحديقة فإن الكلاب عرفتنى . لفّى ثيابى واجعليها حزمة ، وألقى

إلىّ بها فى الحال . ولا تفتحى الباب قبل أن تفعلى كل ذلك ، بل اتركيه يكسره . حذار أن تعترفى بشىء إطلاقاً ! إنى أحرم عليك ذلك ، فخير عندى أن يكون شاكاً من أن تصبح ظنونه صدقاً ويقيناً .

— ستقتل نفسك إذا قفزت ! كانت هذه العبارة هى كل ما أبدته من إجابة وقلق .

وذهبت معه إلى النافذة ، ثم أخفت ملابسه على مهل ، وفتحت الباب لزوجها أخيراً وهو يكاد يتميز من شدة الغيظ . وأخذ ينظر فى الغرفة وفى دورة المياه دون أن يقول شيئاً ثم انصرف . وألقت هى ملابس چوليان إليه ، فأخذها وجرى فى سرعة إلى داخل الحديقة فى الجهة المطلّة على نهر الدو .

و بينما هو يجرى سمع رصاصة تمر قريباً منه ثم طلقة من بندقية . فقال فى نفسه : ليس هذا بالسيد دى رينال ، فهو لا يحسن الرماية . وكانت الكلاب تجرى إلى جانبه فى سكون . ثم أطلقت رصاصة أخرى فأصابت كلباً فى رجله ، فصاح صيحات موجعة . قفز چوليان من أحد جدران الحديقة . ثم سار خمسين خطوة وغيّر اتجاهه مولياً الأدبار . وسمع أصواتاً تنادى ، ورأى بوضوح الخادم الذى كان عدوّاً له من قبل يطلق النار من بندقية . وكان فلاح يطلق النار من الناحية الأخرى من الحديقة ؛ ولكنّ چوليان كان قد وصل إلى شاطىء نهر الدو حيث ارتدى ثيابه .

و بعد ذلك بساعة ، كان على بعد فرسخ من ڤرييرسائراً فى طريق جنيف ؛ لأنه قال فى نفسه : إذا كانت شكوكهم متجهة إلىّ فإنهم سيبحثون عنى على طريق باريس .

فهـــرس

		صفحة
مقـــدمة	ستندال	أ
الفصل الأول	— مدينة صغيرة	١
الفصل الثـانى	— عمـدة	٦
« الثالث	— أموال الفقراء	١١
« الرابع	— أب وابن	١٩
« الخامس	— مفاوضات	٢٥
« السادس	— السأم	٣٧
« السابع	— التقارب المعيشى	٤٩
« الثامن	— حوادث صغيرة	٦٥
« التـاسع	— سهرة فى الريف	٧٧
« العاشر	— قلب كبير ومال قليل	٨٩
« الحادى عشر	— سهرة	٩٤
« الثـانى عشر	— رحـلة	١٠١
« الثالث عشر	— الجوارب الأنيقة	١١١
« الرابع عشر	— المقص الإنجليزى	١١٨
« الخامس عشر	— صياح الديك	١٢٣
« السادس عشر	— فى اليوم التـالى	١٢٨

صفحة

« السابع عشر — النائب الأول ١٣٥
الفصل الثامن عشر — ملك فى فريير ١٤٢
« التاسع عشر — التفكير وسيلة الآلام ١٦٢
« العشرون — الخطابات المجهولة ١٧٥
« الحادى والعشرون — حوار مع سيد ١٨١
« الثانى والعشرون — ضروب من التصرفات فى عام ١٩٣٠ ٢٠١
« الثالث والعشرون — أحزان موظف ٢٢٠
« الرابع والعشرون — غاصمة ٢٤٢
« الخامس والعشرون — المدرسة الإكليريكية ٢٥٣
« السادس العشرون — العالم أو ما يفتقر إليه الغنى ٢٦٤
« السابع والعشرون — التجربة الأولى فى الحياة ٢٧٩
« الثامن والعشرون — موكب دينى ٢٨٤
« التاسع والعشرون — أول نجاح ٢٩٥
« الثلاثون — طموح ٣١٧

Twitter: @ketab_n

الإشــــــراف اللغــــوى : حسام عبد العزيز

الإشــــراف الفـــــنى : حـسـن كـامـل

التصميم الأساسى للغلاف : أسـامـة العـبـد

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة

"الأحمر والأسود" رائعة الكاتب الفرنسى الشهير ستندال، التى اقتبس مؤلفها فكرتها من حادثة مأساوية واقعية وأضاف إليها ما رآه لازما لشخوص الرواية. وهى رواية تاريخية تكشف عن خفايا ثورة سنة **1830** فى باريس، مع دراسة المجتمع الفرنسى آنذاك وما به من تعارض واضح بين طبقة النبلاء والبرجوازيين والطبقة الدنيا، وبين أنصار المذاهب الدينية المتشددة وغيرهم، كما يعرض ستندال لأفكاره ومشاعره وحيله التى تتحكم فى سلوكه وتردده بين "الأحمر" الجيش و"الأسود" رجال الدين، واستطاع أن يوفق بين رومانسيته القلقة وبين واقعيته الحازمة.

تصميم الغلاف: سيد هلال